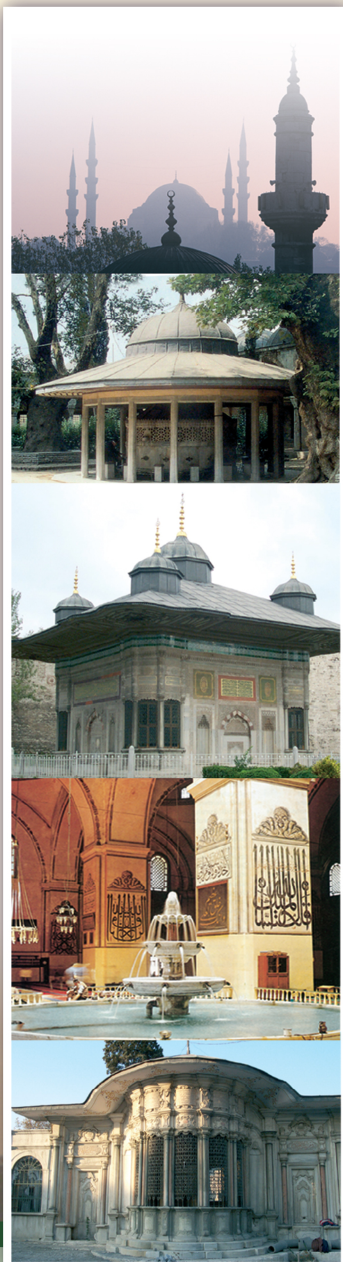
ثلاثية الخير والعطاء في الحضارة الإسلامية

الوقف
الإنفاق
الخدمة



عثمان نوري طوباش

دار الأرقم

إسطنبول: ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م

إسطنبول: ١٤٣٧/ ٢٠١٦

اسم الكتاب باللغة التركية:
Medeniyetimizin Fazîlet Zirvelerinden Vakıf İnfak Hizmet

اسم الكتاب بالعربية: الوقف والإنفاق والخدمة

الترجمة للعربية: د. محمد حرب

مراجعةو تصحيح وتدقيق: اسماعيل يلماز الندوي/ محمد إياد

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN:٩٧٨٩٩٤٤٨٣٦٦٥٤

Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:



▸ Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : www.islamicpublishing.net

ثلاثية الخير والعطاء في الحضارة الإسلامية

الوقف
الإنفاق
الخدمة

عثمان نوري طوبّاش

فهرس

المقدمة.. ٩

القسم الأول/١٧

الوقف في حضارتنا

الوقف في حضارتنا.. ١٩

القسم الثاني/٥٥

الإنفاق وأصوله

أ- الزكاة.. ٥٧

الحكمة الفردية والاجتماعية للزكاة.. ٦١

العاقبة المؤلمة لمن يهملون دفع الزكاة.. ٦٩

زكاة المحاصيل الأرضية: العُشر.. ٨٧

ب- الإنفاق.. ٩١

١. كيفيته وماهيته.. ٩١

٢. أدب الإنفاق.. ١٠٥

الزكاة من الناحية الفقهية.. ١١٥

- شروط فرضية الزكاة.. ١١٥
- المال الذي تجب الزكاة عنه ومقداره.. ١١٩

• الجهات التي يجوز صرف الزكاة إليها...... ١٢٢
• الذين لا يصح دفع الزكاة لهم...... ١٢٣
• العشر: الزكاة على المحاصيل الزراعية...... ١٢٤
الثروة أمانة: حوار خاص حول الإنفاق والزكاة والوقف...... ١٢٨

القسم الثالث/١٥١

الخدمة وآدابها

الخدمة : قمة الرقي الروحي...... ١٥٣
الإسلام: إحياء الإنسان...... ١٦٨
أسلوب الهداية والرحمة في الخدمة...... ١٨٩
أسلوب الشفقة والحلم في الخدمة...... ٢٠٥
الأدب والمقاييس في الخدمة...... ٢٢٠
١. إدراك أهمية الخدمة...... ٢٢٢
٢. تزيين القلوب بالخصال المعنوية...... ٢٢٨
أ. يجب أن يكون القلب دائمًا مع الله...... ٢٣١
ب. ملء القلب بحب الله ورسوله...... ٢٣٢
ج. ملء القلوب بمشاعر الأخوة في الدين...... ٢٣٦
د. أن يمتلئ القلب بالرحمة والشفقة والحب للمخلوقات...... ٢٤٤
٣. الحفاظ على الإخلاص والاستقامة...... ٢٤٥
٤. أن يكون صاحب شفقة ورحمة وعفو...... ٢٥١

٥. التحرك بالاستشارة ٢٥٩
٦. التعرف جيدًا على من تتم خدمته ٢٦٢
٧. الحفاظ على الاعتدال ٢٦٧
٨. إيلاء الأولوية للخدمات المتعلقة بتعليم وتعلم القرآن الكريم ٢٧٧
٩. تطوير النفس علميًّا وأخلاقيًّا ٢٨٧
أ. التكامل العلمي ٢٨٩
ب. التكامل المعنوي ٢٩٠
ج. التكامل المِهني ٢٩٢
١٠. نسبة التقصير إلى النفس والتوفيق إلى الله ٢٩٦
١١. السعي لأن يكون نموذجًا وقدوة في الخدمة ٣٠٤
١٢. الثبات على الخدمة وبذلها بكل حماسة ٣٠٤
مقتطفات من وصية سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لمالك الأشتر لما ولاه مصر .. ٣١٧
من نصائح الشيخ أدبالي لعثمان غازي ٣٢٣

مُقَدِّمَة

الحمد لله الرحمن الرحيم، الذي شرَّفنا -نحن عباده العاجزين- بنعمة الإيمان، والصلاة والسلام على فخر الوجود محمد ﷺ، المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد....

إن جوهر الإسلام ولبه إنما هو توحيد الله اعتقادًا، والأدب والاستقامة والرحمة عملا، فالرحمة هي الثمرة الأولى في شجرة الإيمان، والتي إذا خلا القلب منها لم ينبض بالحياة، والبسملة التي هي بداية كل أعمال الخير، وفاتحة الكتاب التي هي أول سورة في القرآن، كلتاهما تبدآن بالرحمن والرحيم، وسير الأنبياء والصالحين كذلك حافلة بمناقب الرحمة وقصصها، وما الإنفاق إلا صورة من أكمل صورها.

فالإنفاق يخلق مناخًا اجتماعيًّا آمنًا ومطمئنا يحقق الإنسان من خلاله أهم مقاصد الدين، ألا وهو التكافل الاجتماعي، والذي لا يمكن أن يتحقق إلا باشتمال القلوب على مشاعر الرحمة والشفقة.

والزكاة والصدقة ومساعدة المحتاجين في سبيل الله ﷻ عبادات تُعد من أسمى مظاهر الرحمة، وكلها وسائل يتقرب بها العبد من ربه شاكرًا لنعمه،

والإيثار كذلك من أجلى مظاهر الحب الحقيقي، فكل من أحب يدرك أن العطاء في سبيل من يحب تعبير عن مدى إخلاصه له؛ ولذا فقلب المؤمن مفعم بالمودة والرحمة لكل المخلوقات إجلالا وتعظيمًا للخالق.

لكن مشاعر الأخوة في وقتنا الراهن قد ضعفت، مع الأسف، وانحلت عرى الترابط الاجتماعي، وازداد الشقاق في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى البذل والعطاء، ومدّ يد العون للمحتاجين في خضم الأزمات الاجتماعية والاقتصادية الكبيرة التي تصيب المجتمعات من ناحية، والشح الذي أصاب الناس من جراء التكالب على المادة من ناحية أخرى، ومن ثَمَّ أصبح الإنفاق على رأس الأشياء المنسية والمهملة.

وأول ما يتبادر إلى الذهن بهذا الخصوص، العبادات الاجتماعية كالزكاة والصدقة، و مؤسسات الرحمة والشفقة كالمؤسسات الخيرية والأوقاف.

ولذا يجب تكرار الكتابة في هذه الموضوعات الإسلامية التي تُعنى بتنظيم حياة الإنسان من المهد إلى اللحد في ضوء المتطلباتٍ والضرورات الخاصة بكل عصر، وإلا فلن ندرك مدى البون الشاسع بين أخلاقيات الإسلام الرفيعة والأحداث الجارية التي نعيشها، وعليه فلن ندرك مدى الضعف الذي أصاب السلوك الإسلامي الرفيع في الصميم، ومن ذلك على سبيل المثال موضوع العُشْر[١] الذي قدمناه في كتابنا هذا باختصار.

وقد شعرنا بالحاجة إلى تأليف هذا الكتاب للتذكير بالمبادئ الأصيلة التي تحكم الجوانب المالية في ديننا الإسلامي، كالزكاة والأوقاف، ولنعمل كذلك على إصلاح المجتمع الذي نعيش فيه وفقا لتلك المبادئ، وهدفنا من ذلك هو

---

١ العُشْر كاصطلاح فقهي هو زكاة ما يخرج من الأرض من المحاصيل الزراعية . [المترجم]

حث الناس وترغيبهم في الأخذ بها من خلال الدعوة إلى الإنفاق وإخراج الزكاة وإعلان النفير العام في مجتمعنا الإسلامي؛ لتكون بلسمًا وشفاءً لكثير من أمراض المجتمع، وحلا لكثير من مشكلاته، وشوقًا إلى الشعور الديني والحماس له.

واستشهدنا في كتابنا هذا بالحقائق التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع، لتكون نبراسًا ومقياسًا نحاكم إليه أنفسنا وضمائرنا.

هذا ولقد كان من أهم العوامل الرئيسية في نجاح الدولة العثمانية، وبقائها صامدة في وجه العالم ستة قرون ونصفًا، هو"المؤسسات الخيرية" لاسيما مؤسسة الوقف؛ رغم أنه قد عاشت في ظلها كثير من المجتمعات المتباينة في اللغة والدين والعرق.

وبالمناسبة فإنه مما لا شك فيه أن التاريخ هو ذاكرة الأمم ومجموعة من التجارب الوطنية، ولا يمكن تصور أمة بلا تاريخ تستلهم من خلاله الدروس والعبر لتبني مستقبلها على أساس قويم.

والتاريخ مليء بانتصارات ونجاحات مادية ومعنوية في إحيائها حافز عظيم للأجيال المقبلة، وإذا نظرنا إلى تاريخنا الإسلامي من هذا المنطلق لوجدناه لا يقارَن بتاريخ أية أمة أخرى، بفضل ما وصل إليه من رقي وازدهار في المجالات العلمية والعسكرية والاجتماعية والخُلُقِيَّة، غير أن بعض الجهلاء ممَّن يلهث خلف المادة في مجتمعاتنا المعاصرة قد تسلطوا على تاريخنا وقيمه المعنوية؛ لأنهم استوطنوا مجتمعنا الآمن دون أن يكون لهم تراث حضاري، فليس لهم ماض أو تاريخ قديم، فكان تشويههم لماضينا المشرِّف يعكس في حقيقته مدى ما تنطوي عليه نفوسهم نحونا من حقد دفين، ومحاولاتُهم المتكررة -لإبعادنا عن تاريخنا الفياض بالقيم المعنوية- قديمةٌ جدًّا.

فلقد قامت محاولاتٌ كثيرة لإضعاف قيمنا المعنوية والأصيلة، التي كانت ذات أثر في استمرار حُكْمِنَا العَالَمَ ما يقرب من ألف عام، ومع توالي هذه المحاولات لتحقيق هدفهم ظهر في الدولة العثمانية، مع مرور الوقت، فريق من المتآمرين والخونة، واختفت مشاعر الانتماء، وظهرت أجيال ترفض الميراث التاريخي، وما زلنا نعيش أكثر صفحات هذه الكارثة قتامة في حالة من الدهشة، ولذا يجب أن نولي وجهنا من جديد شطر هذا النبع الفياض؛ لنتبوأ مكانًا يليق بعظمة أسلافنا، ونتخلص أيضًا من مشاعر الدونية التي نشعر بها أمام التقدم الغربي التقني، ونسترجع أسباب العظمة والرقي، ونمسك بزمام القيادة مرة أخرى.

ولا سبيل لنا إلى ذلك إلا بالنهل من هذا النبع المادي والمعنوي، الذي إذا حرمنا منه فقد حرمنا من الحياة، وربما تكون النهاية أخطر من ذلك.

والحرمان من مشاعر الانتماء لتاريخنا أوقعنا في عواقب وخيمة، ولكننا نعتقد أن هذه العواقب الوخيمة سترشد أمتنا في القريب العاجل إلى فهم الحقائق، والتوجه بشوق وسعي حثيث إلى معرفة التاريخ الذى جعل أجدادنا بهذا القدر من العالمية، وفي هذا الإطار كان الهدف الأصلي من تأليف هذا الكتاب هو فتح الباب إلى هذا المنبع الفياض.

إن من أكثر صفحات ميراثنا التاريخي تألقًا في الناحية الإنسانية والحضارية رعاية الإنسان وكفالته بالوقف والإنفاق في وجوه البر المتعددة، ذلك السلوك الاجتماعي الذي يعد وسيلة لتزود الإنسان بالقيم الروحية والخُلُقِية التي تحقق الغاية من خلقه في أحسن تقويم.

وفي هذا الكتاب سنلقي الضوء على هذا الجانب من تراثنا التاريخي، وكما هو واضح في مواضع مختلفة من الكتاب فقد تمكن أسلافنا الأبرار من حل

مشكلات الأهالي وذوي الاحتياجات، حتى شملت رحمتهم ورعايتهم كثيرًا من مخلوقات الله، بما في ذلك الدواب العاجزة الضعيفة، الأمر الذي لا تستطيع أية دولة في العالم اليوم أن تصل إليه كما وصل إليه أسلافنا، وما تحمله هذه القيم من دروس مستفادة يمكن أن نستلهمها من تاريخنا المشرف.

لقد بلغ أجدادنا درجة من الرحمة والشفقة والمحبة لم يبلغها أحد سواهم، بخدمتهم المرضى الذين أصابهم "الجنون"، وكانوا يطلقون عليهم بكل أدب وإكرام "الضعفاء المحترمون"، ويطعمونهم من لحوم الصيد الذي يصطادونه، ويعالجونهم بالموسيقى.

كما امتدت يد الشفقة في حضارة الوقف العثماني إلى مرضى الجذام، الذين تنفر منهم المجتمعات عادة بسبب مرضهم الخطير، فأسسوا لهم المؤسسات الخيرية المسماة بـــ "تكية المساكين"، التي كانت تقدم لهم جميع أنواع الرعاية.

ومن الأهمية بمكان أن نعرف الممارسات والتطبيقات العملية التي قام بها الوقف العثماني لعلاج الطيور الجريحة المهاجرة، والعاجزة عن الطيران، حيث كانوا يؤسسون لها فوق أسطح منازلهم أماكن للإيواء، أطلقوا عليها "منازل الطيور"، ومن الأهمية بمكان أن نقيس أنفسنا بتلك المقاييس.

من ناحية أخرى عبّر أجدادنا عن تشبعهم بمشاعر المحبة والرحمة بالخلق من خلال الوقف ومؤسساته الخيرية بأكثر من طريقة؛ حيث كانت عنايتهم كبيرة بحفظ كرامة الأيتام والأرامل والفقراء والمساكين، فأقاموا لهم في الجوامع ما يعرف بـ "أحجار الصدقات"؛ كي لا يرى المتصدقُ من يأخذ صدقته، وكانوا يوزعون الطعام على المساكين في ظلمة الليل حتى لا يجرحوا مشاعرهم.

وهذا الخُلُق من أروع أساليب المحبة والرحمة التي تحتذى، لدرجة أنهم خصصوا وقفًا لدفع قيمة ما أتلفه أو كسره الخدم؛ حتى لا يتعرضوا لإهانة ساداتهم لهم، وهذا بالطبع دليل على عمق مشاعر الرحمة الذي يفوق الخيال، ومبدأ يجب ذكره والإشادة به إعزازًا وتكريمًا لشرف الإنسان.

هذه الحقائق لا يمكن إدراك قيمتها وفهم مغزاها الحقيقي إلا إذا انعكست على حياتنا، وصارت واقعًا في تصرفاتنا وسلوكنا، فكل واحد منها يعد نبراس هداية يبيِّن مدى حاجتنا الملحة إلى هذه الرحمة وأثرها في حياتنا، وإذا كنا قد خصصنا مساحة كبيرة في كتابنا هذا للنماذج العملية والتطبيقات الفعلية، فليس مردُّ ذلك إلى واجب الوفاء والتقدير الذي نكنه لأسلافنا العظماء فحسب، وإنه لحق، ولكن للإفادة منها والعمل بها.

فالأوقاف -بوصفها تعبيرًا عن مظاهر الحب والرحمة والشفقة في المجتمع مارسه أسلافنا- تحمل الكثير من العبر للأجيال الحالية، ونحن في هذا الكتاب سنخرج مع القارئ في رحلة نطالع من خلالها صورًا للإنفاق عبر الزمان، جعل الله لنا ولكم نصيبًا من فيض هذا الإنفاق!!

ولا شك أن تلك الخدمات الجليلة -التي أوردنا نماذج منها- لا يمكن أن تتحقق إلا بفضل أناس أَكْفَاء يضطلعون بها، ويُعَدُّون قدوة لغيرهم في فن التضحية والعطاء.

وكل عمل خيري يتم، إنما يعطي نتائجه وفقًا لدرجة استعداد من يقومون به، وطبقًا لمراتب ثقافتهم، فكما أن الأعمال التي يُعهد بها إلى ذوي الكفاءات العلمية والخُلُقِيَّة تكلل بالنتائج الطيبة، بالمقابل فإن الأعمال التي يعهد بها إلى أناس ليسوا أهلًا لها تمارَس بمشقة كبيرة وتذهب هدرا ودون جدوى.

وتأسيسًا على هذه القاعدة فقد أضفنا إلى كتابنا هذا قسمًا عن الوقف وآدابه، وتناولنا الآداب والصفات الواجب توافرها فيمن يقومون على العمل الخيري، وتحتوي تلك الصفات والآداب على اثنتي عشرة مادة، هي خلاصة ما يتصف به إنسان الوقف من صفات ظاهرة وباطنة، كالعلم والعرفان، والمعرفة والوجدان، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

وهدفنا من ذلك هو الوصول بالعبد إلى مراتب الكمال وتمام الإيمان، من خلال تربية أفئدة مؤمنة تسعى إلى الكمال من جهة، واختيار أشخاص ذوي لياقة وكفاءة وخبرة من جهة أخرى -كالطير تصل إلى غايتها حين تطير بجناحين معا- فيا رب أنعم علينا بأمثال هؤلاء!!

وختاما أتقدم بالشكر لـلأستاذ محمد عاكف كوناي، وإخواننا الأكاديميين الذين شاركوا في تأليف هذا الكتاب، وأدعو الله ﷻ أن تكون خدماتهم صدقة جارية مقبولة عنده!!

اللهم يا مالك الملك، اجعل كل ما قدمنا من مظاهر الشفقة والرحمة والوقف والإنفاق خالصًا لوجهك، ومعينًا لا ينضب لحياة قلوبنا!! آمين.

عثمان نوري طوبّاش

أسكدار/ إسطنبول- ٢٠١٤

القسم الأول

من ذُرى الفضيلة في حضارتنا



الوقف في حضارتنا

الوقف في حضارتنا

إن الوقف مؤسسة تجسد استمرارية الإنفاق الذي هو مظهر للحب والشفقة والرحمة من الخالق إلى المخلوقات، والوقف يعبر عن إنفاق المال في سبيل الله ﷻ، واستخدامه من أجل غاية أبدية سامية تمنع التمليك والتملّك[٢]، أما الغاية فهي الإنفاق بسخاء على كل المحتاجين من المخلوقات، والتقرب إليهم برحمة وشفقة ابتغاء مرضاة الله تعالى، فالتضحية بالمال في سبيل الله -بل حتى بالروح إذا اقتضت الحاجة- إنما هي أمر إلهي يجب على كل مؤمن تنفيذه كشرط من شروط كمال الإيمان، وقد ورد في القرآن الكريم:

﴿...وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥)

٢ التمليك لغة هو إعطاء المال لشخص آخر ملكا، والتملّك هو أن يجعل المال ملكا لنفسه.

"إن القلوب الغارقة في الفقر والعوز تشبه البيوت الممتلئة بالدخان، فاستمع لآلامهم وكن علاجًا لهذا الألم، وبذلك تكون قد فتحت نافذة في هذا البيت ليخرج الدخان منها، وستكون في الوقت نفسه قد راقبت قلبك وارتقيت بروحك"

مولانا جلال الدين الرومي

ووورد أيضًا:

﴿...وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: ٣)

ووورد أيضًا:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾ (التوبة: ١١١)

وقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: ٢٠٧)

وقد وضع الإسلام نصب الأعين أن الدنيا دار استعداد للآخرة، وأن الآخرة خير وأبقى، ولذلك فقد أسس الإسلام أجمل وأكمل توازن بين مطالب الروح والمادة، وبين المعنى والمبنى، وأقام بهذا التوازن أرضية راسخة لمجتمع مستقر متناغم.

إن الأوقاف التي قدمت العديد من الخدمات في أرجاء شاسعة، تعد أفضل مؤسسات للإنفاق في سبيل الله ﷻ، ويعد الوقف في جوهره ومظهره أتم صورة من صور الرحمة والشفقة التي كفلها الإسلام لكل المخلوقات.

وقد أمرنا القرآن الكريم بأن ننفق مما نحب حتى يكتمل إيماننا وننال مرضاة الله، ولما كان المال والروح هما أهم وأغلى ما يملكه الإنسان، وكان بذلهما في سبيل الله ﷻ



قَالَ تَعَالَى:
﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
(التَّوْبَةِ: ١١١)



يحقق مرضاة الله ﷻ والفوز بالجنة، أُطلِق على كل من يبذل ماله وروحه وكل ما يملكه في سبيل الله ﷻ بسخاء نفس "إنسان الوقف"، أي الذي وقف نفسه لخدمة خلق الله تعالى.

وفي الحقيقة إن هؤلاء الناس جديرون بأن يطلق عليهم هذا الاسم؛ لأنهم أوقفوا كل إمكاناتهم على الخير، فهم يحملون على عاتقهم وظيفة غاية في الأهمية من أجل تحقيق الطمأنينة والسعادة للمجتمع؛ وذلك أن أعمالهم وخدماتهم لا يقتصر نفعها -بشكل عام- على فترة حياتهم لكنها تمتد إلى أزمنة بعيدة متتالية بفضل هذه المؤسسات التي خلفوها، ويأتي الأنبياء على رأس رجال الوقف، ثم الأولياء، ثم من تربوا على أيديهم من الصالحين، الذين حملوا في قلوبهم هذا العطاء الإيماني إلى جهات الدنيا الأربع، وملؤوا بأمجادهم صفحات التاريخ الذهبية.

أما الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية والتي صار عصرنا مسرحًا للكثير منها، فإن مردها يعود إلى نهب الأوقاف القديمة، ومن ثَمَّ إلى ضياعها في الفترة السابقة، وإلى عدم كفاية مؤسسات الوقف حديثًا، وعجزها عن تلبية حاجات المجتمع، ولتلافي هذه الحال من عدم الكفاية يجب التوجه إلى جهود الأثرياء في عصرنا؛ لأن المسؤولية في هذه الحال إنما تقع على عاتقهم في المقام الأول.

"إنسان الوقف" هو: اسم أُطلِق على كل من يبذل ماله وروحه وكل ما يملكه في سبيل الله ﷻ بسخاء؛ أي الذي وقف نفسه لخدمة خلق الله تعالى.



وقد ورد في الحديث الشريف:

«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».[٣]

وقد أوضح علماء الإسلام أن المقصود بالصدقة الجارية هنا الوقف، والصدقة الجارية هي العمل الذي يقدم الخدمة بصفة مستمرة ابتغاء مرضاة الله تعالى.

ومنذ بدء الخليقة توجد أنهار وجداول متدفقة بعطائها الرقراق ومشاعرها العذبة، وستظل متدفقة إلى يوم القيامة، إن شاء الله، تعطي الحياة للنفوس الظامئة، والأمل والسعادة للقلوب الواجفة، والإلهام للأرواح العاشقة، ولهذا فإن الرسول ﷺ شبه جزءًا من هذه الأعمال الصالحة التي تبذل في سبيل الله بالنهر الجاري، إلا أن النهر الذي تحدث عنه الرسول ﷺ نهر مختلف؛ لأنه لن يتدفق إلى يوم القيامة فحسب، بل سيتدفق إلى الأبد، فهو نهر الخير الذي يتدفق دون توقف، ويجلب معه المثوبة والدعاء للعبد، وكلما تدفق هذا النهر ملأ صحيفة أعمال صاحبه وحوض خيراته، وغمره بالنور الأبدي؛ إنه نهر الصدقة الجارية.

وقد سخر الله تعالى الأرض وما فيها من كائنات للإنسان وجعله مسؤولًا عنها، ويدخل ضمن هذا الأولاد والمال والصحة والجاه، فكلها ودائع لدى الإنسان يجب

قال النبي ﷺ:
« إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»
(مسلم، الوصية، ١٤)

---

٣ مسلم، الوصية، ١٤/ ١٦٣١.



الحفاظ عليها وصيانتها، ورعاية الإنسان لتلك الأمانات حق رعايتها، والتصرف فيها بما يرضي مالكها الأصلي اللهُ تعالى، من أهم الوسائل لاستجلاب البركة والرحمة الإلهية.

يقول يونس أمره:

يا صاحب الملك، يا صاحب المال
أتحسب أنك أول صاحب لهذا المال
المال زائل، والملك زائل
وأنت عما قريب زائل

وعلى هذا الأساس فالمال بالمعنى الحقيقي إنما هو لله تعالى، كما عبر يونس أمره بأجمل وأوجز عبارة، والله تعالى منح الإنسان حق التصرف فيه لفترة زمنية معينة، ولهذا فإن العيش بمبدأ "الثروة أمانة" إنما هو أحد الشروط التي تجعل إيمان المرء كاملًا.

ولهذا فإن استخدام الثروة خارج مجالات الإنفاق المحددة إنما هو خيانة للأمانة، وكما أن عقاب تلك الخيانة في الآخرة سيكون ثقيلًا، فإنها كذلك ستكون بلا شك سببًا في العديد من الأزمات في حياة الفرد والمجتمع في الدنيا.

ولهذا فإن الإنفاق يعد أهم وسيلة كيلا يُخِلَّ رأسُ المال بسلامة المجتمع وأمنه، وكي يساهم في إزالة البغض والحسد من بين الأفراد، لأن رأس المال عادةً يُخل بالمجتمع كما يخل ميكروب سرطاني بصحة البدن.

يا صاحب الملك، يا صاحب المال
أتحسب أنك أول صاحب لهذا المال.
المال زائل، والملك زائل
وأنت عما قريب زائل.

يونس أمره



قال الله ﷻ:
﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾
(البقرة: ٢٦١)

ولذلك فيجب على أصحاب الثروة ألا ينسوا حقيقة مهمة وهي أنهم هم أنفسهم قد يحلون محل هؤلاء المحتاجين في أي لحظة، ولذلك ينبغي عليهم أن يكونوا مستعدين للمشاركة في النفير العام للإنفاق حسب المستطاع، لأن هذا التصرف سيكون تعبيرًا فعليًّا عن شكر الله على نعمه التي منحها لهم.

وتحصيل البركة عن الأعمال الخيرية التي تتم في سبيل الله وفي سبيل ابتغاء مرضاة الله، إنما يكون بحسب النية، فالأعمال المقبولة هي التي تُؤدى بإخلاص وإتقان، فالله تعالى يجزي العبد أضعافًا مضاعفة على أي عمل خيري يتم في سبيله، حتى ولو كان صغيرًا، وقد ورد في الآية الكريمة:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١)

وقال النبي ﷺ:

«مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ بَنَى اللهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَهُ»[٤]

ومن أهم فوائد الأوقاف حماية أصحاب الثروة من الوقوع في الإسراف أو السفه، والغاية الأساسية من تأسيس الأوقاف هي اكتساب مرضاة الله تعالى، والنجاة في الآخرة.

---

٤ مسلم، المساجد، ٢٥/٥٣٣.



وعلى هذا المنوال، استمر تأسيس الأوقاف، وقد أُوجزت تلك الغاية في تعبير واحد وهو "التقرب إلى الله"، بل كانت هذه الغاية شرطًا من شروط صحة الوقف.

ولهذا يجب التعامل مع الوقف، بحساسية شديدة، ورعاية هذه الأمانة أشد رعاية، وعلى مدار التاريخ كان التعامل مع الوقف بحرص شديد، لدرجة أنه إذا حدث إخلال بتلك الأمانة، كانت العواقب وخيمة، ومصداق ذلك ناقة صالح التي كانت معجزة له، لم تكن خاصة بأحد، بل كانت أمانة من الله للناس ليستفيدوا منها عن طريق نبيه صالح عليه السلام، وكانت نوعًا من المال الموقوف، فلبنها كالسبيل، ومالكها هو الله عز وجل، إلا أن قوم صالح الغاوين خانوا الأمانة وعقروا الناقة، وكانت النتيجة أنهم هلكوا جميعًا.

ومما يحكى على ألسنة الناس هذه القصة التي دارت بين سيدنا سليمان وبين الهدهد، وهي ذات عبر وعظات كثيرة، فذات يوم غضب سليمان عليه السلام على الهدهد، فهدد الهدهدُ سليمان قائلًا: "سأمحو ملكك"، فقال له سليمان عليه السلام: "تقول إنك ستمحو ملكي وأنت بهذا الحجم!؟"، فأجابه الطائر الصغير: "نعم سأبلل جناحي بالماء، وأرفرف على وقف من الأوقاف وآخذ من ترابه، ثم آتي إلى سطح قصرك وأنفض عليه هذا التراب، ليكون تراب الوقف هذا سببا في دمار قصرك."

الوقف:
مؤسسة تجسد المحبة والشفقة والرحمة بالمخلوقات لأجل الخالق.



هذه القصة تُظهر لنا ضرورة التعامل مع مال الوقف بحرص وحساسية شديدين. وقد قال حكماؤنا الكبار:

"اتقوا المسؤولية، وفروا من الواوات!"،

والمقصود بها كل كلمة تبدأ بالواو وهي: كلمة "والله"، أي: اليمين دون داع، وكلمة "ولي" الذي لا يدرك الشعور بالمسؤولية، وكلمةً "وصي" الذى لا يستطيع تأدية ما عليه من حق، وكلمة "وقف" فإذا لم يُصرف بما يتفق مع غايته استوجب ذلك العقاب الأليم، ولكن يجب علينا ألا نفهم هذا التخويف فهما خاطئاً، فذوو الخبرة والكفاءة الذين يستطيعون الخدمة في الوقف بأمانة يجب عليهم عدم الابتعاد عن القيام بِواجباتهم في الوقف؛ لأن ابتعادهم عن الخدمة أيضًا سيؤدي إلى وبال عظيم.

إذن فالهدف من التخويف هنا، هو القيام على حقوق المستفيدين من هذه المؤسسات بدقة وعناية؛ صيانة لأموال الوقف، لأن ملكية الوقف -سواء كان منقولًا أو غير منقول- لله تعالى، وفائدته تكون للمحتاجين من هذه الأمة، إن المال الموقوف يخرج من ملكية صاحبه، ولا يورث ولا يباع ولا يعطى هبة لأحد، ولهذا نجد دائمًا على بداية الوقف عبارات تدعو بالخير وأخرى بالشر، لكي يكون مسؤول الوقف جادًّا في استخدام الوقف بما يتفق مع مقاصده؛ فالدعاء بالخير لمن لا يقصرون في خدمة الوقف، والدعاء بالشر لمن لا

حين يصرف أهل الخدمة أموال الوقف في غير محلها، فغالبًا لن يسامحهم أهل الخير، فليرتقبوا الحساب والحكم لدى المحكمة الإلهية!



ينفذون ما كتب في الوقف، أي الذين يسيئون استخدام الوقف ويضرون به، ومعظم الدعاء بالشر يكون كما يلي:

"كل من يخل بشروط هذا الوقف أو يغيرها، فإن عليه لعنة الله والملائكة والنبيين والناس أجمعين"،

وقد ذكر السلطان محمد الفاتح هذا الدعاء نفسه في نص وقفية جامع آيا صوفيا.

فالدعاء بالشر الموجود في الأوقاف إنما هو نوع من التهديد المعنوي؛ لأن المؤمنين الحقيقيين الذين يحملون همَّ الآخرة يخافون من عقاب الله تعالى، ولا يعرِّضُون أنفسهم لدعاء كهذا، ولذلك فهم يتصرفون بحرص شديد.

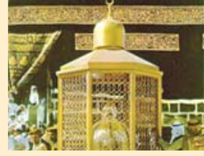
والعناية الشديدة بإدارة شؤون الوقف وصيانته، اكتسبت أهمية بالغة جدًّا حتى صارت جملة "شرط الواقف كنص الشارع" بمثابة دستور للوقف، فكما أنه لا يمكن تغيير آية كريمة في القرآن، كذلك لا يمكن أيضًا تغيير أحد شروط الوقف.

إن انتقال معظم الأوقاف -التي تأسست قبل عصور- إلينا دون تغيير في ماهيتها، إنما كان ببركة رعاية تلك القاعدة الأساسية.

وقد بدأ الوقف، أول ما بدأ في التاريخ، في الأماكن التي يتعبد فيها الناس، ثم توسع بعد ذلك ليدخل في العديد من الساحات الاجتماعية الأخرى.

"كل من يخل بشروط هذا الوقف أو يغيرها، فإن عليه لعنة الله والملائكة والنبيين والناس أجمعين".

من وقفية السلطان محمد الفاتح



وفي الخبر أن الملائكة تعجبت من كثرة مال سيدنا إبراهيم ﵇ وخدمه، وكان له خمسة آلاف قطيع من الغنم وعليها كلاب المواشي باطواق الذهب، فتمثل له ملك في صورة البشر، وهو ينظر أغنامه في البيداء، فقال الملك: سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح، فقال ابراهيم ﵇: كرر ذكر ربي ولك نصف ما ترى من أموالي، فكرر الملك فنادى ثانيا: كرر تسبيح ربي ولك جميع ما ترى من مالي، فتعجب الملائكة، فقالوا: جدير أن يتخذك الله خليلا، وهذا إن دل فيدل على مسارعة إبراهيم ﵇ لفعل الخيرات ومحبته لمساعدة المساكين.[٥]

وقد قال النبي ﷺ الذي بعث رحمة للعالمين وكان الأسوة الحسنة:

«...ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ...»[٦]

وقدم ﷺ في حياته نماذج تطبيقية للوقف، وكما هو معلوم فالنبي ﷺ أسوة حسنة لأمته في كل المجالات، وقد أوقف النبي ﷺ سبع حدائق نخيل في المدينة المنورة، وأوقف بعدها ما أفاء الله عليه من مزارع نخيل خيبر وفَدَك، وتبعه في ذلك الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، حيث أوقفوا كثيرا من أملاكهم القيمة، يقول جابر ﵁:

قال النبي ﷺ:
«...ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ...»
(الترمذي، البر، ١٦)

---

٥ انظر: إسماعيل حقي البورصوي، روح البيان، جـ ٢، ص ٢٩٣.

٦ الترمذي، البر، ١٦.



الصداقة الحقيقية: هي أن يحيا الشخصان في قلب واحد ولكن بجسدين مختلفين، كما كان حال الأنصار والمهاجرين. يقول سيدنا جابر: "لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ ذو مقدرة إلا وقف".

"لم يكن أحد من أصحاب النبي ذا مقدرة إلا وقف".[٧]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: أصاب عمر بخيبر أرضا، فأتى النبي ﷺ، فقال: أصبت أرضا لم أصب مالا قط أنفس منه، فكيف تأمرني به؟ قال:

«إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا»،

فتصدَّق عمر أنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث في الفقراء، والقربى والرقاب وفي سبيل اللَّهِ والضيف وابن السبيل، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، أو يطعم صديقا غير متمول فيه.[٨].

ومن الأشياء المهمة في الإنفاق في سبيل اللَّهِ أن يكون الإنفاق مما نحب، وأن تكون عَطِيتُنا عن طيب نفس.

عن أَنس رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت:

﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]

قام أبو طلحة إلى رسول اللَّهِ ﷺ فقال: يا رسول اللَّهِ، إنَّ اللَّهَ تبارك وتعالى يقول:

﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]

وَإِنَّ أَحبَّ أموالي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، -كانت حديقة مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب-وإنها

---

٧ ابن قدامة، المغني، جـ ٥، ص ٥٩٨.

٨ البخاري، الوصايا، ٢٢ – ٢٨/ ٢٧٧٢.



صدقة لِلَّهِ أرجو بِرَّهَا، وذخرها عند اللَّهِ، فضعها يا رسول اللَّهِ حيث شئت، فقال رسول اللَّهِ ﷺ:

«بَخْ يَا أَبَا طَلْحَةَ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، قَبِلْنَاهُ مِنْكَ، وَرَدَدْنَاهُ عَلَيْكَ، فَاجْعَلْهُ فِي الأَقْرَبِينَ»

فَتَصَدَّقَ بِهِ أَبُو طَلْحَةَ عَلَى ذَوِي رَحِمِهِ.[٩]

وتذكر بعض الروايات أن أبا طلحة بعد ذلك ذهب إلى الحديقة ليقوم بتنفيذ قراره، ولما وصل الحديقة وجد زوجته تجلس فيها، فانتظر خارج الحديقة ونادى زوجته، فقالت له: لماذا لا تدخل، فقال لها: لا أستطيع الدخول، وأنت أيضًا اجمعي أغراضك واخرجي، فقالت متعجبة: أليست الحديقة ملكًا لنا؟ فقال لها: لا، إنها أصبحت ملك فقراء المدينة، ثم أوضح لها وهو في غاية الفرح بشارة القرآن الكريم، وفضل الإنفاق الذي قام به.

فسألته زوجته وهل تصدقت بالحديقة باسمك فقط، أم باسمنا معًا؟ فقال لها: باسمنا معًا، فقالت له زوجته: رضي الله عنك يا أبا طلحة، لقد كنت أفكر في الشيء نفسه كلما رأيت الفقراء حولنا، ولكنني كنت لا أجد الجرأة على قول هذا لك، تقبل الله منّا، سأترك الحديقة أنا أيضًا وأخرج منها الآن.

لا يمكن للمجتمعات أن تحيا في سكينة وطمأنينة دون أهل الوقف. وعلو شأن المجتمعات ورفعتها باقية ما بقي أهل الوقف.

---

٩ البخاري، الوصايا، ٢٣١٨/١٧.



إن الأولاد والمال والصحة والجاه، كلها ودائع لدى الإنسان يجب الحفاظ عليها وصيانتها، ورعاية الإنسان لتلك الأمانات حق رعايتها، والتصرف فيها بما يرضي مالكها الأصلي اللهُ تعالى، من أهم الوسائل لاستجلاب البركة والرحمة الإلهي.

وليس صعبًا أن نتخيل أن هذا الجمال الذي ظهر على شكل مجموعة من الأخلاق الحميدة الكامنة في الأرواح، والتي جعلت أبا طلحة يضحي بتلك التضحية، إنما شكل المناخ الذي ساد في عصر السعادة على الأرض.

أما العثمانيون -الذين أظهروا حساسية ودراية كبيرة في اقتفاء النهج النبوي الذي سار عليه الصحابة الكرام- فقد وصلوا إلى الذروة في فضيلة تأسيس الأوقاف، التي استمرت بمقياس واضح معين في عهدهم، ولا شك أن أكبر تطور ظهر في الأوقاف -سواء من ناحية الكم أو من ناحية الكيف- إنما كان في عهد العثمانيين، وقد ظهر الوقف عند العثمانيين كمؤسسة تقوم بأداء حق المجتمع في المال أو الثروة التي يكتسبها الأفراد؛ حيث يتم تقديم هذا المال مرة أخرى لخدمة المجتمع وإفادته، وقد كانت تلك المؤسسة تقدم الإمكانيات المالية -المجلوبة عبر الطرق الشرعية- لخدمة العامة أكثر من تخصيصها للشخص نفسه أو لعائلته، ولهذا كانت الأوقاف مؤسسات يتم إنشاؤها ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

وقد قُطعت مسافات طويلة في هذا الشأن، فلم تقتصر مؤسسات الوقف على الاهتمام بالاحتياجات الخاصة بالإنسان فحسب، بل إن الشفقة والمحبة في مؤسسة الوقف شملت الدواب والنباتات أيضًا.



التمتع بالثروة يبدأ بحماية المال من صرفه في الأماكن الخاطئة. وهذه الحماية تكون بالتفكير في المحرومين والمساكين ورعايتهم. ولن يجد المجتمع السعادة والطمأنينة ما أهمل الفقراء، لذلك يقول النبي ﷺ: «خيرُ الناس أنفعهمُ للناس» (السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ص٨)

وقدمت هذه الأمة العزيزة – ونعني بها الخلافة العثمانية التي عاشت مدركة وواعية رسالة الإسلام السامية- للعالم كله نماذج باهرة مما تنطوي عليه قلوب المسلمين من رحمة وشفقة؛ فقد استطاع المسلمون أن يجعلوا المجتمع كالنسيج الواحد من خلال آلاف الأوقاف التي انتشرت في أرجاء المجتمع الإسلامي.

وقد اتخذ العثمانيون من هذا الحديث الشريف:

«**خيرُ الناسِ أنفَعُهم للناسِ**»[١٠] دستورًا لهم، فأسسوا من خلاله الأوقاف الكثيرة وما لا يحصى من الأعمال الخيرية العظيمة التي مازالت آثارها باقية.

وتعد خدمات الأوقاف -التي تأسست في الدولة العثمانية- ذات محتوى غاية في الثراء والتنوع يتناسب مع حاجات المجتمع الضرورية، ويعبر عن أهداف الوقف من حيث الزمان والمكان، مما يؤكد أن نظام الأوقاف كان يتسم بآلية ديناميكية وعملية، لا نظام إحصائي ثابت عقيم.

ومع أنه لا يمكن إحصاء أنواع الأوقاف -المؤسَّسة في الدولة العثمانية- وساحات خدماتها بشكل دقيق، إلا أننا نستطيع ذكر بعض الأمثلة المهمة حتى نتمكن من أخذ فكرة شاملة عن تلك الأنواع والخدمات، والتي منها:

---

١٠ السيوطى، الجامع الصغير، جـ .٢ ص ٨ .



- إنشاء وترميم الجوامع والمساجد والزوايا والأضرحة.
- المؤسسات العلمية كالمدارس ودور الحفظ ودور الحديث.
- خدمات المطاعم الخيرية والحمامات والنُّزُل والخانات ودور الشفا.
- المصليات والمكتبات ودور الضيافات.
- الآبار وقنوات المياه والجسور والسُّبل التي تنقل المياه.
- ملاجئ الأيتام ودور حضانات الأطفال والمطاعم.
- فك أسر العبيد والإماء.
- تأمين الحصول على الحطب الذي كان يستخدمه الفقراء وقودا.
- شراء أوانٍ جديدة بدلًا من التي يكسرها الخدم، وذلك حتى لا يغضب عليهم سادتهم.
- تأمين احتياجات الزواج للبنات اليتامى.
- أداء الديون عن المُعسرين.
- مساعدة النساء الأرامل.
- تقديم المساعدات الغذائية للأطفال في المدارس.
- التكفل بتجهيز ودفن الفقراء والغرباء.
- إدخال السرور على الفقراء والأطفال في الأعياد.
- كفالة المسنين والغرباء وابن السبيل.

لقد ظهر الوقف عند العثمانيين كمؤسسة تقوم بأداء حق المجتمع في المال أو الثروة التي يكتسبها الأفراد؛ حيث يتم تقديم هذا المال مرة أخرى لخدمة المجتمع وإفادته.



لقد كانت الأوقاف تلبي الاحتياجات اللازمة للأهالي في يومهم وغدهم، كالجوامع والمدارس والمستشفيات والمعسكرات والسبل، والكثير منها لا يزال يعمل حتى الآن، وكل واحدة منها كانت صدقة جارية، ودليلًا على عمق الإيمان في قلوب أسلافنا المباركين.

لقد أسس العثمانيون الأوقاف في كل المجالات، وأكثروا من دور البر والخيرات مما يجعلنا نظن أن حضارتهم قامت على الأوقاف، بل يمكن القول: إن اتساع الأوقاف كان نقطة فارقة في الحضارة العثمانية.

ولأن الوقف كان تعبيرا عن تدوين أجدادنا، فقد تأسست آلاف الأوقاف لخدمة مكة المكرمة والمدينة المنورة، عرفت باسم "أوقاف الحرمين"، ويمكن رؤية هذا النوع من الأوقاف في كل أرجاء الدولة العثمانية ابتداء من أوروبا الوسطى وحتى اليمن، وذلك لتحقيق الرفاهية والاطمئنان والسلام الاجتماعي في تلك الأراضي المباركة.

وقد تأسست إدارة مستقلة لكل واحدة منها، وفضلًا عن ريع تلك الأوقاف كان السلاطين العثمانيون يرسلون الهدايا والأموال للحرمين والمجاوِرين لهما أثناء إرسال كسوة الكعبة التي كانت تنسج في اسطنبول، وقد استمر هذا التقليد المسمى "موكب الصرة"[١١] حتى نهايات الدولة العثمانية.

١١ موكب الصرة: هو موكب اعتاد السلاطين العثمانيون تنظيمه كل عام في شهر رجب قبل موسم الحج بحفل خاص ، وكانوا يرسلون فيه الهدايا والأموال ليتم توزيعها على كل أهالي الحرمين من أغنى أغنيائهم وحتى أفقر شخص فيهم . (انظر: منير أطالار، الصرة ومواكب الصرة ، ص ٢) .



العثمانيون الذين حكموا جزءًا كبيرًا من مناطق العالم، ووجهوا الأحداث التاريخية حيث يريدون، عملوا على توفير الطمأنينة والرفاهية في مجتمعاتهم عن طريق الأوقاف، فجعلوا كل فرد في المجتمع فقيرًا وغنيًّا، قويًّا وضعيفًا، يعيش في مناخ من الأخوة الروحانية.

وقد أصبحت تلك الهدايا، بمرور الوقت تشكل ثروة كبيرة، وحين تمرد الشريف حسين وأعوانه على الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى بتحريض من الإنجليز، قام فخر الدين باشا الذي حمل على عاتقه مهمة الدفاع عن المدينة المنورة بوضع تلك الهدايا الكثيرة في صناديق وأرسلها إلى اسطنبول خشية سرقتها ونهبها.

وكانت تلك الهدايا تنيف عن ٣٠٠ صندوق، وهذا يعطينا فكرة عامة عن عِظَم الهدايا التي كانت تُرسَل إلى الحرم النبوي فقط.

وقد قامت خدمات كثيرة في مكة والمدينة على تلك الأوقاف التي أسسها المحبون للخير ورجال الدولة وعلى رأسهم السلاطين العثمانيون، الأمر الذي جعلهم محل شكر وتقدير من قبل جميع المسلمين.

ومما يلفت الانتباه أيضًا تلك الأوقافُ التي أُسِّسَت لحماية العجائز والمسنات، فكانت تلك الأوقاف تقدم لهن المساعدات بحيث لا تُجْرَح أحاسيسهن، وذلك عن طريق توفير الصوف النظيف المغسول لهن ليقُمن بغزله، فكنَّ بذلك يجدن مورد رزق من الوقف يعينهن على المعيشة بشكل مريح دون الاحتياج لأحد أو سؤاله.

لقد انتشر الوقف ووصل إلى قمة الرقي والشعور الإنساني في الدولة العثمانية، ولم يقتصر نفعه على البشر



فحسب كما أوضحنا فيما سبق، بل عم نفعه ليشمل أيضًا الدواب والنباتات، لقد أسس العثمانيون مراكز لعلاج الطيور الجريحة، والدواب المريضة، والطيور المهاجرة عند عجزها عن الطيران، وكان يتم الإنفاق على تلك المراكز من الأوقاف التي تأسست لهذا الهدف.

وقد أعرب الفرنسي كونت دى بونفال [Comte de Bonneval] عن دهشته لما رآه أثناء إقامته بالأراضي العثمانية بقوله:

"وتستطيع في الدولة العثمانية أن ترى رجالا من الأتراك كأنهم مجانين، لدرجة أنهم يؤسّسون الأوقاف من أجل الإنفاق على العمال، الذين يقومون بسقي الأشجار غير المثمرة كل يوم حتى لا تتعرض للجفاف من الحر".

ولأن الوقف كان ثمرة نضج روحي ورقي معنوي، فقد ازدهر في المجتمعات التي كانت تستقي أخلاقها من وعظ وإرشاد الأولياء حول الإيثار والكرم والإنفاق والإخلاص.

وكانت كل واحدة من التكايا في الحياة الاجتماعية العثمانية عبارة عن مؤسسة للتربية المعنوية المنتشرة في المجتمع، فكانت كل واحدة منها بمثابة المركز الذي تُلقَى فيه الثقافة الشفوية للأهالي، ويُكتَسَبُ فيه النضوج الأخلاقي، فالزاد الروحي كان له أثر عظيم في الوصول بالوقف والتكافل الاجتماعي إلى ذروته، وكثير من

العبادات لدى القلوب العارفة ليست تعبًا في سبيل الخير والخدمات، بل وسيلة للذة.

الأشخاص الذين تربوا فيها اكتسبوا بحق وصف رجل الوقف، فوفق شهادات تاريخية لا تحصى أسس هؤلاء الرجالُ العديدَ من الأوقاف في أماكن أخرى.

ومع أن معظم هذه المؤسسات الخيرية تعرضت للإهمال، إلا أنها لا تزال باقية كواحدة من المؤسسات الضرورية في مداواة جروح المجتمع في الوقت الحالي.

إن الجوامع والأسبلة والمعسكرات والمستشفيات، بل حتى المياه التي نشربها، والكثير من الخدمات الخيرية الأخرى، التي تفوق الحصر، إنما هي في الحقيقة أمانات وذكريات عزيزة ما زالت باقية إلى يومنا هذا.

لقد كان لدى كل فرد في الدولة العثمانية بدءًا من السلطان وحتى الأهالي شعور وإحساس بالوقف، وكان الأولياء الصالحون -الذين يرشدون المجتمع ويوجهونه دائمًا- يحثون الناس في كل وقت على فعل تلك الخيرات، ومن ذلك على سبيل المثال ما ورد في رسالة أرسلها العزيز محمود هدائي إلى السلطان مراد الثالث، أوصاه فيها بأن يجلب الحطب من غابات "بُولو"، ويوزعها على أهالي اسطنبول في الشتاء، كما أوصل جده سليمان القانوني المياه من "اِسْتَرَانْجَه لَرْ" إلى الأهالي في اسطنبول.

وهؤلاء العثمانيون الذين حكموا جزءًا كبيرًا من مناطق العالم، ووجهوا الأحداث التاريخية حيث يريدون، عملوا



"أيها السلطان، اجلب الحطب من غابات "بُولو" ، ووزِّعها على أهالي اسطنبول في الشتاء، كما أوصل جدك سليمان القانوني المياه من "اِسْتَرَانْجَه لَرْ" إلى الأهالي في اسطنبول".

عزيز محمود هُدائي



على توفير الطمأنينة والرفاهية في مجتمعاتهم عن طريق الأوقاف، فجعلوا كل فرد في المجتمع فقيرًا وغنيًّا، قويًّا وضعيفًا، يعيش في مناخ من الأخوة الروحانية، وتمكن المجتمع العثماني بفضل ثقافة الوقف الثرية هذه من بلوغ قمة العدالة الاجتماعية التي تنشدها وتتمناها الأمم في الوقت الراهن.

ولهذا السبب -من سكينة المجتمع وطمأنينته- لم يكن فن الرواية موجودًا في الأدب العثماني إلى عهد انهيار الدولة، وما أجمل تعبير المرحوم جَمِيلْ مَرِيجْ في سبب تأخير ظهور الرواية عند العثمانيين بقوله:

"لم يكن في حياة العثمانيين مآس وفواجع يمكن أن تشكل رواية ما، ولذلك لم ينشط عندهم فن الرواية".

وبالرغم من أن الرحمة كانت شعارًا في النصرانية، إلا أن الأوقاف التي كانت كل واحدة منها بمثابة مؤسسة للرحمة والشفقة، لم تكن منتشرة عندهم بقدر ما كانت منتشرة لدينا، ومعظم الموجود منها لديهم تأسس بتحريض من السفراء والدبلوماسيين الأجانب، الذين عاشوا في ظل الدولة العثمانية، ويتضح هذا جليًّا من مذكرات هؤلاء الدبلوماسيين ومذكرات السفير الفرنسي الشهير بُوسْبَرْجْ [Busberg] التي تحتوي على اعترافات من هذا النوع، والتي تعد دليلًا مثاليا واضحًا على تلك الأعمال.

إن من لا يسمع صرخة "تألموا لمصابنا" ولا يفهم معناها، فهو على درب الحيرة في هذه الحياة؛ والويل لنا إن لم نصب الرحمة وعشق المحبة فوق القلوب الفانية كلها.

ومن الخصائص المهمة التي كانت تُراعى في تطبيق الخدمات الخيرية، التي كانت تتم عن طريق الأوقاف في الدولة العثمانية، عدم التعارف بين مَنْ يساعد ومنْ يتلقى المساعدة، وبفضل ذلك شعر أصحاب البر والخير بأنهم تخلصوا من حرج الإنفاق، وكان لهم نصيب من الأدعية الغيبية المقبولة بإذن الله ﷻ، ولأن هذه المساعدات كانت توزع بواسطة المساجد والتكايا فقد كانت سببًا في تقوية الوازع الإيماني عند الناس.

ويمكننا رؤية واحدة من أجمل مظاهر هذه الرحمة في الأسطر التالية التي وردت في وقفية السلطان محمد الفاتح: "أنا العبد العاجز السلطان محمد الفاتح، فاتح اسطنبول، أوقفت وقفًا صحيحًا بالشروط التالية: عدد ١٣٦ حانوتًا معلومة الحدود، وواقعة في طَاشْلِقْ باسطنبول، كنت قد اشتريتها بمالي الخاص الذي اكتسبته من عرق جبيني؛ عيّنت شخصين على كل شارع في اسطنبول بالنماء الذي يتحصل من غير المنقول المذكور، على أن يتجول المذكوران في الشوارع في أوقات معلومة من اليوم، ويكون في يد كل واحد وعاء فيه جص ورماد يضعون منه على البصاق والنخامة الملقاة في الشوارع ليواروها في التراب، وليأخذ كل واحد منهما ٢٠ أقجه يوميًّا، كما عينت ١٠ جراحين، و١٠ أطباء، و٣ مجبرين، حيث يخرجون هم



أخبرنا رسول الله ﷺ أن امرأة بغيًا غَفر اللهُ لها ودخلت الجنة في كلب يلهث من العطش سقته؛ وأن امرأة أخرى دخلت النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض.

(انظر: مسلم، سلام، ١٥١، ٣٥١)



أيضًا إلى شوارع اسطنبول في أوقات محددة، ويطرقون كل الأبواب، ويسألون: "هل عندكم مريض أم لا؟" وإذا كان هناك مريض فليقوموا بتطبيبه، أو يتجهوا به إلى دار العجزة مباشرة.

وإذا حدث، لا قدر الله، أية أزمة في المواد الغذائية، فليتم إعطاء أهل الأرباب أي الصيادين ١٠٠ سلاح تركتها لمواجهة هذا، وليخرجوا إلى غابات البلقان، وليصطادوا الحيوانات الوحشية التي لا تخلف وراءها بَيضًا أو مولودًا، وليأكل فقراء اسطنبول وأسر الشهداء في العمارة الخيرية التي أسستها في كليتي، بشرط ألا يخرج المذكورون بأنفسهم للحصول على الطعام المذكور، بل يُجلب الطعام إليهم في أوعية مغلقة دون أن يرى أي شخص الطعام وهو ذاهب إليهم، أي يتم الذهاب إليهم بالطعام في ظلمة الليل.

لقد أسس الفاتح، وكما رأينا، قواعد أدبية كريمة للغاية من أجل أفراد المجتمع المحتاجين، لحماية وصيانة المجتمع، بل حتى رأيناه يتصدى ويتخذ التدابير اللازمة لأصغر الأمور التي قد تكون غير مريحة مثل تفل البصاق على الأرض، وبينما يأمر بإطعام المرضى لحوم دواب الصيد، إلا أنه لا يغفل الحرص على التوازن البيئي بتحريمه صيد الدواب التي لديها مولود أو بَيض، فإلى جانب رحمته وشفقته على أُمَّتِه، نجده يحافظ على بقاء الثروة الحيوانية.

تفيض المشاعر في قلوب أهل الخدمة حين يقفون بجانب المحتاجين، وتتنزل الرحمات على تلك القلوب، حينها لا يعرف أحد ما تحس به، وهذا ما يُظهر لنا أن الخدمات الحقيقية الخالصة هي نتاج خالد للنضج القلبي.



وإذا تأملنا تصرف الفاتح هذا والذي صنعه قبل نيِّف وخمسمائة عام، اتضح لنا أنه يمثل أسوة لنا وعبرة في وقتنا الراهن، الذي يحيط به فساد التوازن البيئي، والتلوث البيئي الذي ينبئ بمستقبل مظلم للأرض.

أما بخصوص أمره بتوزيع الطعام على أسر الشهداء في ظلمة الليل، وفي أوعية غير مكشوفة لصيانة كرامتهم وعزة أنفسهم، فإن ذلك يمثل نموذجًا للوفاء لا نستطيع بلوغه في الوقت الحالي، إنه تعليم لمبادئ اللطف والأدب للأجيال القادمة.

وبهذا فإنه تكفينا مطالعة الوقفيات لندرك درجة النضج الإنساني والروحي الذي بلغه المجتمع العثماني حين فهم الإسلام وطبقه جيدا، وكيف استطاع أفراده تشكيل مدنيتهم وحضارتهم بعمق إحساسهم وتفكيرهم الإنساني والروحي وبما تمتعوا به من مشاعر التساند والتراحم التي تفوق الوصف.

فلكم أن تتخيلوا مثلا أنه إذا ما كان في أحد المنازل مريض يحتاج لهدوء، كان أهله يضعون زهرة حمراء على النافذة، فيدرك الباعة والأطفال في الحي وجود مريض في هذا البيت، فلا يقومون بأي إزعاج إذا مروا من هناك، أي إنهم كانوا يتجنبون الأوضاع والتصرفات التي تقلق

من اليسير أن نصل إلى المحتاج الذي يعرض حاجته، لكن يجب علينا أن نجد ذاك المحروم الذي لا يعرض لنا حاله لعفة في نفسه.



من روائع الأمثلة على الأدب واللطافة في الماضي: أنه إذا ما كان في أحد المنازل مريض يحتاج لهدوء، كان أهله يضعون زهرة حمراء على النافذة، فيدرك الباعة والأطفال في الحي وجود مريض في هذا البيت، فلا يقومون بأي إزعاج إذا مروا من هناك.

المرضى، ولكثرة الأمثلة التي تدل على نضوج هذا المجتمع وتراحمه، ولأن ذكرها يتخطى حدود كتابنا، فسنكتفي بذكر ما أوردناه.

ومن الصعوبة بمكان حصر العدد الحقيقي للأوقاف التي تأسست في الدولة العثمانية، إلا أن الثابت في السجلات والإحصاءات أنه قد بلغ ٢٦,٣٠٠ وقفا، وهذا الرقم بالطبع يبرهن لنا على مدى انتشار فكرة الإيثار وشموليتها عند أسلافنا[١٢].

وتظهر أهمية الوظيفة التي تؤديها الأوقاف بشكل أكبر في العهود التي تضطرب فيها الدول وتتعرض لضعف في الشؤون الداخلية والخارجية، ففي "الحرب الروسية - التركية ١٨٧٧-١٨٧٨" التى أدّت إلى فقدان جزء من أراضي الدولة، فقد لعبت الأوقاف دورًا أكبر من الدولة

---

١٢ بعد أن يقوم أحد مؤسسي الأوقاف في الدولة العثمانية بتسجيل وقفيته عند القاضي والتي تحتوي على شروط الوقف، يقوم بتسجيله في الجهات المختصة بالدفتر خانه باسطنبول، وهذه الوقفيات التي تسجل في سجلات الضرب خانه موجودة حاليا في أرشيف الإدارة العامة للأوقاف في أنقرة، حيث توجد في هذا الأرشيف ٢٦.٣٠٠ وقفيه مسجلة، إلا أنه بعد إضافة الوقفيات المسجلة في سجلات المحاكم الشرعية ودفاتر التحرير يمكننا معرفة عدد الأوقاف في الدولة العثمانية بشكل تقريبي. (انظر: ضيا قازيجي، الأوقاف من الناحية الاجتماعية والإسلامية. ص ٤٣ - ٤٤).



في رعاية مئات الآلاف من القوافل المشتتة التي فرت من الروملي إلى اسطنبول، فقد أمنت لهم الأوقافُ، ولفترة طويلة، احتياجاتهم من الطعام والشراب والمسكن، ورأينا نفس تلك الخدمات تُقدَّم بعد حرب البلقان وأثناء الحرب العالمية الأولى، وبذلك استطاعت الأوقاف العثمانية الثرية أن تعمل على استمرار حياة ملايين البشر، الذين هاجروا من أوطانهم، وأحدث مثال على ذلك، زلزال مرمرة الكبير الذي وقع في ١٧ أغسطس ١٩٩٩م، فقد أدت الأوقاف خدمات كبيرة مشكورة في تلك المحنة، والذكريات الخاصة بذلك ثابتة وراسخة في أعماق ذاكرة الأمة، ولم تقتصر خدمات الأوقاف على الأزمات العامة فحسب، بل كانت تكفل دومًا العاجزين عن مواجهة احتياجاتهم، حتى في الأوقات التي كانت فيها الدولة والأمة قويتين.

حقيقة القول: لا يمكن إنكار حقيقة اضطلاع الأوقاف بدور قد يفوق دور الدولة أحيانا، ووقوفها إلى جانب العاجزين حتى في أفضل العهود التي عاشتها الدولة رفاهية واستقرارا، وأنها كانت موجودة دائمًا إلى جانبهم، ويمكننا أن نضرب مثالًا على ذلك من خلال مشاعر الرحمة التي أظهرها صقوللو محمد باشا -الذي تولى الصدارة العظمى في فترة كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها، والذي كان مؤمنًا صادقًا، ورجل دولة ناجحًا، بالرغم من كونه من

ثلاثة تألموا لمصابهم:

١. الفقير بعد الغنى.

٢. الذليل بعد الرفعة.

٣. أهل القلوب بين الجهلاء.



أصول صربية – في تأسيس وقفه، فهذا الرجل حقيقة كان رجلًا عظيمًا، أسس المساجد والمدارس والسُّبل والأعمال الخيرية الأخرى، وجعلها كلها أبدية بواسطة الوقف[١٣]، والمعلومات التالية التي أوردها أوليا جلبي عطفًا على وقفية المذكور، تُظهر إلى أي مدى كانت ذات عبرة وأثر:

إذا ما حل ضيف في وسط الليل، فلتفتحوا له الباب وتدخلوه، ولتكرموه بالطعام المتوفر، ولا تتركوا إنسانًا قط في الخارج حتى لو انهدمت الدنيا، فمن اللازم أن تؤمّنوا له الراحة الليلية، وإذا ما حل وقت الرحيل في الصباح، فليقم مسؤولو الخان بالنداء في الخان: "يا أمة محمد، هل أموالكم وأرواحكم وخيولكم وملابسكم تامة؟ هل لكم حاجة؟، فيرد المسافرون في صوت واحد: كل شيء تمام، رحم الله صاحب الخير، وبذلك يقوم مسؤولو الخان بفتح الأبواب وقت الشفق، ويقولون: "لكن انتبهوا، لا تتخذوا من لا تعرفونه صديقًا في الطريق، سيروا على بركة الله وتيسيره"، وبذلك يودعونهم بعد هذا الدعاء وتلك النصيحة.

سأل رجلٌ النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»
(البخاري، الإيمان، ٦)

١٣ إضافة إلى الخيرات التي قام بها صقوللو محمد باشا في الروملي، فقد كان له جامعان كبيران في اسطنبول، أحدهما موجود في عَزَبْ قَابِي وله سبيل رائع، والآخر هو جامع ومدرسة «الشهيد محمد باشا» الموجود عند تقاطع الطرق القادمة من السلطان أحمد إلى قوم قابي.



وهذه الأسطر المأخوذة من وقفية نقيب الأشراف[١٤] أسعد أفندي تُبرز العمق الروحي للمؤمن:

"فليتم تأمين الحطب والفحم والاحتياجات الأخرى للعاجزين الذين لا يقدرون على العمل بسبب المرض، أو الفقراء أو المسنين الذين يعيشون في القرى الصغيرة التي لا يلتفت إليها أحد، وليتم شراء تجهيزات العرس لفقراء الفتيات، أو اللائي ليس لهن من يعولهن، إذا ما وصلن إلى سن الزواج".

وقد كانت تلك المؤسسات الخيرية التي أسسها أسلافنا -الذين يحبون الإنسانية ولا يعرفون التعصب- لكل الناس دون النظر إلى الفروق في المذهب أو العِرْق، الأمر الذي لم يدهش المؤلفين الغربيين المسيحيين المحايدين فحسب، بل كان يدهش، -طوال العصور- الرحَّالة والباحثين، الذين كانوا ينظرون إلى الأتراك نظرة غير منصفة لأسباب مختلفة، وقد أعطى إسماعيل حامي دانشمند في كتابه المسمى، (الأخلاق والسجايا التركية القديمة)، نماذج كثيرة على ذلك، وسنتناول هنا قسمًا منها.

أورد الرحالة المشهور دو لويور[De Loir] في رحلته التي طبعت في باريس ما يلي: "سألخص لكم خصائص

قال الله ﷻ:
﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾
(الملك، ٢)

١٤ نقيب الأشراف، هو الموظف الذي تعينه الحكومة للنظر في شؤون الأشراف الذين ينحدرون من نسل النبي ﷺ .



عادات وتقاليد الأتراك، إن حسناتهم وخيراتهم لم تشمل البشر فحسب، بل شملت أيضًا الدواب، وتنتشر في كل أنحاء الدولة العثمانية نُزُلٌ للضيافة تسمى "العمارة" وفيها يتم تقديم المساعدات بقدر الحاجة لكل الفقراء دون النظر إلى ديانتهم، بموجب الشرط الذي يشترطه الواقف، فكل المسافرين يمكنهم البقاء في هذه الدور مدة ثلاثة أيام، وطوال الأيام الثلاثة كان يقدم لكل واحد منهم طبق من الأرز".

وناهيك عن تلك "العمارات" التي كانت تنتشر على الطرق وفي المدن، فقد كان يوجد أيضا أبنية كبيرة عامة تسمى (كَرْوَانْسَرَايْ) أي: قصر القوافل، كانت أبوابها مفتوحة لكل شخص في كل وقت.

كان بعض الأتراك المحبون للخير يقيمون أيضًا السُّبُل في المدن من أجل إرواء الناس الذين يمرون بين الطرقات، وكانوا يقيمونها في الطرق العامة من أجل إنقاذ الناس من العطش، وكان لتلك السُّبُل موظفون براتب شهري كالعاملين في الدوائر الرسمية، كانت وظيفتهم فقط إعطاء الماء لمن يريده.

وكان الأثرياء يبحثون عن الفقراء الذين لا يسألون الناس من التعفف، ويقدمون لهم المساعدات بشكل غاية في الرحمة، ويتجولون في السجون، ويقضون الدَّينَ عن المحبوسين بسبب دَينهم.

قال رسول الله: «لا يغرس المسلم غرسًا، فيأكل منه إنسان، ولا دابة، ولا طير، إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة»

(مسلم، المساقاة، ١٠)



ويذكر دي لا موترايه [De La Motraye] أيضًا:

"ولا يُسْمَع في الدولة العثمانية صراخ الأطفال أو عويل النساء الذي يُسمَع في المجتمعات الأخرى، حتى لو احترق منزل بأكمله وضاع كل ما فيه من متاع، فهؤلاء الأشخاص الذين يفقدون كل ثروتهم بهذا الشكل يُسلِّمُون أنفسهم بإيمان تام بقضاء الله ﷻ، وعلى الفور يقوم محبو الخير بتأسيس المنزل من جديد، ويساعدونهم بالقدر الذي يكفي لفرشه أو ربما يزيد عن ذلك أحيانا".

أما كورنييل لا بريون [Corneille Le Bruyn] فيورد مشاهداته على ما يلي:

"لقد كان الأتراك مولعين جدًّا بالخيرات والحسنات، ولا يمكننا أن ننكر أنهم أحدثوا خيرات أكثر من النصارى، وهذا أحد الأسباب الرئيسية التي تجعلنا نادرًا ما نصادف شحاذًا أو سائلًا في المجتمع العثماني. والأتراك الذين لا يستطيعون الإنفاق على الفقراء، كانوا يقدمون المساعدات البدنية، فكانوا يُعَبِّدُون الطرق الرئيسية، ويملؤون خزانات المياه الموزعة على مسافات منتظمة في الطرق، ويقفون في الطرقات -في حال حدوث السيول وانقطاع الطرق- ويرشدون المارة إلى الأماكن التي يمكن المرور منها، يقومون بأعمال خيرية كثيرة مشابهة لما ذُكِر، ولا ينتظرون مقابلًا قط عليها، حتى لو قدم لهم أحد مالًا على عملهم هذا كانوا يرفضونه، ويقولون: إنهم يفعلون هذا ابتغاء مرضاة الله".

يجب أن نعلم أولادنا أن الله تعالى هو المالك الحقيقي للملك، وكما أننا مكلفون بأن نعوِّد أولادنا الصلاة وهم صغار، كذلك علينا أيضًا أن نعودهم على الإنفاق والإيثار.



إننا في زمان نحتاج فيه إلى أهل القلوب، فالساقط لا يعلم سقوطه، والجاهل لا يدري جهله. ومثل هؤلاء لا يعلمون السعادة الحقيقية لذلك فإنهم يظنون بؤسهم سعادة. وكيف للعيون التي لا تعرف النور أن تدرك الشمس؟

أما موراداج دي أوهسون [Mouradgea d'Ohsson] فيلفت الانتباه بما أورده ويقول:

"يقوم الأهالي من كل الطبقات في المجتمع العثماني بتدريب أطفالهم منذ نعومة أظفارهم على أعمال الخير، وبفضل تلك الفضيلة من حب البذل والعطاء، والتي تسمو بالروح والشخصية الإنسانية، لا تتكون فيهم المشاعر السلبية كالطمع والحرص وحب الذات، وعلى النقيض نجد حب الخير ومساعدة الغير تترسخ في قلوبهم، وبذلك لا تكون أعمال الخير ثقيلة على المسلمين، ويتفوقون في تلك الساحة على الأمم الأخرى بكثير".

والمقتطفات التالية التي أخذها الرحالة الغربي هونك [Hunke] من رسالة كتبها شاب -كان يرقد مريضًا في أحد المستشفيات الإسلامية- لأبيه، تعد أجمل نموذج في رعاية الأوقاف للفقراء: "والدي العزيز، تسألني هل أحتاج للمال أم لا، فأقول لك: إن المستشفى سيعطيني ملابس جديدة، وخمس قطع ذهبية، حتى لا أضطر للعمل مباشرة بعد خروجي من المستشفى، ولهذا لا داعي لأن تبِيع شيئًا من القطيع. إنني لا أرغب في ترك هذا المكان، فالأسِرَّة ناعمة، والملاءات ناصعة البياض، والبطانيات مثل المخمل، وبكل غرفة سبيل ماء، وفي الليالي الباردة يتم تدفئة كل الغرف، والذين يقومون على رعايتنا أناس ملئت قلوبهم رحمة وشفقة، ومن يبدأ في التماثل للشفاء وتقدر معدته على

الهضم يعطونه اللحوم، أما من لا يستطيع أكل اللحوم فيعطونه الحبوب المطهية بطريقة لذيذة للغاية، لدرجة أن مَنْ يرقدُ في جواري تمارضَ ليظل عدة أيام يتذوق من هذا الطعام اللذيذ، إلا أن الطبيب اشتبه فيه، وأعاده إلى منزله بعد أن علم أنه تماثل للشفاء، وذلك بعد أن أكل هذا المريض دجاجة كاملة بقطعة خبز واحدة، ولذلك عليك أن تحضر إلي قبل حضور الدجاجة المشوية أمامي! ".

واللافت للانتباه أيضًا أن ١٤٠٠ وقف من جملة الـ ٢٦,٣٠٠ وقف المذكورة التي تأسست في العهد العثماني كانت من أوقاف النساء. ومن هؤلاء نُورْبَانُو وَالِدَه سُلْطَانْ(١٥) التي أمرت ببناء العديد من الأبنية الخيرية في ضفتي مدينة اسطنبول، أي في الروملي والأناضول، ومن



ما أسعد أولئك الذين تتسع قلوبهم للعوالم كلها إرضاء للخالق! فمهارة الإنسان الأساسية هي إيصال قلبه إلى ذلك الحد من السعة واللياقة.

---

١٥ كان اللقب الرسمي المستخدم من أجل النسوة التي تنتسب إلى الأسرة العثمانية هو "سلطان أفندي"، وهذا اللقب كان يعني أن والدها ينتسب إلى الأسرة، أي إلى السلطان أو أحد الأمراء، وإذا تزوجت سيدة من تلك الفئة برجل لا ينتسب إلى الأسرة العثمانية، فيطلق حينئذ على مولودها "بَكْ زَادَه" إذا كان ذكرا، و"خانم سلطان" إذا كانت أنثى . كما كان يطلق عليهم أيضًا "سلطان زاده" إضافة إلى والدتهم، وإذا ما تزوج "بك زاده" أو "السلطان زاده" بشخص لا ينتسب إلى الأسرة العثمانية فإن المولود حينئذ لا ينتسب إلى الأسرة، أما النسوة اللائي أصبح أولادهن سلاطين، فإنهن إن كن من خارج الأسرة العثمانية فإنهن يمنحن اللقب الرسمي وهو "والده سلطان". إن كانت "والده سلطان" من أزواج السلطان تسمى حينئذ ب"قَادِينْ أفندى" وإن كانت أكثر من واحدة توصف بصفة ثانية.



قال الله ﷻ:
﴿لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾
(البقرة، ١٧٧)

جملة تلك الآثار الخيرية الجديرة بالذكر "جامع عتيق والده"، الموجود بحي "طُوبْ طَاشْ" باُسْكُدَارْ، وعمارتها "مطعمها المجاني"، ومدرستها، ودار الشفاء، والحمام المزدوج. ومن العجيب أن هذه المرأة ذات أصول ونشأة يهودية، والدها هو يوسف ناسي، أحد كبار رجال اليهود الذين كانوا في إسبانيا، وفرُّوا منها هاربين ليحتموا بالدولة العثمانية أثناء المذبحة التي جرت فيها بعد طرد المسلمين منها، ويبدو أن السلطان القانوني استخدم يوسف ناسي في جهاز المخابرات الخاص به، إلا أن ابن يوسف ناسي كان له دور سلبي في عهد صَارِي سَلِيمْ، وأصبح صاحب ثروة كبيرة مستفيدًا من الصلاحيات والامتيازات التي منحت له، بوصفه من خاصة السلطان وبطانته، أما ابنته نُورْبَانُو سُلْطَانْ فتغلغلت في أعماق شخصيتها الأخلاق والسجايا الإسلامية، التي جعلتها تتبوأ مكانة متميزة بين نساء المسلمين، وهذا ما دل على شيء فإنه يدل على نظام سليم عند العثمانيين.

ومن هؤلاء أيضًا مَاهْبَيْكَرْ كُوسَمْ سلطان، فهي التي وضعت أساس "يَكِي جَامِعْ"، وأسست في أسكدار أيضًا "جِينِلِي جَامِعْ"، وأسست بجواره مدرسة وسبيلًا ودارًا للحديث وحمامًا مزدوجًا، كما أسست جامعًا في الأناضول، ولها وقف مشهور من أجل تزويج الفتيات والأيتام، فضلًا عن الكثير من الأوقاف الخيرية.



والمثير للانتباه هنا أنه بالرغم مما عرف عن أمهات السلاطين من قوة الشخصية، إلا أنهن كن يفضن رحمة وشفقة فـ "كُوسَمْ سلطان" مثلا وصلت إلى الذروة في الرحمة والشفقة على الضعفاء، بفضل جهودها المباركة في تأسيس الأوقاف.

وبالرغم من أن كُوسَمْ سلطان كان لها شرف وضع حجر الأساس لـ "يَكِي جَامِعْ" في اسطنبول، إلا أنها توفيت قبل إتمام بنائه، أما شرف إتمامه وافتتاحه فكان مقدَّرًا "لتَارْخَانْ وَالِدَه سلطان"، وبخلاف هذا كان لها أيضًا صنائع معروف في إقامة المدارس والعمارات والمكتبات والأسبلة وغيرها، وما يلفت الانتباه في وقفيتها لـ "يَكِي جَامِعْ"، انصباب العسل من الأسبلة في ليالي رمضان وفي ليلة الإسراء والمعراج؛ ليتم توزيعه على جموع المصلين بعد أداء صلاتهم، حتى إنها سجلت في الوقفية ضرورة كون العسل جيدًا، فكان العسل المذكور يُجلب من أَتِينَا التي تغير اسمها في الوقت الحالي فأصبح "بَزَار" بقضاء تابع لمحافظة رِيزَا، وكان من أجود العسل في ذلك الوقت، وقد اشترطتْ في الوقفية أن يكون العسل من هناك مهما بلغ ثمنه، وهذا مثال يظهر مدى حبها لفعل الخير.

وقد أوقفت هذه الوالدة سلطان من ثروتها مصادر دخل كثيرة جدًّا رغبة في استمرار أوقافها، وعيّنت ١١٦ موظفًا يتقاضون رواتبهم من الوقف لإدارة تلك الأوقاف.

إن أعمارنا منوطة بتضحياتنا وخدماتنا، وتدوم حتى بعد حياتنا الفانية.



قال الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

(البقرة، ٢٥٤)

وهذه أيضًا "بَرْتَـوْنِـيَالْ وَالِدَه سلطان" التي أمرت بتأسيس "جامع الوالدة" في "آقْسَرَايْ"، و"مسجد يا ودود"، وكان لها أيضًا مكتبة وسبيل ومدرسة، وقد أسست لها الأوقاف.

أما "مِهْرِمَاهْ سلطان" فقد أسست جامعَيْن باسم "جامع السلاطين" أَحدهما في "أدرنة قابي"، والآخَرُ بالاسم نفسه في "أسكدار"، وبالرغم من الأوقاف العظيمة التي خلفتها، إلا أنها كانت ذات شخصية متواضعة للغاية، والمثال التالي يظهر ذلك بشكل جميل:

كانت السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد قد أمرت بتأسيس قناة مائية تجلب الماء إلى مكة وعرفات، إلا أن هذه القناة المائية كانت قد تعطلت بمرور الوقت، وشاعت الأخبار في عهد القانوني بذلك، وأن مصادر المياه قليلة لا تفي بالغرض، ولما علمت "مِهْرِمَاهْ سلطان" بالأمر قالت لوالدها السلطان القانوني: إنها تريد إحياء تلك القناة المائية، وطلبت منه أن يعين لهذا المعمار سنان، وألا يفصح عن أثرها الخيري هذا لأحد، وأنفقت كل مجوهراتها وزينتها لهذا الغرض، وكان هذا هو السبب في اختفاء المعمار سنان لفترة، بعد أن وضع أُسُس مسجد «السُّلَـيْمَانِيَة» مباشرة، فقد ظن الناس أنه اختفى حتى لا يكمل الجامع، ولكن السبب كان من أجل إتمام هذا الأمر الخيري الذي أرادت "مِهْرِمَاهْ سلطان" أن يكون سرًّا.



ومن أشهر أمهات السلاطين في تأسيس الأعمال الخيرية، أيضًا "بَزْم عَالَمْ وَالِدَه سلطان"، فقد كان لها العديد من الأوقاف الخيرِية التي استمرت في التاريخ لعدة عصور، و"جامع والده" القريب من قصر "دُولْمَه بَاغْجَه" من أكبر الجوامع التي أسستها، و"جسر غَالَطَه" المشهور من أوقافها.

ولها أيضًا وقف مهم للغاية أسسته في الشام، كان شرطه توزيع مياه الشام العذبة على الحجاج، ودفع قيمة ما يكسره الخدم أو يتلفونه حتى لا يتعرضوا للأذى.

ومن أكبر الخدمات الخيرية التي أسستها "بَزْم عَالَمْ وَالِدَه سلطان"، التي امتدت يدها بالخير إلى أبعد الأَماكن، "مستشفى الغرباء" الذي أمرت بتأسيسه، وأوقفت له مبلغًا كبيرًا من ثروتها الشخصية، وقد افتتح هذا الوقف الكبير مع جامعها وسبيلها في عام ١٨٤٣م، والمستشفى المذكور منذ ذلك الوقت يوزع الأدوية على فقراء الأمة المحمدية.[١٦]

وقد اهتمت أمهات السلاطين اهتمامًا كبيرًا بموضوع تأمين المياه، فأوقفوا الأوقاف للمياه في عرفات ومكة، كما زينوا اسطنبول بالسُّبُل والمياه الموقوفة، وأسسوا القنوات والمجاري المائية التي لا تزال آثارها باقية حتى الآن، ورمموا القنوات المائية الخاصة باسطنبول، وجعلوا المدينة لا تحتاج إلى المياه في أي وقت.

إن الأوقاف التي تضمد جراح الكثيرين من أبناء المجتمع بالرأفة هي مظهر من مظاهر الرحمة والطمأنينة والسعادة التي يقدمها ذلك الإنسان الذي ربَّاه الإسلام خير تربية.

١٦ هذا المستشفى يعمل حاليا كجامعة طبية ولها فروع طبية عديدة . "المترجم"



"يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر؛ فلا أمل في المستقبل إلا بهذه الوحدة، ووقتها لم يحن بعد، لكنه سيأتي اليوم الذي يتحد فيه كل المؤمنين وينهضون نهضة واحدة"

السلطان عبد الحميد الثاني.

والسلطان عبد الحميد الثاني الذي اشتهر بخدماته الوقفية، أحد الشخصيات العظيمة في تاريخنا الحديث سياسة وتقوى، ومن أشهر الأعمال الخيرية التي قام بها تأسيسه لـ «عين الحميدية»، التي أمر بجلب مائها إلى اسطنبول، وجعلها تتوزع على أربعين سبيلا بشكل دائم، إلا أن معظم تلك القناة المائية -التي كانت من أفضل الأعمال التي تخدم في مجال توفير المياه- هُدمت بسبب أعمال الحفر والإنشاءات.

لقد أسس أسلافنا المباركون هذه الأوقاف ليستمر عطاؤها إلى يوم القيامة، وليستمر الدعاء لهم أيضًا، وقد كانت تلك الأوقاف تلبي الاحتياجات اللازمة للأهالي في يومهم وغدهم، كالجوامع والمدارس والمستشفيات والمعسكرات والسبل، والكثير منها لا يزال يعمل حتى الآن، وكل واحدة منها كانت صدقة جارية، ودليلا على عمق الإيمان في قلوب أسلافنا المباركين.

أسألك اللهم أن تمكّننا من أداء حق النعم التي أنعمت بها علينا، وأن تجعل لنا نصيبًا في أن نكون من رجال الوقف الذين يخدمون العباد ابتغاء مرضاتك. آمين!!

القسم الثاني

من ذُرى الفضيلة في حضارتنا



الإنفاق وأصوله

-من وسائل البركة والرحمة في الدارين-

الزكاة والإنفاق

أ- الزكاة:

خلق الله تعالى الإنسان وكرمه على سائر المخلوقات، وما كانت الفروق والدرجات بين الأفراد في العلم والجهل، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والقوة والضعف، إلا لتحقيق التوازن، وتأمين التكافل في المجتمع.

والثراء والفقر اللذان يشكلان طبيعة التدرج في الفروق الطبقية، يعبران عن مستويين اقتصاديين متضادين، كما أنهما وُضِعا من أجل غاية وهي الابتلاءات الإلهية في الحياة الإنسانية، ويحملان في حد ذاتهما حِكَمًا عميقة، وكما أن الثراء لا يعتبر سببًا للعزة، والفقر لا يُعتبر سببًا للمذلة، فإن هذا الأمر مرتبط بطريقة الإرادة والتصرف في الغنى والفقر، فالغنى والفقر قدر إلهي به العديد من الحِكَم، يقول الله تعالى:

قال الله ﷻ:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

(البقرة، ٢٧٣)



﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: ٣٢)

وهذا التقسيم الإلهي الواضح في الآية يدل على فروق طبيعية بين الناس، وفي مقابل هذا فإن تكليف كل فرد كان بمثابة النِّعَم التي منحت له، وبهذا تأسس التوازن الاجتماعي والعدالة الإلهية في أكمل صورة لها.

ولهذا فُرضت الزكاة على المؤمنين، تلك الزكاة التي تشتمل على العديد من الفوائد، والتي من أهمها: تحقيق الطمأنينة والسلام في الحياة الاجتماعية، وخَلْقُ جوٍّ من المحبة بين أفراد المجتمع، يتجليان في صورة منع السلبيات التي قد يظهرها الأغنياء نتيجة حبهم للمال، أو يظهرها الفقراء نتيجة حسدهم أو حقدهم على الأثرياء، ولهذا كانت الزكاة تهدف في النظام الاجتماعي الإسلامي إلى منع الصدام الاجتماعي، وتقليل الفروق الاقتصادية بين الفقير والغني إلى أدنى مستوى لها، ولهذا كان للزكاة والإنفاق أهمية كبرى.

"الأثرياء المنفقون هم أهل الشكر، والفقراء هم أصحاب الصبر والشرف، سواء في شرف الإنسانية وفي رضاء الله تعالى"

وسيُسأل الغني أمام الله عن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وسيُسأل هل أنفق زكاته وصدقاته من مال حلال أم مال حرام. ولأن الغني مكلف بإعطاء حق معلوم من ماله



للفقير، فإنه حينئذ في امتحان كبير، ولن ينال رضى الله ونعيمه المقيم في الجنة إلا بنجاحه في هذا الامتحان.

كما سيُسأل الفقير أيضًا عن مدى تحمله للفقر وعفة نفسه وتمسكه بالأخلاق، أم إنه كان عبئاً على الناس بشكواه المتكررة وعدم صبره على الفقر، وشعوره بالحسد والبغض لسخطه على الفقر، وإن كانت النتيجة تتفق مع رضاء الله، فعندئذ تتحول حالة الفقر سعادةً في الدارين.



وقد ذكرت الزكاة مع الصلاة في ٢٧ موضعًا في القرآن، وهذا بالطبع كافٍ لإظهار أهميتها، ولم ترد الصلاة منفصلة عن الزكاة في القرآن إلا في الآيتين ٢، ٤ في سورة المؤمنين -وحتى في هذين الموضعين فالآية تفيد أن مقيم الصلاة منفق للزكاة أيضا-، وذلك لأن العبادات إما بدنية -ويأتي على رأسها الصلاة-، أو مالية -ويأتي على رأسها الزكاة-، وبالرغم من أن الأعمال مستقلة في أدائها عن بعضها البعض، فإن عدم القيام بأحدهما لا يبطل الآخَر، إلا أن الزكاة مرتبطة بالصلاة لأهميتها الموضحة في ديننا، ولذا فقد قال النبي ﷺ:

«**...لا صلاة لمن لا زكاة له...**»[١٧]

ولعل هذا البيان النبوي يحث المؤمنين على الزكاة ويوضح أهميتها، وبسبب هذه الأهمية للزكاة عَدَّ خليفة

ليس الثراء الحقيقي كثرة المال، بل القناعة والإنفاق من القلب.

---

١٧ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ ٣/ ٦٢.



رسول الله أبو بكر رضي الله عنه الذين رفضوا أداء الزكاة منكرين لها، وأعلن عليهم الحرب مع أنهم كانوا يؤدون الصلاة، وذلك لأن الزكاة دَينٌ حدده الله يعطيه القادر للمحتاج، وقد قال الله تعالى:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ١٩)

وقال النبي ﷺ:

«إِذَا أَدَّيْتَ زَكَاةَ مَالِكَ فَقَدْ قَضَيْتَ مَا عَلَيْكَ»[١٨]

والزكاة بهذا الاعتبار هي إنفاق الأغنياء -الذين تزيد ثروتهم عن النصاب- جزءًا محددًا بالمقاييس الشرعية من هذه الثروة سنويًّا في المصارف الشرعية، وبهذا الإنفاق يكونون قد طهروا الجزء المتبقي لهم من ثروتهم، ويعملون بذلك أيضًا على انتقال الأموال التي يخرجونها زكاة إلى المساكين والمحتاجين، وبذلك تتحقق المساواة والعدالة والتكافل الاجتماعي في المجتمع، وتتطهر ثروة الأثرياء.

وإذا اكتُسب المال من طريق مشروع، فيجب تحليله أي جعله حلالا، ولا تتحقق هذه الحلّية بالمعنى الكامل إن لم يؤدَّ حق الفقراء في هذا المال، أما المال الذي اكتُسب من طريق غير مشروع، فإنه لن يكون حلالا حتى ولو أُخرجت زكاته كاملة، فالمال الذي يكتسب من الميسر والقمار والربا وما شابهه لا يكون حلالا بإخراج الزكاة عنه.

قال النبي ﷺ:
«ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»
(البخاري، الرقاق، ٥١)

---

١٨ الترمذي، الزكاة، ٢/ ٦١٨.



الحكمة الفردية والاجتماعية للزكاة:

إن الزكاة تجعل الأثرياء يحبون ويتعاطفون مع المحتاجين في المجتمع، والمكسب الذي تؤمنه الزكاة لمن يؤديها أكبر بكثير من الفائدة التي يجنيها من يأخذها، فالزكاة في الحقيقة تعني التزكية والتطهير والصفاء، وتشتمل على فوائد مهمة مثل تطهير الإنسان من الخطايا والأمراض القلبية، وتطهير ماله، وهذا التطهير القلبي والصفاء الروحي وتزكية النفس الكامن في معني الكلمة إنما هو حكمة من حِكَم إرسال الرسل أيضاً.

وإذا ما تأملنا جيدا المعنى الذي تحمله الزكاة والإنفاق وجدنا أن هناك حكمة أخرى لتلك العبادة، ألا وهي تخليص شخصية الإنسان وروحه من أَسْرِ المادة وعبودية المال.

كما أن الزكاة أيضا وسيلة لتقوية روابط المحبة والإخاء بين من يعطي الزكاة ومن يأخذها، فالزكاة هي الحد الأدنى للمال الذي سيعطى للمحتاج، وأصحاب الإيمان الكامل، فضلا عن ذلك، يزينون ثرواتهم بالصدقة والإنفاق والإيثار.

وطوال التاريخ نجد صراعًا بين الغني والفقير، فالفقير ينظر إلى الغني نظرة حسد وبغض، والغني يعتبر الفقير ساذجا ذليلا يريد أخذ ماله، وبالتالي ينظرون إليهم بالكبر والغرور، وباستثناء ذلك رأينا في بعض العهود انعكاس المحبة والإخاء والشفقة والرحمة على الحياة الاجتماعية

قال الله ﷻ:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

(المنافقون، ١٠)



بفضل طرق الإنفاق المختلفة -كالزكاة والصدقة- التي تُصْرَفُ بأمر من الدين الإسلامي.

فالفقراء في نظر الإسلام ليسوا أشخاصًا محتقرين، بل هم زمرة يجب احترامهم وإظهار المحبة لهم، حتى إنهم يُعَدُّون سبب الخير والبركة في المجتمع، وربنا جل وعلا يأمر النبي ﷺ بأن يكون مع فقراء الصحابة وأن يرعاهم، فيقول تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾
(الكهف: ٢٨)

والأحاديث النبوية الشريفة الآتية تظهر بوضوح أن الفقراء ليسوا عبئًا على المجتمع، بل على العكس هم مصدر البركة والفضل؛ روى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«ابْغُونِي ضُعَفَاءَكُمْ، فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ»[١٩]

وقال النبي ﷺ أيضًا:

«إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا، بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ»[٢٠]

قال النبي ﷺ:
«إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»
(النسائي، الجهاد، ٣٤)

---

١٩ الترمذي، جـ٤، ص ٢٠٦/ ١٧٠٢؛ البخاري، الجهاد، ٧٦.

٢٠ النسائي، الجهاد، ٣٤، جـ٦، ص٤٥/ ٣١٧٨.



ويروى عن أمية بن خالد ﵁، أن النبي ﷺ "كان يطلب النصر للمسلمين بحرمة فقراء المهاجرين"[٢١]

وعلى هذا لو دُفعت الزكاة كاملة في وقتنا الحالي لقلَّ عدد الفقراء والمحتاجين في المجتمع حتى لتكاد تنعدم هذه الطبقة.

فقد أخبر الولاة في عهد عمر بن عبد العزيز بأنهم لم يستطيعوا أن يعثروا على شخص يأخذ الزكاة، وطلبوا من الخليفة أن يرشدهم إلى كيفية صرف هذا المال، وذلك لأن كل الأغنياء وأصحاب الإمكانات كانوا يدفعون زكاتهم كاملة، ولا شك أن هذا الوضع في المجتمع كان مظهرًا من مظاهر البركة التي ظهرت نتيجة الجود بالمال والروح كما ينبغي ابتغاء مرضاة الله تعالى.

وهذا الخليفة عمر بن عبد العزيز ﵁ أيضا يأمر المنادين أن ينادوا في الطرقات:

"أين أصحاب الديون والمحتاجون والأيتام والفقراء الذين يريدون الزواج؟، أين المظلومون؟، يا أصحاب الحقوق، يا أيها المحتاجون هلموا خذوا حقوقكم".

وهذه الواقعة المثيرة للانتباه تبين –بما لايدع مجالا للشك– تلك المرتبة التي وصل إليها المجتمع في عهده.

إن ربنا ﷻ لا يكلفنا نحن عباده بمسؤوليات تفوق طاقتنا، وهذا يعني أننا مسؤولون بقدر طاقتنا، وسنحاسب إن كنا قادرين على أعمال خير ولم نقدمها.

٢١ الطبراني، المعجم الكبير، جـ ١، ص ٢٩٢.



عمر بن عبد العزيز ﵁:
١. استشعر حجم الظلم والجور الذي ملأ الأرض.
٢. وجه ولاته إلى العدل والإحسان.
٣. استشعر حجم المسؤولية المناطة به ونهض على قدرها.
٤. إصراره على متابعة الإصلاحات حتى اللحظات الأخيرة من حياته.

ويجب علينا هنا ألا ننسى المؤثرات النفسية التي كانت تكمن وراء هذا التوفيق والنجاح الذي ظهر في عهد عمر بن عبد العزيز، الذي عاش العالم الإسلامي في عهده أزهى العصور الإسلامية بعد الخلفاء الأربعة.

وفي الحقيقة إن هذه العبارات التي ظهرت على لسان سيدنا عمر بن عبد العزيز تشير إلى غنى فؤاده، وتُظهر أسباب الانكشاف الكبير الذي كان في عهده.

تقول زوجته فاطمة –رحمها الله–:

دخلت يومًا على عمر بن عبد العزيز وهو جالس في مصلاه، ودموعه تسيل على خديه، فقلت: مالك؟ فقال:

"ويحك يا فاطمة، قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب والأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي ﷻ سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ، فخشيت ألا يثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت."[٢٢]

---

٢٢ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٩، ص ٢٠١.



إن هذه الكلمات التي نقلتها فاطمة زوج عمر بن عبد العزيز لتدل على يقظة ضمير مرهف الإحساس ينبغي أن تكون موجودة في قلب كل مؤمن.

ولذلك علينا أن نعلم أن الطريق الذي يُمَكِّن للمؤمن أن يكون من خلاله صاحب رحمة وشفقة ورقة وضمير حيّ، ينبع من الإنفاق بالمال أو الروح؛ ولهذا فإن الرسول ﷺ قال لأحد الصحابة الذي اشتكى من قسوةٍ في قلبه:

«إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ، فَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ»[٢٣]

يقول مولاناجلال الدين الرومي - قدس سره - وهو يعبر عن هذا المكسب المعنوي، الذي يتم تأمينه من خلال العلاقة بالفقراء والضعفاء:

"إن القلوب الغارقة في الفقر والعوز تشبه البيوت الممتلئة بالدخان، فاستمع لآلامهم وكن علاجًا لهذا الألم، وبذلك تكون قد فتحت نافذة في هذا البيت ليخرج الدخان منها، وستكون في الوقت نفسه قد راقبت قلبك وارتقيت بروحك".

وفي الوقت الذي رأينا فيه الإسلام يؤلف في تناغم جميل بين الفقير والغني، رأينا الأنظمة الأخرى غير

قال النبي ﷺ:
«إن أردتَ أن يلينَ قلبُك، فأطعم المسكين، وامسح رَأْسَ اليتيم»
(أحمد، مسند، ٧٥٧٦)

٢٣ مسند أحمد، جـ ٢، ص ٢٦٣/ ٧٥٧٦.



الإسلامية لا تستطيع النجاح في هذا بالمعنى الحقيقي كما حققه الإسلام، فقد وقعت الأنظمة الأخرى في الإفراط أو التفريط، فبعض تلك الأنظمة حرّم طلب المال كُلِّيَّةً، وبعضها أعطى الحرية للسؤال ولطلب ما يرغب من المال، أما الإسلام فقد اقترب من علاج هذه القضية بأسلوب حكيم للغاية، وهي الإنفاق والزكاة، وبذلك قدّم أنسب الحلول.

حقيقة القول: إن الزكاة من أسمى القِيَم التي منحها الإسلام للإنسانية، وبفضل الزكاة تم القضاء نسبيًّا على آلام الفقراء والضعفاء والأيتام والأرامل في المجتمع، والإسلام أيضًا هو الذي حرر الإنسان من ربقة العبودية، التي كانت إحدى المآسي التاريخية، إن من أبسط الحلول التي قدمها الإسلام أمرُه لمن ملكت يده عبدا تأمين حاجات العبد في مستوى سيده، وأمرهم بأشياء تثقل كاهلهم حتى أصبح العبد كلفة على السيد أكثر من أن يكوة منفعة، ورغم ذلك فقد رغَّب الذي لا يريد إعتاق عبده في أن يحرره بشتى الوسائل، وقد ذكر الإسلام بصفة أولية أن عتق الرقبة كفارة للذنوب.

لقد مد الإسلام يده للغَارِمين دون أن ينتظر منهم مقابلا، وعالج بذلك جروحهم النازفة، وعلى النقيض حرَّم الرِّبَا الذي يبدو في الظاهر وكأنه مساعدة للغارمين وتيسير لهم، ولكنه في الحقيقة لم يكن سوى استغلال

"لا تَسْعَ خَلْفَ الرزق، بل اسْعَ خَلْفَ الرزاق"



لعجز المحتاجين وعَوَزِهم؛ لأن المرابي يريد دوما أن يكون الآخرون في عسر وضيق؛ ليجني الفائدة من وضعهم هذا، وجواز إعطاء الزكاة للإنسان المدين إنما تعد واحدة من التدابير التي تعوق الوقوع في فخ الرِّبا.

وعلى هذا فدافع الزكاة يكون شريكا للمُعسرين من المسلمين في مصائبهم، وغايته الوحيدة هي رضاء الله عنه، وأن يكون بلسمًا لآلام العباد.

والشخص الحريص الطامع دائمًا يرى ماله وأملاكه قليلة في عينه، حتى وإن كان بالغ الثراء، أما من اعتادوا دفع الزكاة، فإنهم يتمتعون بغنى النفس، ويكتفون بالقليل من متاع الحياة، أما آكل الربا فيملؤه الطمع والحرص، ودائمًا يريد زيادة ماله على حساب فقر الآخرين وفاقتهم، ويمكن رؤية أمثلة كثيرة تدعو للعبرة من هذا القبيل في العديد من مراكز التجارة العالمية، يقول الله تعالى:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ...﴾ (البقرة: ٢٧٦)

أي إن الله تعالى سينزع البركة من أموال المشتغلين بالربا، وعدم وجود البركة هنا يعني إفلاس هذا العبد في الآخرة، وفي بعض الأحيان قد يكون هذا الإفلاس في الدنيا أيضًا، فالكثير من الثروات التي اكتُسِبَتْ دون حقّ، ولو كانت مثل الجبال تضيع هباءً منثورا بسبب مصيبة، أو مرض، أو وقوعها في يد وارث مسرف.

أهل القلوب الناضجة يسعون لفَلاح الآخرين كي يكون لهم الفلاح الأبدي بفضل الخدمة والرحمة.



ومن أسرار الإنفاق والزكاة أيضًا، منع تضخيم الثروة الفردية، واستثمار الضعفاء في سبيل ذلك، أو منع نمو مشاعر الحقد والحسد تجاه الأغنياء، وإن كان الغِنَى وسيلة للكِبْر أو المدح، فإن عاقبته تكون أليمة وحزينة على الغني، فكل أفراد المجتمع -سواء الذين يقدمون المساعدة أو الذين يتلقونها- محتاجون لبعضهم ماديًّا ومعنويًّا، وهذا التنظيم الإلهي مليء بالعِبَرِ والحِكَم.

ويجب علينا أن ندرك أن المُلْك لله وحده، أما كون الإنسان صاحب ملك في الدنيا فهذا يشبه في حد ذاته نظام دورة التملك في الوقت الراهن، أي إن كل إنسان في هذه الدنيا يكون صاحب ثروة، ثم تنتقل ثروته بعد فترة إلى غيره، وهذا أمر لا مفر منه.

فالله تعالى يقول في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥)

ويقول تعالى أيضًا:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٨٩)

لم ينس العارفون أبدًا مقولة: "للحلال الحساب، وللحرام العذاب".

والمُلك بالصورة الموضحة في الآيات، ليس ملك الأفراد أو المجتمعات، ولكن الملك في الحقيقة لله تعالى، وذلك لأن الناس يعيشون في ملك الله، ويُرزقون بالرزق



الذي منحهم إياه، أما ما يُعطى لهم فإنما هو عبارة عن حق التصرف في هذا الملك لفترة محددة فقط.

يقول الشاعر:

كل الخلق عابر سبيل في ضيافة هذا العالم

وليس ثمة رجل مقيم؛

فالسيد والعبد سيان!

وليس لهما آخر إلا الكفن

أفليس المغرور بها هو المجنون؟

فالمال والملك والمنصب من أكبر ميادين الابتلاء للإنسان، وملك سليمان الذي كان يتحاكي به الناس على مدار العصور، أتاه في لحظة، ثم قُبض منه، ولكنه أعيد إليه مرة أخرى بالاستغفار، وهذا واحد من أولياء الله اعتبر من هذه الحادثة ومن مثيلاتها من الحوادث يقول:

"لا تَسْعَ خَلْفَ الرزق، بل اسْعَ خَلْفَ الرزاق".

يقول أحد العارفين مبينًّا معنى هذا العالم المليء بالحِكم: "الدنيا عند العقلاء تفكر وتأمل في قدرة الله، وعند الحمقى شهوة طعام".

العاقبة المؤلمة لمن يهملون دفع الزكاة:

أوضحنا سابقًا أن الثروة أمانة أعطاها الله لعبده، وإن استخدمت هذه الثروة بشكل يخالف الأوامر الإلهية فإنها تعمل على طغيان العبد سريعا، وتسُوقُه إلى الوقوع في المظالم والكبر والغرور، ويستقر حب المال في قلوب المبتلِين بهذه الآفة، وقد ذكر الله تعالى في القرآن أن



يقول الرسول ﷺ: «إن السخاء شجرة من أشجار الجنة، أغصانها مُتَدَلِّيَات في الدنيا، فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة، والبخل شجرة من أشجار النار، أغصانها مُتَدَلِّيَات في الدنيا، فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى النار» (البيهقي، شعب الإيمان، جـ٧، ٥٣٤)

المال والولد -من بين نعم الدنيا- فتنة، والسبب في ذلك أنهما يدخلان القلب وربما يتوجه العبد إليهما بدرجة أنه يعبدهما، وقد حذر الله تعالى المفتونين بالمال بقوله:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤ - ٣٥)

ويقول الرسول ﷺ:

«مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهُمَّ، أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللهُمَّ، أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»[٢٤]

ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر:

«السَّخَاءُ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ أَغْصَانُهَا مُتَدَلِيَاتٌ فِي الدُّنْيَا، مَنْ أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْهَا قَادَهُ ذَلِكَ الْغُصْنُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْبُخْلُ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ النَّارِ، أَغْصَانُهَا مُتَدَلِيَاتٌ فِي الدُّنْيَا، مَنْ أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْهَا قَادَهُ ذَلِكَ الْغُصْنُ إِلَى النَّارِ»[٢٥]

---

٢٤ مسلم، الزكاة، ٥٧/ ١٠١٠.

٢٥ البيهقي، شعب الإيمان، جـ ٧، ص ٤٣٥/ ١٠٣٧٥.



وكما نرى النبي ﷺ يبشر الذين يؤدون العبادات المالية كالصدقة والزكاة، نجده على الجانب الآخر يحذر الغافلين عنها بسبب البخل، ويخوفهم من سوء عاقبة بخلهم هذا!.

ويستفاد من الآيات والأحاديث الشريفة السابقة أن من اغتصب حق المحتاجين بسبب حب المال واستقراره في القلب، كانت عاقبته وخيمة، وعقابه أليمًا، لذا علينا أن نفكر جيدًا في الأمر الإلهي، وأن نجتهد في الإنفاق أكثر مما هو واجب شرعًا. إنَّ الله تعالى يوجهنا إلى الجانب الصحيح في هذا الموضوع بقوله تعالى:

﴿...**وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**...﴾ (البقرة: ٢١٩)



"على كل مؤمن أن يحذر من إهمال العبادات المالية، وعليه أن يوقن أنه يعيش في ملك الله، وأن الله تعالى هو الذي يرزقه من نعمه، ويجب أن يعرف بأنه لن ينجو ما دام في زمرة الغافلين الذين لا يعرفون مال من يمنعون وممن يمنعون"

لقد كان الصحابة الكرام، رضوان الله تعالى عليهم، في حالة استعداد دائم للإنفاق، فقد أنفق سيدنا عمر رضي الله عنه نصف ثروته من أجل غزوة تبوك، أما سيدنا أبو بكر رضي الله عنه فقد أنفق ثروته كلها، وقد سأله النبي ﷺ قائلاً: «**ما أبقيتَ لأهلك؟**» قال: "أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه ".[٢٦]

وهذه الحادثة التالية التي وقعت بين أحد الفقهاء والشيخ الشبلي –بهدف امتحانه– تحمل عظات وعبرًا عظيمة عن المقدار اللازم على المسلم إنفاقه من ماله،

---

٢٦ أبو داود، الزكاة، ٤٠



فأجاب الشبلي: هل تريد إجابة عن سؤالك طبقًا لأقوال الفقهاء أم طبقا لأحوال أهل الله؟ فقال الفقيه: الاثنين معًا، فأجاب الشبلي: لقد أوضح الفقهاء أن الزكاة الشرعية المفروضة على المال الذي مضى عليه حول كامل، واحد في الأربعين، أي على كل مائتي درهم خمسة دراهم، أما أهل الله فيقولون بأنه يجب دفع المائتي درهم جميعا، ثم يجب عليك الشكر أن أنقذك الله من تبعة هذا المال.

فقال الفقيه: لقد علمنا من فقهائنا هذا المذهب -أي دفع نسبة الواحد في الأربعين- فمن أين تعملتم مذهبكم؟، فرد عليه الشبلي قائلا: ونحن تعلمنا ذاك المذهب من أبي بكر ﵁، فقد وضع ﵁ كل ثروته أمام رسول الله ﷺ.

وقد كان النبي ﷺ -الذي علَّم الصحابة حب الإنفاق في سبيل الله- أحسن قدوة في روح الإنفاق هذه، فذات يوم ذبح أهل بيت رسول الله ﷺ شاة، وتصدقوا بها، فسأل رسول الله ﷺ أهل بيته عما فعلوا بالشاة، فقالت عائشة ﵂: تصدقنا بها وما بقي منها إلا كتفها، فقال الرسول ﷺ:

«بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»[٢٧]

وهكذا كان رسول الله ﷺ لاترتاح نفسه إذا كان في بيته شيء من ذهب أو فضة، حتى ينفقها على الفور، ورغم أنه لم يكن ينتظر من كل المسلمين أن يفعلوا مثل فعله، إلا أنه كان

قال الله ﷻ:
﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾
(التكاثر، ٨)

---

٢٧ الترمذي، صفات القيامة، ٣٣/ ٢٤٧٠.



يوجه صحابته الكرام للإنفاق حسب طاقاتهم، ففي الوقت نفسه الذي وافق فيه النبي ﷺ أبا بكر على إنفاقه كل ثروته في سبيل الله، نجده يوجه صحابيًّا آخر إلى ادخار جزءٍ من ماله، فقال له ﷺ:

«أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»(٢٨)

خلاصة القول، إن الإسلام مع أنه فرض مقدارًا معينًا من ثروة الشخص ليكون زكاة، إلا أنه ترك مسألة الصدقات والإنفاق خارج حدود الزكاة، لأصحاب الهمم العالية تبعًا لإمكاناتهم المادية، ودرجة الإيمان الراسخ في قلوبهم، فأبو ذرٍّ رضي الله عنه كان يرى وجود إنفاق الزائد عن حاجاته، ويكره ترك هذا الزائد لليوم التالي.

أما عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فكان يضع نصب عينيه احتياجاته المستقبلية، ولا يجد ضررًا في ادخار جزءٍ من مكسبه نظرا لسد هذه الحاجات، فمن ناحيةٍ كان يجتهد في الكسب، ومن ناحيةٍ أخرى كان يجتهد للعمل على راحة المسلمين، فكان يمشي جائعًا ولكنه يطعم الآخرين، وذلك لأنه وبقية الصحابة رضي الله عنهم قد استقر في قلوبهم ذلك الشعور بأن الثروة التي معهم إنما هي أمانة مودعة لديهم.

والحاصل أن كل أصحاب الثروة الذين يطلبون النجاة الأبدية عليهم أن يشعروا بأنهم حاملوا أمانة، وأنهم يومًا ما

يقول الرسول ﷺ:

«ما أخشى عليكم، أيها الناس، إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا»

(انظر: مسلم، الزكاة، ١٢١؛ البخاري، الرقاق، ٧)

---

٢٨ البخارى، المغازى، ٧٩/ ٢٧٥٧.



سيقفون أمام الله المالك الحقيقي، وسيُسْألون، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨)

ولهذه الحقيقة لم ينس العارفون أبدًا هذه المقولة:

"للحلال الحساب، وللحرام العذاب!".

ولهذا فإن الأثرياء الذين انكبوا على هذه الدنيا، وانساقوا خلف رغباتهم التي لا تنتهي، ولم تطاوعهم نفوسهم على الإنفاق، كانوا كالذين يحملون الحطب على الرماد من أجل إشعال النيران.



ولا شك أن الإسلام قد حث على العمل والكسب من طريق حلال، إلا أنه أوجب الإنفاق من هذا الكسب الحلال في سبيل الله، ونهى عن جعل هذا الكسب آلهة تعبد في القلب، وإلا فإن هذا الكسب سيكون ثقلا يحمله في الدنيا، وسببًا للعذاب الأليم في الآخرة.

والغاية الصحيحة من الكسب والثروة إنما هي التمكن من الوصول إلى السر الوارد في الحديث الشريف:

«خيرُ النّاسِ أنفعُهم للنّاسِ»[٢٩]

فمكان المال ليس في القلب، بل مكانه في اليد، وهذه

---

٢٩ السيوطي، الجامع الصغير، جـ ٢، ص ٨

قال النبي ﷺ:

«خيرُ النّاسِ أنفعُهم للنّاسِ»

(السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ص٨)

الأبيات التي نظمها أحد العارفين توضح بشكل جميل مدى غفلة الإنسان:

الدنيا دنيَّة ودار ممر

القصر والبيت الخراب فيها سواء

أصابتني بحب مفرط لا دواء له

حتى ظننتها دار بقاء

ويجب أن نعلم أن دعاء الفقراء والمساكين مصدر سعادة للأثرياء، ومساندة معنوية لهم، ويجب أن نعلم أيضًا أن الفقر والحاجة ليسا ذلة ومسكنة، بل ربما يكونان مظهرا من مظاهر اللطف والحكمة التي تضيء جانب الآخرة.

والأثرياء المنفقون هم أهل الشكر، والفقراء هم أصحاب الصبر والشرف، سواء في شرف الإنسانية وفي رضاء الله تعالى، والإسلام ذم الأثرياء المتصفين بالخسة والكبر، وذم أيضًا الفقراء ذوي الغرور، وقد كان النبي ﷺ يدعو ويقول:

«اللهُمَّ فَإِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ... »[٣٠]

فمن وجدت فيه الخصال الحميدة كالقناعة والتسليم والتوكل، فهو غني حقا.



كان النبي ﷺ يدعو ويقول: «اللهم فإني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار، وفتنة القبر وعذاب القبر، ومن شر فتنة الغنى، ومن شر فتنة الفقر،... » (مسلم، الذكر، ٤٩/ ٥٨٩)

٣٠ مسلم ، الذِّكر ، ٤٩/ ٥٨٩.



ولِذا فإن على كل عبد يريد أن يتخلق بالأخلاق الإلهية، أن يجعل للمضطرين والمحتاجين نصيبًا من النِّعَم التي ينعم بها، والغاية في ذلك أن يكون الشخص مؤمنًا يسلم الناس من لسانه ويده، ويستفيدون منه، فينال بذلك رضاء الله تعالى.

والزكاة هي تعبير عن الشكر الفعلي للمال والثروة، والله ﷻ أخبر في كتابه بأن الشكر يزيد النعمة، يقول الله تعالى:

﴿...لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ (إبراهيم: ٧)

وكان النبي ﷺ يحب الإنفاق كثيرًا، ويوصي به مَن حوله، وقد جاء في الحديث القدسي أنَّ اللّه ﷻ قال:

«أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»[٣١]

والذين يهملون مسألة الإنفاق والزكاة ينسون التقدير الإلهي بسبب اسوداد قلوبهم، والحال أن عليهم أن يعترفوا بخطاياهم فيستغفروا منها ويقروا بما كسبت إيديهم، فلا ريب أن من يحقر الفقراء يقع في الهلاك كما وقع فيه قارون الطاغي الشقي.

إن قارون كان في أول الأمر فقيرًا صالحًا، ولكنه أصبح ثريًّا نتيجة لعلم المعادن الذي علَّمَه إياه سيدُنا موسى

يقول الرسول ﷺ:
"أَنْفِقْ أُنْفِقْ
عليك"
(البخاري، التوحيد، ٥٣)

---

٣١ البخاري، التوحيد، ٣٥/ ٤٦٨٤.

عليه السلام، ولأنه لم يستطع أن يحمي قلبه من الميل والحرص الدنيوي كما ينبغي، خسر كل خصاله الجميلة، واغتر وتكبر بهذه الثروة التي نالها، ووصفه القرآن بالبغي، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوْسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦)

إلا أن قارون لم يستمع إلى نصح قومه ولا إلى نصح موسى عليه السلام له، ولما طلب منه موسى عليه السلام زكاة ماله رد عليه قارون بقوله:

"هل تطمع في مالي، إنه مالي، وأنا الذي كسبته!".

بالرغم من أن قارون كان مدينًا لموسى عليه السلام بهذا الغِنَى.

وقد أورد القرآن الكريم الحادثة كاملة، يقول الله تعالى:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ.



"ماذا يكون للإنسان من هذا المال؟ أيكون عبدًا للذهب والمال في الدنيا؟ فلو أنه تفكر قليلًا لما أسر نفسه للمال في الدنيا، ثم إذا صار جثة تركه ومضى إلى السموات صفر اليد! عجبًا للمال إن لم يُنفق في سبيل الحق فما فائدته؟"



فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ. فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ. وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (القصص: ٧٧ – ٨٢)

إن هذا القصة تعرض لنا مشهدا مخيفا يتكرر كثيرا، يُظهر لنا سوء عاقبة من يركنون إلى الدنيا، وينسيهم حب المال آخرتهم، ولذلك حُرِم قارون في الآخرة من النِّعَم والنَّعِيم؛ لأن الآخرة دار المتقين الذين يخلصون العبودية طوال حياتهم، وقد ورد في الآية الكريمة:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣)



وكان مولانا جلال الدين الرومي يندهش من هؤلاء الذين يحرصون على مالهم في الدنيا، ويأتون يوم القيامة مفلسين، ويقول عنهم: "ماذا يكون للإنسان من هذا المال؟

"مكان المال ليس في القلب، بل مكانه في اليد"



أيكون عبدًا للذهب والمال في الدنيا؟، فلو أنه تفكر قليلا لما أسر نفسه للمال في الدنيا، ثم إذا صار جثة تركه ومضى إلى السموات صفر اليد!، عجبا للمال إن لم يُنفق في سبيل الحق فما فائدته؟"

وهذه قصة أخرى –فهي وإن كانت ضعيفة السند إلا أنها تحمل من العظات الكثير والكثير– لشخص يدعى ثعلبة غرق في غياهب الدنيا، وأصبح أسيرًا للمال والملك مثل قارون:

فيروى أنه جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال: **«وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ، قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ»**

ثم جاءه بعد مدة وكرر عليه القول، فقال له:

«وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ، أَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاللهِ لَوْ سَأَلْتُ أَنْ تَسِيلَ لِيَ الْجِبَالَ ذَهَبًا وَفِضَّةً لَسَالَتْ»

ثم جاءه بعد مدة وكرر عليه القول، وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فقال له رسول الله ﷺ: **«اللهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالًا»**

فاتخذ غنمًا فنمت كما ينمو الدود، فكان يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر ويصلي عند غنمه باقي

البركة تطفو عند صاحب المال الكثير فالبركة تزداد بازدياد الشكر والله تعالى يأمر في الآخرة أن امشوا خلف عبدي الشاكر.

السَّيري



الصلوات، ثم أصبح لا يشهد مع رسول الله ﷺ سوى الجمعة، ثم كثرت غنمه وزادت فتقاعد حتى لا يشهد الجمعة ولا الجماعة.

فقال رسول الله ﷺ ذات يوم: «**مَا فَعَلَ ثَعْلَبَةُ؟**»

فقيل له: اتخذ غنمًا لا يسعها وادٍ، فقال:

«**يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ، يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ، يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ**»

فلما وجبت الزكاة أرسل الرسول رجلان ليجمعا الصدقة وقال لهم:

«**مُرا بِثَعْلَبَةَ، وَبِفُلَانٍ -رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ- فَخُذَا صَدَقَاتِهِمَا**»

فمرا على ثعلبه بن حاطب وأمراه بدفع الزكاة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، وطلب منهما العودة إليه عند الفراغ من جمعه، فذهبا إلى السُلمي فأخرج أطيب ما عنده، فرجعا إلى حاطب فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، اذهبا حتى أرى رأيي، فأقبل الرجلين على رسول الله ﷺ، فقال قبل أن يسألهم: «**يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ**»، ودعا للسُلمي بخير، فأنزل الله قوله:

﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ**﴾

[التوبة: ٧٥] إلى قوله: ﴿**وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ [التوبة: ٧٧]

فذهب رجل من أقارب ثعلبة يخبره بأن الله أنزل فيه

يقول الرسول ﷺ:
«قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»
(الطبري، جامع البيان، جـ١٤، ٣٧٠، ٣٧٢)



قرآن، فخرج ثعلبة حتى أتى رسول الله ﷺ، فسأله أن يقبل صدقته فقال:

«إِنَّ اللَّهَ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ صَدَقَتَكَ»

فجعل يحثي التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ:

«هَذَا عَمَلُكَ، قَدْ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي».

فلما قُبض رسول الله ﷺ، وجاء أبو بكر رضي الله عنه حين استخلف، فجاء ثعلبة بصدقته فلم يأخذها أبو بكر، وكذلك حين استخلف عمر رضي الله عنه لم يأخذها منه، وكذلك عثمان رضي الله عنه حين استخلف، ومات ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه.[٣٢].

لقد قضى ثعلبة على السعادة الأبدية مقابل الحياة الدنيا القصيرة التي ظن أن فيها السعادة.

والإنسان كما رأينا مفطور على حب الدنيا ونعيمها، فمال الدنيا يجذب النفس، والذين ينساقون خلفه لا يشبعون منه، وقد عبر النبي ﷺ عن هذه الحقيقة في قوله:

«لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»[٣٣]

يقول الرسول ﷺ:

«لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب...»

(البخاري، الرقاق، ١٠)

---

٣٢ أنظر: تفسير ابن جرير الطبري، جـ١٤، ص٣٧٠، رقم ١٦٩٨٧؛ الطبراني، المعجم الكبير، جـ ٨، ٢٦٠، ٧٨٧٣؛ الواحدي، أسباب النزول، ص٢٥٢.

٣٣ البخاري، الرقاق، ١٠/ ٦٤٣٩.



فكلما جمع الإنسان المال زاد حرصُه عليه، وكلما زاد الحرص على المال، قلَّت الرحمة والشفقة، وبذلك يكون الإنفاق صعبًا، حيث تحدثه نفسه قائلة: "فلتكن أغنى، ثم لتنفق بعد ذلك".

وإنسانٌ هذه حاله إنسانٌ مريضُ الروح مضطربُ البدن، ويكون أيضًا من سيِّئِي الحظِّ الذين يدخلون في مضمون الكلمة القائلة: "لقد هلك المسوفون!".

والحكاية السابقة التي رويناها عن ثعلبة إنما هي مثال يعبر عن سوء عاقبة من ينكث بعهده، إلى جانب الخسران الذي يكون عاقبة من أحب الدنيا وتكالب عليها.

وعلينا حين نطلب من الله ﷻ شيئا أن نسأله إياه إن كان فيه خير لنا بدل أن نلح في طلبه غافلين عما يحتف به من شرور، لأننا لاندرك أن هذا الشيء فيه خير لنا أم شر؟ وإن لم نفعل ذلك فستنصب علينا البلايا الخفية -التي لا نستطيع أن نراها- في اللطف الرباني الذي نبالغ في طلبه.

إن الدعاء حقيقة دينية تدفع البلاء مثل الصدقة، إلا أن عقولنا القاصرة العاجزة لا تستطيع أن تدرك كيفية تحقيق ذلك، إن الدعاء إذْن نصرة ونعمة إلهية، بل هو أمر إلهي لنا، وإذا ملأ هذا المعنى عقولنا وأحاسيسنا فيجب علينا ألا نعاند بأن هذا الأمر خير مطلق، بل يجب علينا أن نرجو من الله أن يكون فيه خير لنا قائلين: "يا رب، إن كان فيه خير لي فامنحني إياه، وإلا فاصرفه عني".

"يا رب، إن كان في هذا الأمر خير لي فامنحني إياه، وإلا فاصرفه عني".



وعلى هذا فإننا مضطرون لاستخدام المال بما يتفق مع الأوامر الإلهية ليكون مفيدًا، وهذا ضروري للفرد والمجتمع من أجل سلامة الدنيا والآخرة.



وفي الحقيقة إن الغنى لم يكن مذموما لذاته في الإسلام، بل على النقيض نجد الإسلام يمدح الثراء، ولكن مع رعاية بعض الأسس المعينة، فقد قال الرسول ﷺ:

«...**نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**»[٣٤]

وبهذا يحث النبي ﷺ على الثراء، فضلا عن أن الإسلام ذم الأشخاص الذين يسألون الناس مع أنهم أقوياء، ويقدرون على العمل والكسب من عرق جبينهم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: «**أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟**»، قال: بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال: «**ائْتِنِي بِهِمَا**»، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: «**مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟**» قال رجل: أنا، آخذهما بدرهم، قال: «**مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا**»، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصاري، وقال: «**اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ**»

يقول الرسول ﷺ:

«نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»

(أحمد، مسند، جـ٤، ٢٠٢)

٣٤ أحمد بن حنبل، المسند، جـ٣، ٢٠٢/ ١٧٧٦٣.



فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده،ثم قال له:

«اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ، وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا»

فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما، فقال رسول الله ﷺ:

«هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ»[٣٥]

وبالرغم من أن الإسلام لم يُحَرِّم سؤال أصحاب الحاجة، إلا أنه لم يصّوب ذلك من الناحية الأخلاقية، فَعَن عبد الرحمن بن زياد، أنه سمع زياد بن نعيم الحضرمي، أنه سمع زياد بن الحارث الصدائي، قال: أتيت رسول الله ﷺ فبايعته، فذكر حديثا طويلا، قال: فأتاه رجل، فقال: أعطني من الصدقة، فقال له رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ، حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ، فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ حَقَّكَ»[٣٦]

٣٥ أبي داود، الزكاة، ٢٦/ ١٦٤١.

٣٦ أبي داود، الزكاة، ٢٣/ ١٦٣٠.

يقول الرسول ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من شر فتنة الغِنَى، وشر فتنة الفقر» (مسلم، الذكر، ٤٩)



وثمّة حساسية ودقة بالغة في وضع الزكاة في مكانها، فالزكاة ينبغي أن لا تخرج إلا في مصارفها الموضحة في قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٠)

أما الإنفاق الذي يتم خارج هذه المصارف الموضحة في الآية والذي يسمى «خيرات»، فإنه يتحقق بالهبات الخارجة عن الزكاة، ولم يعط الرسول ﷺ أحدًا من الزكاة وهو لا يستحقها، ولكنه كان في الإنفاق يتصرف بشكل مختلف، وقد ورد في الآية القرآنية الكريمة:

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (الضحى: ١٠)

وبذلك كان يتصرف في الإنفاق والصدقات بشكل يختلف عن تصرفه في الزكاة.

وقد قال النبي ﷺ:

«...يَا عَائِشَةُ لاَ تَرُدِّي الْمِسْكِينَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ...»[٣٧]

ومن منطلق هذا الحديث كان المحترم السيد موسى طُوبَّاشْ –قدس سره– يعطي الصدقات لكل السائلين حتى

قال النبي ﷺ:
«...يَا عَائِشَةُ لاَ تَرُدِّي الْمِسْكِينَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ...»
(الترمذي، الزهد، ٧٣)

٣٧ الترمذي، الزهد، ٣٧/ ٢٣٥٢ .



الذين اتخذوا من التسول مهنة لهم، وكان يقول:

"علينا أن نعطي ولو القليل، حتى لا نتعود على عدم الإنفاق".

ويجب علينا هنا أن نعلم تلك الحقيقة وهي أن الإسلام سمح للمحتاجين -الذين هم في حالة ضرورة قصوى- بطلب الصدقة؛ لأن مد اليد للآخرين إنما يعد أكثر الأعمال التي تصغر الإنسان وتذلّه، ولهذا فإن الرسول ﷺ حين بايع بعض أصحابه اشترط عليهم عدم سؤال الناس شيئًا.[٣٨]

ولهذا يجب التفرقة بين من يطلبون وهم لا يشعرون بالعار أو الخزي، وبين من يطلبون وهم يشعرون بالألم، ولهذا قال النبي ﷺ:

«لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ المِسْكِينُ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ، فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»[٣٩]

لقد أراد الرسول ﷺ أن يبين لنا بهذا الحديث الشريف أن كل من يطلب شيئًا من أحد -كائنا من كان- سيحصل

كن كما أنت،
ولا تردنَّ محتاجًا
عملك قليل،
فلا تساوم به
الشيطانا.
السَّيري

---

٣٨ انظر: مسلم، الزكاة، ١٠٨.

٣٩ البخاري، الزكاة، ١٤٧٩.



على ما يطلبه ولو بأقل القليل، أما الأشخاص الذين يجب عدم إهمالهم فهم الأشخاص الذين لا يسألون الناس لعفتهم ويحاولون إخفاء حالهم وفقرهم، وأهمية الإنفاق على هؤلاء الأشخاص المذكورين أوضحها القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٧٣)

زكاة المحاصيل الأرضية:

العُـشر

إن العُشْر-وهو أحد العبادات المالية التي كادت أن تصبح نسيا منسيا في وقتنا الحالي- هو زكاة المحاصيل الأرضية، والذين لا يؤدون العُشْر مثلهم مثل الذين لا يؤدون الزكاة عمومًا، فهم مذنبون ومقصرون أمام الله تعالى؛ ذلك أنهم اغتصبوا حقوق الفقراء والمحتاجين والمجاهدين في سبيل الله ﷻ.

وتذكر الروايات أن أحد اليمنيين الأسخياء كانت له حديقة بالقرب من صنعاء، بها النخيل والأعناب وكافة

قال الله ﷻ:
﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾
(البقرة، ٢٦٨)



الزروع، وفي وقت الحصاد كان هذا الرجل الكريم يُخرج من ماله زكاة العُشْر وزيادة للفقراء والمحتاجين والمساكين، ولما توفي هذا الرجل، وورثه أولاده، بدؤوا يبخلون، وقالوا لأنفسهم: إن أسرتنا كبيرة والمال قليل، وتعاهدوا فيما بينهم على أنهم سيجمعون الحصاد قبل أن يسألهم أحد، ولن يعطوا أحدًا منه شيئًا، فأحرق الله حدائقهم وجعلها رمادًا، لأن الله تعالى كان يعلم نيتهم السيئة فأصبحت الحدائق الكبيرة الغناء لا تكاد تُعرف، ولما رأى الأبناء البخلاء الحدائق وقد احترقت تحيروا ولم يعرفوها، فقالوا: يا ترى، هل نحن مخطئون، هل جئنا إلى أرض أخرى؟

لقد كان أبوهم الكريم السخي يُخرج العُشْر بسخاء وينال الدعوات من المحتاجين، وبذلك كان الله تعالى يبارك في الحديقة بهذه الدعوات، لقد كان كل الفقراء والمساكين يستفيدون من الحديقة، ولكن العُشْر الذي كان والدهم يوزعه على الفقراء، كان -في نظرهم- كبيرًا، فرغبوا عن إخراجه، ولم ينتبهوا إلى مصدر تلك البركة التي منحها الله تعالى لحديقتهم؛ لأن الغفلة أعمت قلوبهم، لذلك يقول الله تعالى:﴿...**وَلَا تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ**﴾ (الأعراف: ٢٠٥)

لقد ذكر الله تعالى قصة هؤلاء في القرآن الكريم، وهي معروفة بقصة أصحاب الجنة، فقال سبحانه وتعالى في سورة القلم:

قال النبي ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو، إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (مسلم، البر، ٦٩)



﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلَا يَسْتَثْنُونَ. فَطَافَ عَلَيهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ. فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ. أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ. فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ. أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَومَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ. وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ. فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (القلم: ١٧ – ٢٧)

لقد عبرت الآيات أجمل تعبير موضحة العبرة والعظة، عن قصة أصحاب الحديقة الطاغين الذين نسوا الله ﷻ، وتحايلوا حتى لا يعطوا الفقير حقه، غير منتبهين إلى أن تلك النعم التي يعيشون فيها إنما هي من لطف الله، وتناسى هؤلاء أن الله تعالى مطَّلع على نوايا القلوب، فعظمته سبحانه فاقت ووسعت كل شيء.

ويقول مولانا جلال الدين الرومي –قدس سره–:

"إن الحياة الدنيا عبارة عن رؤيا، وصاحب الثروة –في الدنيا– كمن عثر على كنز في منامه، فمال الدنيا يبقى في الدنيا منتقلا من جيل إلى آخر، وحين يأتي ملك الموت فيوقظ هذا النائم بقبض روحه، يتأوه هذا المسكين ويتحسر على كل الآلام التي عانى منها في الدنيا من أجل المال الذي لم يكن هو صاحبَه، ويندم كثيرًا، ولكن لات ساعة مندم".

"إن الحياة الدنيا عبارة عن رؤيا، وصاحب الثروة –في الدنيا– كمن عثر على كنز في منامه، فمال الدنيا يبقى في الدنيا منتقلاً من جيل إلى آخر"

جلال الدين الرومي



وما أجمل ما قال سيدنا علي رضي الله عنه:

"الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا !!."

ويخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز بأن الإنسان الذي يفيق لحظة الموت -وكأنه يستيقظ من السبات- يقول بندامة أبدية:

﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون: ١٠)

لكن الأمر قد انتهى وانقضى وفات ما فات، فلن يقبل الله منهم، ولهذا فإن الله تعالى أمر في بداية الآية الكريمة السابقة بالتصدق والإنفاق من الرزق الذي منحه الله لنا، قبل أن نصل إلى هذه الحسرة الأليمة.

والخلاصة أنه على كل مؤمن أن يحذر من إهمال العبادات المالية، وعليه أن يوقن أنه يعيش في ملك الله، وأن الله تعالى هو الذي يرزقه من نعمه، ويجب أن يعرف بأنه لن ينجو ما دام في زمرة الغافلين الذين لا يعرفون مال من يمنعون وممن يمنعون؟

فيا رب أعنا على أداء الحق المعلوم من ثرواتنا للمحتاج والفقير الذي لا يستطيع السؤال لعفته، راجين طالعتك ونيل رضاك. -آمين-

"حين يأتي ملك الموت فيوقظ هذا النائم بقبض روحه، يتأوه هذا المسكين ويتحسر على كل الآلام التي عانى منها في الدنيا من أجل المال الذي لم يكن هو صاحبَه، ويندم كثيرًا، ولكن لات ساعة مندم"

جلال الدين الرومي



ب- الإنفاق

١. كيفيته وماهيته

إن الكلمات الدالة على الإنفاق والكلمات المشابهة لها كالتي تدل على بذل المال والروح في سبيل الله ﷻ وردت في أكثر من ٢٠٠ موضع في القرآن الكريم، وهذا الرقم بالتأكيد كافٍ لإدراك أهمية ومكانة الإنفاق.

قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه -في بيعة العقبة الثانية- لرسول الله ﷺ:

"اشترِطْ لربك ولنفسك ما شئت! فقال:

«أشترِطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم».

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

قال: «الجنة».

قالوا: "رَبِح البيعُ، لا نُقِيل ولا نستقيل"

فنزلت هذه الآية الكريمة:

﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ (التوبة: ١١١)[٤٠]

"علامة الحب التضحية، فالذي يحب يضحي بمقدار حبه لمن يحب، ويجد متعة في ذلك، بل إن العاشق قد يفني روحه في سبيل معشوقه، والإنفاق على مخلوقات الله يعد من أجمل مظاهر التحابب"

---

٤٠ تفسير ابن كثير، ٢/ ٤٠٦



وأبلغ مثال حي على بيع الروح لله هو الشهادة والجهاد في سبيل الله ﷻ، وكم لنا في حال أول شهيدة في الإسلام، وهي السيدة سمية، مِن عظة وعبرة!! فقد أنفقت رضي الله عنها روحها في سبيل الله، وبسخاء كبير، واشترت بذلك الجنة، وأسست لها عرشًا في قلوب كل المؤمنين إلى يوم القيامة، وهي في انتظار أجرها الجزيل، ولهذا يجب علينا نحن أيضًا أن نوجه إنفاقنا بأموالنا وأرواحنا لاكتساب رضاء الله تعالى.

وهذه حرب "جناك قلعه" فبالرغم من أن عدة الجنود انتهت، حيث إن البارود للبنادق والمدفعيات كان قد نفد في الجيش العثماني، إلا أن النصر كان ميسَّرًا لهم؛ لأنهم عاشوا حالة من البذل بالمال والروح معًا، والأمثلة المشابهة لذلك في التاريخ كثيرة جدًّا.

فبيع المال لله تعالى تعبير مجازي في الأساس، يعبر عن بذله في سبيل الله، ولما عد الله صفات المؤمنين ذكر من بينها:

﴿...**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ (البقرة: ٣)



وأنواع الإنفاق والصدقات التي تُبذل في سبيل الله كثيرة، ويبدأ الإنفاق والصدقة من الجود بالموجود، وعلى هذا فإن التصدق بشق التمرة يُعد من الإنفاق ويتقي العبد به نار جهنم، وقد اعتبر الرسول ﷺ كل مؤمن غنيًّا، وذلك

قال الله ﷻ:
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾
(الحجرات، ١٥)



لأنه اعتبر في أحاديثه كل خير يفعله المؤمن بمثابة الصدقة، كالأمر بالمعروف، وإماطة الأذى عن الطريق، وعيادة المريض، وإدخال السرور على قلب المؤمن، أي كل هذه الأعمال وأشباهها داخلة في حكم الإنفاق، ولكنها أعمال خيرية لا ترتبط بالقوى المالية، وهذا يعني أنه ثمة وجوه كثيرة للإنفاق يمكن أن يقوم بها حتى أفقر الفقراء.

فالخير في الحقيقة لا يتم بالمال فقط، بل إن الخيرات يمكن أن تتم بكل الأعمال التي تساعد في طمأنينة المجتمع، وتسانده وتقوي فيه أواصر الأخوة، وهذه أعمال يمكن لكل شخص أن يقوم بها، ويمكن اعتبار الابتسامة في وجه الأخ، ومساندة الناس، وإرشاد الضال إلى الطريق، من تلك الأعمال التي لا حصر لها.

ولأن الإنفاق الذي يتم من أجل مساعدة أفراد المجتمع من الفقراء والمحتاجين، يعمل على تأمين استمرار النظام والتناغم الاجتماعي، فإنه يعد بذلك وسيلة للبركة في الدنيا والآخرة، والمثال التالي يعكس هذه الحقيقة بأوضح ما يكون:

فهذا الإمام علي الذي كان يطعم الطعام على حب الله ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ**﴾، ولا يترك لأولاده قليلاً ولا كثيراً، و ذات يوم كان علي ﷺ جالسا يوما في سوق المدنية ومعه ابنه الحسن، فمر سائل فرقَّ له علي ﷺ وقال للحسن: اذهب إلى أمك فقل لها تركتُ عندك ستة دراهم، فهات منها

قال النبي ﷺ:

«يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك، يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟»

(مسلم، الزهد، ٣-٤)



درهما، فذهب الحسن إلى أمه ثم رجع إلى أبيه، وقال: أمي تقول لك: إنما تركتَ ستة دراهم للدقيق..

فقال علي ﷺ: لا يصْدقُ إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده. قل لها: ابعثي بالدراهم الستة جميعا، فبعَثَتْ بها إليه فدفعها علي ﷺ للسائل، وبعد لحظات مر به رجل معه جمل يبيعه، فقال علي: بكم الجمل؟

قال الرجل : بمائة وأربعين درهما.

فقال علي ﷺ للرجل إنه يشتري الجمل ولكنه سيدفع ثمنه بعد حين، فوافق صاحب البعير وتركة لعلي ﷺ ومضى، ثم أقبل رجل آخر فقال لمن هذا البعير؟ قال علي ﷺ: لي، قال الرجل أتبيعه؟ قال: بكم؟ قال بمائتي درهم، فأخذ الرجل البعير وأعطى علياً ﷺ المائتين، فأعطى علي ﷺ صاحب الجمل حين عاد حقه، وهو مائة وأربعون درهما، وجاء بستين درهما إلى فاطمة ﷺ، فقالت ما هذا؟ قال: هذا ما وعدنا الله على لِسَانِ نَبِيهِ:

﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠).

فقد أنفقنا ستة دراهم فردها الله لنا ستين.

وإضافة إلى ذلك فإن الإنفاق والصدقات تفتح أبواب الخير والرحمة على العباد، وتغلق أبواب الشر بموجب قوله تعالى:

﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠)

قال النبي ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة» (الترمذي، البر، ٣٦)

وهذه الحادثة -التي وقعت في اسطنبول إبان انتشار الفوضى والإرهاب وعمليات السطو- لتعدّ من أجلى مظاهر هذه الحقيقة:

ذهب خمسة أو ستة من اللصوص وقطاع الطرق إلى محل تجاري، وطلبوا من صاحبه أن يعطيهم كل ما في الخزانة، ولكن الرجل المسكين تمسك بكل مفاتيح الخزانة، ولاحظه الرجل الذي كان ينتظر عند الباب ليراقب الذاهب والمار، فترك مكانه فجأة وأسرع بحماية صاحب الدكان المسن، وصاح على زملائه وهو يشهر السلاح في وجوههم: سنخرج من هنا ولن نأخذ قرشًا واحدًا، تحير أصدقاؤه من هذا التغيير المفاجئ، وقالوا له: خيرًا، لقد سرقنا حوانيت كثيرة من قبل، ولم تقل شيئًا، ماذا حل بك؟ وقالوا له: هيا فلننهِ هذا العمل بسرعة ونمضِ.

ولكنه قال لهم: لا والله، لن نأخذ ولو إبرة واحدة من هنا، اهدؤوا ولا تصروا على فعلكم، ولْتعلموا أنكم لن تأخذوا من هذا المحل شيئا إلا على جسدي، هل تعلمون مَنْ هذا الرجل المسكين المسن؟ إنه الرجل الوحيد الذي لا مثيل له، هو الذي أشفق على زوجتي وأولادي وأنفق عليهم وعلى دراستهم، ومد يده إليهم في الوقت نفسه الذي أهملتُ فيه عائلتي وكنتُ أعيش بين المواخير والبارات، فأحنى الجميع رؤوسهم وغادروا المكان بعد أن اعتذروا إلى الرجل.



قال النبي ﷺ:

«ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثًا فاحفظوه، ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»

(الترمذي، الزهد، ١٧)



إن هذا مثال حي ذو عبرة وعظة على الفائدة الدنيوية للإنفاق في سبيل الله، وهو يُظهر بوضوح حديث رسول الله ﷺ:

«بَاكِرُوا بِالصَّدَقَةِ؛ فَإِنَّ الْبَلاَءَ لاَ يَتَخَطَّى الصَّدَقَةَ»(٤١).



ولا شك أن أجمل وأحسن الأمثلة التي تدل على العطف على الفقراء ومنحهم السكينة والاستقرار، تلك التي كانت على عهد سيدنا النبي ﷺ، فقد رغب حضرة النبي ﷺ في تعميم الكرم والسخاء وجعله طبيعة إنسانية حينما قال:

«اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى...» (٤٢)

كما حث سيدنا النبي ﷺ على الإنفاق حين قال:

«لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»(٤٣)، أي ينفقها على الآخرين.

كما قال أيضا: **«اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ المَسَاكِينِ يَوْمَ القِيَامَةِ»**(٤٤).

مهما اشتد الظلام، فعود من الكبريت يكفي لبعثرته!..

جلال الدين الرومي

---

٤١ البيهقي، السنن الكبرى، ٤-١٨٩/ ٧٨٣١.

٤٢ البخاري، الزكاة، ١٨/ ١٤٢٧/ ١٤٢٩.

٤٣ البخاري، العلم ، ١٥/ ١٤٠٩.

٤٤ الترمذي، الزهد، ٣٧/ ٢٣٥٢.



حتى إن سيدنا الرسول ﷺ جعل ركنا من أركان مسجده بمثابة مأوى الرحمة والشفقة الذي يأوي إليه المساكين والفقراء، وكما اهتم بالفقراء اهتم أيضًا بالمساكين الذين كان يطلق عليهم أهل الصُّفَّة، وكان يسعى لراحتهم ومسح آلامهم، وكان يواسيهم أجمل مواساة بنمط معيشته عليه الصلاة والسلام.

كما قال:

«يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ»(٤٥)

كما قال أيضًا:

«**الأَكْثَرُونَ** [أي أموالا دون إنفاقها في سبيل الله]، **هُمُ الأَقَلُّونَ** [أي ثوابا] **إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا** [أي تصدق بماله يمينا وشمالا]» (٤٦) .

علمنا سيدنا رسول الله ﷺ بتلك الأحاديث الشريفة أن الثراء ليس المقياس الحقيقي للعزة والشرف، بل إن التقوى والفضيلة هما مقياس العزة والشرف، ولذا قال:

«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»(٤٧)

قال النبي ﷺ:
«اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة»
(البخاري، الأدب، ٣٤)

---

٤٥ الترمذي، الزهد، ٣٧/ ٢٣٥٤.

٤٦ البخاري، الرقاق، ١٣/ ٦٢٦٨.

٤٧ البخاري، الأدب، ٣٤/ ٦٠٢٣.



وعلى هذا فإن سيدنا الرسول ﷺ قد أثلج صدور المؤمنين حين أخبرنا أن الإنفاق ممكن في كل الأحوال، فالمرء الذي لا يجد ما ينفقه أو يتصدق به، يستطيع أن يتصدق بالقول الحسن أو التصرف الحسن الذي ينفع الناس، وهذا النوع من الصدقة أفضل من الصدقة التي يتبعها المن والأذى؛ لذلك قال الله تعالى:

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٣)

وفي الأحاديث السابقة لم يروِّج الرسول الأكرم ﷺ للفقر أو الغنى، بل إنه على النقيض من ذلك أشار إلى الجوانب الجميلة لكل منهما، وضرورة التصرف طبقا لهما، وأهمية أن يرضى كل امرئ عن الحال التي يعيشها.

والمهم أن يحيا الإنسان بما يتفق مع رضى الله دون النظر إلى كينونته من الفقر أو الغنى.

وقد أوضح لنا ﷺ أن قلوب كل المؤمنين غنية، حتى إنه قال للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الذي كان لا يمتلك شيئًا من الدنيا:

«يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»[٤٨]

قال النبي ﷺ:
«كل معروف صدقة»
(البخاري، الأدب، ٣٣)

---

٤٨ مسلم، البر، ١٤٢/ ٢٦٢٥.



لم يكن عند أبي ذر رضي الله عنه ما يضيفه إلى حسائه، ولكن من كان عنده ثراء في قلبه، فإن فقر المال لن يضره شيئا، وإن كان الشخص ثريًّا في قلبه، ثريًّا من ناحية المال، فإن هذا يزيد من ثراء قلبه. ومن كان فقيرًا في قلبه، فإن ثراء ماله لن يفيده بشيء، بل يزيده فقرًا في قلبه، أما فقراء القلب والمال -أعاذنا الله- فإن حظهم سيئ في الدارين.

وقد أوضح لنا سيدنا النبي ﷺ أن الغنى الحقيقي ليس عن كثرة العَرَض، بل إن الغنى غنى النفس،[٤٩] فعليه كلُ شخص غنيٌّ على حسب قناعته، والقناعةُ كما ورد في الحديث الشريف كنز لا يفنى.[٥٠] فالمؤمن الحق هو الثري المنفق، والإنفاق ظاهرة كاملة وتامة لشرف المؤمن، وحب الآخرين المكلف به.

وهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان يتناوب هو وخادمه على ركوب الناقة عندما كان ذاهبًا إلى القدس، ولما اقتربا من القدس كان دَور الخادم قد حل في الركوب، ولما كره الخادم ذلك، أصر عمر على أن يركب الخادم، ودخل عمر ماشيًا والخادم راكبًا، وهذا أيضًا مظهر من مظاهر الإنفاق والإيثار الذي يعز الوصول إليه.

"ليس الغنى بكثرة ما تملك إنما الغنى بكثرة ما تستغني عنه"

---

٤٩ انظر: أحمد بن حنبل، المسند، ٢/ ٣٨٩/ ٧٣١٦.

٥٠ البيهقي، الزهد، ٢/ ٨٨.



والإيثار -وهو أن يؤثر الشخص أخاه بالأمر أو الشيء على نفسه، ويعطيه إياه مع شدة احتياجه إليه- بات قليلا جدًّا في مجتمعاتنا اليوم، لدرجة أننا افتقدناه، إلا أن الزكاة مختلفة عن هذا، ويجب أن يُحث على إعطائها بنسبة أكبر من النسبة المعتادة، بل يجب أن تنظم شؤونها في مؤسسة، ويجب العمل على تنشئة أناس بتلك المؤسسات يجتهدون ويخدمون فيها بروح إسلامية، ومن أهم الواجبات في مجتمعنا أيضًا في الوقت الحالي تأسيس المستشفيات التي يمكن أن يستفيد منها أفراد الأمة الإسلامية، وكذلك تأسيس دور المسنين.

والرغبة في الإنفاق يجب أن تكون طبيعة أصيلة في المؤمن، يقول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)

ويروى أن جعفر الصادق كان خادمه ذات يوم يصب على يده الماء، فسقط منه الإبريق، وتناثر الماء على سيده، فنظر جعفر الصادق مُغضَبا، فقال له خادمه: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ}. فقال: كظمتُ غيظي، قال: {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}، قال: عفوتُ عنك، قال الخادم: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، فقال له جعفر الصادق: اذهب فأنت حُر لوجه الله ﷻ.

قال الله ﷻ:
﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾
(آل عمران: ١٣٤)

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن امرأة عاهرة غَفر اللهُ لها ودخلت الجنة في كلب يلهث من العطش سقته؛ وأن امرأة أخرى دخلت النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض، وهذه الأمثلة تحمل الكثير من العظات والعبر، وبها تستقيم قلوب المسلمين؛ لأن المؤمن يجب أن يكون رحيمًا وكريمًا ورقيقًا وحساسًا يسعى في نفع الآخرين كنور القمر الذي يضيء في ليلة مظلمة.



إن الكرم المقبول عند الله هو المبذول من أحسن المال وأفضله، فالإنفاق -إذا تنزه عن المَنَّ والكِبْر- يأخذ بالعبد إلى رضاء الله، ولما كان أصحاب الصُّفة الذين عاشوا في عهد الرسول ﷺ لا يجدون الوقت لتأمين معيشتهم؛ لأنهم كانوا قد أوقفوا حياتهم على عبادة الله ﷻ، وخدمة الإسلام فقط، فقد كان المسلمون يجلبون التمر لهم، وأحيانا كان بعض الناس يجلب لهم تمرا فاسدا، ولأن أصحاب الصفة كانوا جوعى فقد كانوا مضطرين إلى الأكل منه، ولهذا أنزل الله تعالى الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (البقرة: ٢٦٧)



قال الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

(البقرة: ٢٦٧)



وفي آية أخرى أوضح لنا ربنا جل وعلا ضرورة إنفاقنا مما نحب حتى ننال القربى منه، يقول تعالى:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٩٢)

والبر المذكور في الآية هو نقطة الكمال في الخير، وقد فُسِّر بأنه رحمة الله ورضاه وجنته، وقد أوضح الله تعالى البر في آية أخرى، حيث قال تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧)

وكما نرى فإن البر في الآية الكريمة قد جمع أوصافًا كثيرة ينبغي اجتماعها في الإنسان.

إننا في وقتنا الحالي -الذي افتقدنا فيه بمرور الوقت الطمأنينة والسكينة بسبب ضعف مشاعر الأخوة والتكافل- في حاجة حقيقية إلى حملة إنفاق جادة في مجتمعنا الذي كثرت فيه الخصومة والبغضاء، وهذه الحملة مهمة جدًّا

قال الله عز وجل:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

(آل عمران: ٩٢)



"لا تظنن أنك ستسمو بجمعك المال، فالماء الراكد تفوح منه رائحة كريهة، اسعَ للتصدق؛ الماء الجاري تمده السماء، إذ تمطر وترسل السيول، فلا ينفد".

الشيخ سعدي

لأنفسنا ولأولادنا؛ إذ يجب أن نعلِّم أولادنا أن الله تعالى هو المالك الحقيقي للملك، وكما أننا مكلفون بأن نعوّد أولادنا الصلاة وهم صغار، كذلك علينا أيضًا أن نعودهم على الإنفاق والإيثار، فإننا إن لم نتمكن من تعويدهم على ذلك وهم صغار فسنخسرهم.

وعلى كل من يريد أن يكون مؤمنًا صالحًا أن يساعد المحتاجين والمساكين بما أمكنه حتى وإن كان قليلًا، وعليه أن يدعو لهم، فإزالة الألم عن المحتاجين والمساكين إنفاق، ويمكننا أن ندرك من مناجاة موسى عليه السلام أن إحياء القلوب المنكسرة إنما هي وسيلة للتقرب إلى الله تعالى، حيث يروى أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى ذات يوم: "يا رب، أين أجدك؟" فقال الله عز وجل: «عند المنكسرة قلوبهم»[٥١]

ومن أكبر الخدمات في وقتنا الحالي الإنفاق على إحياء المؤسسات التي تربي الذين يقومون بالإرشاد، فتتولى هذه المؤسسة أمر الإنفاق عليهم وتربيتهم وإعدادهم لإرشاد الأجيال القادمة وتوجيههم وتعليمهم.

قال أحد المفكرين:

"إن أهم فرق بين الأمة الغالبة والأمة المغلوبة، ثلة من الناس تربوا جيدًا. إن العالم بأسره في حاجة مُلِحَّة وماسة إلى ثلة من الناس ممن يوصفون بـ"الإنسان الكامل"

٥١ أبو نعيم، الحلية، جـ ٢، ص ٣٦٤.



"لم يغلق الله تعالى باب الخير أمام أحد، واعلم أن الخير على حسب قدرة كل واحد منا، ولا يمكن أن يكون قنطار من الذهب من خزينة غني، كقيراط من جهد فقير؛ فقدمُ الجرادة حمل ثقيل على النملة".

الشيخ سعدي

وأهم سبب في تراجع العالم الإسلامي اليوم وتخلفه هو تعرض المسلمين لظلم لا يقدرون على رده، ولتغيير هذا الواقع السيئ علينا ألا ننسى أننا نحتاج إلى جهود وجدانية ودينية أكثر من العهود التي كان المسلمون فيها أقوى مما نحن عليه الآن، وأن نتخذ الآية الكريمة ﴿**إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾ (الشرح: ٦) دستورًا لنا، وأن نعزم على إيجاد وسيلة النجاة، إنها مسؤولية مهمة للغاية، حتى مشروعية الأعمال المندوبة لكل وقت، تصبح في خطر، ومن ذلك على سبيل المثال الأم التي ترضع ابنها، إذا شب حريق في المنزل واستمرت في إرضاع ابنها فإنها حينئذ مسؤولة، نعم تكون مسؤولة عن إطفاء هذا الحريق أكثر من مسؤوليتها عن إرضاع ابنها، الذي هو في الأساس مشروع، وهذه مسألة مهمة في الإسلام تسمى "المصلحة"، ولهذا علينا أن ندقق في مصلحتنا في وقتنا الحالي، ويجب علينا أن نكون أصحاب جهود بالشكل الذي تقتضيه تلك المصلحة، وإذا ما فعلنا ذلك بالشكل اللائق سيتمكن العالم الإسلامي كله من النجاة من تلك الأزمة.

وكما ذكرنا سابقًا فإن الأوقاف كانت العلامة الفاصلة في الحضارة الإسلامية، وكانت أمثلة فعلية ومنتظمة على الإيفاء باحتياجات المجتمع حينئذ في أجمل صورة وهيئة.



وأكثر ما يبعد القلب عن الله هو المال والأولاد، ولهذا قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن: ١٥)

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ (المنافقون: ٩)

ولا شك أن الأوقاف هي أكثر الأماكن التي يمكن أن يتم الإنفاق فيها، والأوقاف هي الجسور والوسائل الآمنة من أجل إيصال الأثرياء إلى أصحاب الحاجة، والأثرياء الذين ينفقون على تلك المؤسسات الوقفية، تتواصل خدماتهم أيضًا بعد مماتهم، ويكون وصولهم إلى الفقراء وأصحاب الحاجة بواسطة تلك المؤسسات مستمرا.

٢. أدب الإنفاق

إن الأدب في إنفاق الصدقة أو الزكاة مهم للغاية، فعلى المنفق أن يستشعر فضل الآخذ عليه، وذلك لأن الآخذ أنقذه من دَينٍ كان مفروضًا عليه، وجعله ينال الثواب، كما أن الصدقات تعد وسائل للوقاية من المصائب والأمراض، فلذلك كان الفقراء والمساكين والمحتاجون نعمة كبيرة للأثرياء، وذلك لأن أبواب الجنة تفتح بدعواتهم.

الزكاة والإنفاق وسائل تنقذ روح الإنسان وشخصيته من أسر المادية وتعلي مقامه.



وقد أوضح القرآن الكريم الآداب التي يجب مراعاتها أثناء إعطاء الصدقة، فقال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...﴾

(البقرة: ٢٦٤)

وكما أن الآية الكريمة السابقة تحث على الإنفاق ودفع الزكاة، فإنها توضح أيضًا الآداب التي يجب مراعاتها أثناء تأدية الزكاة والصدقات، فكل خير يُفعَل رياء، ويكون فيه أذًى وكسر لقلوب الفقراء لا يساوي عند الله شيئًا.

عن أبي ذر ﵁ عن النبي ﷺ قال:

«ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»

قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثَلَاثَ مِرَارًا، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال:

«الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ» [٥٢]

وهذا الحديث يوضح لنا أن الخير الذي يُفعَل رياءً يُعَدُّ من الذنوب الثقيلة، التي تُوقع صاحبها في عذاب أليم، لأن القلوب يتجلى فيها نظر الرحمن، يقول مولانا الرومي:

"انفق مالك وثروتك على أحسن هيئة، واشتر بذلك قلبًا، فدعاء هذا القلب سيكون لك نورًا وضياءً في الليالي المظلمة في القبر"

جلال الدين الرومي

---

٥٢ مسلم، الإيمان، ١٧١/ ١٠٦.



"انفق مالك وثروتك على أحسن هيئة، واشتر بذلك قلبًا، فدعاء هذا القلب سيكون لك نورًا وضياءً في الليالي المظلمة في القبر".

كما ذكر مولانا أيضًا في أبياته أن المحتاجين والفقراء نعمة للأغنياء؛ لأنهم وسيلة لأدائهم الشكر لله تعالى، وأن السخاء لا يتحقق إلا فيهم، ولهذا يجب أن نتجنب إيصال الأذى إلى قلوبهم، كما هو موضح في الأبيات التالية:

الفقر مرآة الكرم...

فاهدأ ولا تجرح قلب الفقير بكلمة

لئلا تكسر مرآة الكرم.

إذن الفقراء أيضًا مظهر من مظاهر الكرم الإلهي، فقد جعل الله تعالى الفقراء يراجعون أصحاب الكرم، ولذلك أُعِدَّت طُرُق السعادة من أجل الأغنياء ذوي الحمية، ومن مظاهر الكرم الإلهي أيضًا أن الله تعالى يوقظ مشاعر الرحمة والحب في قلب الغني من أجل مساعدة الفقير، فكما أن الفقير يحتاج إلى الكرم والخير، فإن الكرم والخير أيضًا يحتاج إلى الفقير، وكما أن الجميل يبحث عن مرآة نظيفة براقة من أجل رؤية جماله، فكذلك الكرم يبحث عن الضعفاء والفقراء.

وعلى هذا فالفقراء هم مرآة الكرم الإلهي، وأصحاب الثروات يرون فيها كرمهم، والأثرياء الصالحون يدركون

"الفقر مرآة الكرم، فاهدأ ولا تجرح قلب الفقير بكلمة، لئلا تكسر مرآة الكرم"

جلال الدين الرومي



أن ثرواتهم مجرد أمانة في أيديهم، ويدركون عجز نفوسهم أمام الله تعالى، فيكونون انعكاسا للكرم الإلهي لينالوا حظهم منه، حتى يصلوا إلى درجة الفناء في السخاء.

أما الذين تتغلغل في قلوبهم محبة ثرواتهم، قليلة كانت أو كثيرة، فإنهم فقراء الروح وأشقياء الآخرة، وهذا النوع من الناس ليس مثل الفقراء على باب الله، فثرواتهم مظهر فارغ كصورة نقش خارجي فحسب، وهؤلاء هم فقراء الروح الذين فرغت قلوبهم عن الغنى بالله، أما ثرواتهم الظاهرية فهي شقاء أرواحهم وصورة فارغة تختفي وراءها حياتهم الشاحبة، وهم في الحقيقة أشخاص بلا روح لا يعلمون شيئًا عن الحقيقة، فلا تقترب منهم، واحذر من أن تكون من الذين يلقون العظام إلى صورة الكلب، فحذار حذار أن تلتفت إليهم أو تقترب منهم، فأمثال هؤلاء الأثرياء ومن هم على شاكلتهم سيكونون متسولين حقيرين يوم الحشر، فهم بذلك دراويش الطعام، وليسوا دراويش بمعنى الكلمة، فهم يظنون أن حقارتهم تلك سعادة، فيأكلون الأطعمة النفيسة، ويشربون المشروبات اللذيذة، ولكنهم في الحقيقة ليس لهم نصيب من النعمة الإلهية.

"فيا من لا يريد أن يقع في هذا الخسران! أنعم على المخلوقات بجودك، تكن من العارفين".



قال الله ﷻ:
﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾
(البقرة، ٢٦٢)



ومن الخصائص المهمة التي يجب مراعاتها في أعمال الخير والصدقات والزكوات، رعاية السرية؛ لأن الصدقة التي تُعطى علانية تُضعف مشاعر الحياء عند الشخص الذي يأخذها، وإذا ما اعتاد الآخذ أخذها ذبلت في روحه مشاعر السعي والجد، كما أنها في الوقت نفسه تكون سببًا في تكبر وغرور الشخص الذي ينفقها. ولكن ثمة حالات يكون فيها ذكر الصدقة وإعلانها خيرًا وفائدة، كأن يُراد حثُّ الأغنياء على مساعدة الفقراء، يقول الله تعالى:

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...﴾ (البقرة: ٢٧١)

وقد فسَّر المفسرون هذه الآية الكريمة بأن الزكاة يجب أن تكون في العلانية، أما الصدقات وأنواع النفقات والخيرات الأخرى فيجب أن تكون في السر، وأجمل أدب في الإنفاق هو ما ورد في الحديث الشريف، وأصبح بمثابة ضرب المثل عندنا:

«...حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»(٥٣).

وفي هذا الحديث بشارة من النبي ﷺ بأن من سار على هذا النهج النبوي يكون في ظل عرش الله تعالى يوم لا

٥٣ من حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، متفق عليه.

قال النبي ﷺ:

«...حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ».

متفق عليه



ظل إلا ظله، وقد ضرب أجدادنا أروع مثل في هذا الشأن، وتاريخنا أصدق شاهد على ذلك.

فهذا هو السلطان الفاتح يورد في وقفيته أكثر معايير الأدب حساسية من أجل الأفراد المحتاجين لحماية المجتمع.

وكان أفراد ذلك المجتمع على شاكلة سلاطينهم، فكانوا يدفعون الصدقات بأن يضعوها في ظروف، ويتركوها على أحجار الصدقة في الجوامع، وكان المحتاجون يأخذون منه قدر حاجاتهم.

ومع العلم أن السرية أساس في الإنفاق، إلا أن هناك حثًّا على الإنفاق أيضًا في العلانية بشرط حماية القلب من الرياء، وإلى جانب ذلك لا يوجد قيد زمني للإنفاق، فالمؤمن ينفق في كل وقت من ليل أو نهار، وقد تم التعبير عن تلك الحقيقة في الآية الكريمة التالية:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٤)

وقد كان لسيدنا أبي بكر الصديق ﷺ ٤٠ ألف دينار، تصدق بعشرة آلاف منها في الليل، ومثلها في النهار، ومثلها في السر، ومثلها في العلانية. ويروى أن ما فعله أبو بكر كان سببًا في نزول الآية الكريمة السابقة.[٥٤]

قال الله ﷻ:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(البقرة: ٢٧٤)

---

٥٤ الآلوسي، روح المعاني، جـ ٣، ص ٤٤.



ويقال أن هذه الآية نزلت في عليٍّ رضي الله عنه، حيث لم يكن يملك غير أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية، فقال رسول اللّهِ ﷺ: «**مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟**»، قال: حملني أن أستوجب على الله الذي وعدني، فقال له رسول اللّهِ ﷺ: «**أَلَا إِنَّ ذَلِكَ لَكَ**».(٥٥)



ثم إن علامة الحب التضحية، فالذي يحب يضحي بمقدار حبه لمن يحب، ويجد متعة في ذلك، بل إن العاشق قد يفني روحه في سبيل معشوقه، والإنفاق على مخلوقات الله يعد من أجمل مظاهر التحابب، وذلك لأن الزكاة والصدقة إنما تنفق لوجه الله تعالى، يقول الله تعالى:

﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ (التوبة: ١٠٤)

وقد قال النبي ﷺ في ذلك: «**لَا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، إِلَّا أَخَذَهَا اللهُ بِيَمِينِهِ...**»(٥٦)

ولهذا فإن أهم ما في الزكاة والصدقة هو كسب مرضاة الله تعالى بإخلاص وصدق، ولا ينبغي أن ينتظر المنفق الشكر على إنفاقه، فانتظار الإنسان الشكر على نفقته أو صدقته يمحوها ويذهب بثوابها، والأساس أن يكون

قال الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

(البقرة، ٢٦٤)

---

٥٥ الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص، ٩٥.

٥٦ مسلم، الزكاة، ٦٤/ ١٠١٤.



العكس، أي يجب على المعطي أن يعطي، وهو يشعر بأنه هو الذي يجب عليه أن يشكر الآخذ، كما يجب عليه ألا يهدف إلى شيء من وراء إنفاقه سوى مرضاة الله تعالى.

وكما أن الله تعالى أثنى على الإنفاق الذي قام به سيدنا علي والسيدة فاطمة رضي الله عنهما، فقد أوصى كذلك كل المنفقين بأن يتصرفوا من نفس المنطلق والشعور الذي تصرف به سيدنا علي والسيدة فاطمة، قال الله في كتابه الكريم:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (الإنسان: ٨ – ١١)

وفي الآية الكريمة المذكورة يوجد العديد من النكات والآداب المتعلقة بالإنفاق ومنها:

١- الإشارة إلى أن إيثار الأخ المؤمن على النفس، إنما هو خصلة جميلة.

٢- أن الإنفاق لا يكون لأجل أهداف دنيوية فانية، بل يجب أن يكون ابتغاء مرضاة الله تعالى.

٣- غاية الإنفاق نيل رضا الله واتقاء أهوال يوم القيامة.

٤- لا يقبل الله النفقة مالم تكن خالصة، وقد وعد الله تعالى أنه سينضِّر وجوه المخلصين في نفقاتهم.

"العقلاء من الناس يأخذون أموالهم وبضاعتهم إلى الآخرة (بإنفاقها في سبيل الله)، أما البخلاء فيتركونها في الدنيا متحسرين عليها".

الشيخ سعدي



٥- وفي الآيات إشارة أيضًا إلى أن الله تعالى يحث المؤمنين على الاستكثار من مثل تلك الأعمال الصالحة.

ولو أن المرء المنفق طبّق على نفسه هذه الآداب الجميلة في الإنفاق، فإن هذه الأخلاق ستعكس صدقه وإخلاصه المركوز في قلبه على أخلاق المخاطب، وسيكون ذلك المرء معرضًا للطف الإلهي حتى وإن لم يكن الشخص المنفَق عليه أهلا للإنفاق فينتبه من غفلته ويصلح من حاله.

إنَّ الصدقة إن أعطيت بنية خالصة، فإن صاحبها يثاب عليها حتى وإن أعطاها لشخص لا يستحقها، وقد أشار الرسول ﷺ إلى تلك الحقيقة فقال:

«قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ! لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ! فَأُتِيَ، فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ

"كما أن الفقير يحتاج إلى الكرم والخير، فإن الكرم والخير أيضًا يحتاج إلى الفقير، وكما أن الجميل يبحث عن مرآة نظيفة براقة من أجل رؤية جماله، فكذلك الكرم يبحث عن الضعفاء والفقراء"

جلال الدين الرومي



فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ»[٥٧]

وقد ظهرت تجليات هذا الحديث الشريف في كثير من الصالحين، وكان ممن عرفنا منهم سيدنا محمود سامي رمضان أوغلو-وهو من ورثة الرسول وأحباب الحق ﷻ- فبينما كان في إحدى رحلاته في الأناضول في مدينة أوركوب إذا برجل يوقف سيارته ويطلب منه أموالًا يشتري بها سجائر، وبالرغم من معارضة بعض رفقة سامي أفندي -الذي كان يعد شمسًا في السخاء والإنفاق- إلا أنه قال: "طالما أنه طلب فيلزم إعطاؤه"، وقام بإعطاء الرجل المال الذي طلبه دون أي تردد بين حيرة المرافقين له، وما كاد الفقير يبتعد عن المكان حتى صاح فرحا: والله لأشترين بهذا المال خبزا وطعاما لأهلي.

وعلى هذا فإن الإنفاق الذي يعطى بإخلاص ابتغاء مرضاة الله تعالى له تأثيره الواضح على المُنفَق عليه، وعليه فإن الإنفاق يتحكم في عالم قلوبنا أكثر من الذين نخاطبهم، وإن تمكنا من الإنفاق الحقيقي، فيا للسعادة التي سننالها.

ربنا، اللهم اجعل من مظاهر رحمتك خزينة لا تنضب لحياة قلوبنا!! آمين!!!

الدنيا تغدو جنة بثلاثة:
١.الإنفاق باليد واللسان والقلب.
٢.العفو عن عباد الله ﷻ.
٣.إظهار طريق الهداية للظالم.

---

٥٧ البخاري، الصحيح، الزكاة، ١٤/ ١٤٢١ .



الزكاة
من الناحية الفقهية

شروط فرضية الزكاة: [٥٨]

١- الإسلام والبلوغ والعقل والحرية.

٢- أن يكون الشخص صاحبَ رأس مال يبلغ حد النصاب، ويخرج من ذلك احتياجاته الأساسية والديون، والاحتياجات الأساسية للإنسان هي: الأشياء التي يحتاجها الإنسان لصيانة حياته وكرامته، كالمسكن الذي يعيش فيه، والأغراض -بخلاف الذهب والفضة-، والملابس، والنفقة الشهرية التي ينفق منها على أفراد أسرته -وعلى رأي آخر النفقة السنوية- والكتب التي يدرس منها، والماكينات والآلات التي يحتاج إليها في حرفته.

والنصاب: هو الحد الأدنى للثروة الذي يستوجب الزكاة، وهذا النصاب يختلف باختلاف المال المزكى عنه.

قال النبي ﷺ:
«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»
(البخاري، العلم، ١٥)

---

٥٨ لقد شرحنا الزكاة هنا من الناحية الفقهية باختصار وبلمحة عامة، وللاطلاع على تفصيل أكثر عن الزكاة من الناحية الفقهية يمكن الرجوع إلى: حمدي دوندوران، علم الحال الإسلامي بالأدلة. عمر نصوحي بيلمن، علم الحال الإسلامي الكبير، وهبة زحيلي، الموسوعة الإسلامية للفقه، هيئة من العلماء، ISAV، الزكاة مؤسسة وعبادة، وإن تعسر الحصول على تلك الكتب يمكن مراجعة أهل الإفتاء.



٣- أن يكون المال نامياً حُكْمًا أو حقيقة، أي أن يكون المال في وضع يؤمّن الربح والنماء لصاحبه، وهذه الخاصية في اصطلاح الضرائب تعني زيادة المال في نفسه أي تأمين الربح والمكسب، والزيادة الحقيقية هي الزيادة التي تتحقق بالتجارة والإنتاج وما شابهها، أما الزيادة الحُكْمِيَّة فهي إمكانية زيادة المال الممكن زيادتها والموجود في تصرف صاحبه أو من ينوب عنه.

٤- أن يمر عام هجري على المال الواجب فيه الزكاة، والزكاة تكون ٥ ,٢٪ عن كل سنة قمرية، أي البالغة ٣٥٤ يومًا.

إن المؤسسات التجارية اليوم تعمل طبقًا للتقويم الميلادي، ولأن السنة الميلادية تزيد عن السنة الهجرية ١١ يومًا، فإنه يلزم حينئذ إضافة تلك الزيادة على الزكاة، وعلى هذا فإن الزكاة يجب أن تكون -وفقًا لذلك- ٦ ,٢٪.

٥- أن يكون المال الواجب فيه الزكاة في تصرف صاحبه بملكية تامة.

"الإنفاق يتحكم في عالم قلوبنا أكثر من الذين نخاطبهم، وإن تمكنا من الإنفاق الحقيقي، فيا للسعادة التي سننالها"



ويلزم على من سيؤدي الزكاة أن يراعي **التحري والتمليك**؛ لأن صحة الزكاة مرتبطة بذلك، والتمليك أن يتم إعطاء الشيء كمِلك، أي تأمين انتقال الزكاة إلى يد آخذها وتملكه لها بشكل تام.



أما التحري فيعني البحث قبل منح الزكاة، أي التحري عن وصول الزكاة إلى مكانها.

ولو أن شخصًا أعطى الزكاة دون أن يتحرى، وتبين له أن الشخص الذي أخذ الزكاة منه لا يستحقها، أي خارجًا عن الأصناف الثمانية التي ذكرها القرآن الكريم، فإن الزكاة بذلك لا تكون صحيحة، ويجب إخراجها من جديد، أما لو ثبت للشخص الذي منح الزكاة بأنه أخطأ في تحريه فإنه لا يجب عليه إعطاء الزكاة مرة أخرى.

وهناك خاصية أخرى يجب الانتباه إليها أثناء دفع الزكاة وهي: أن الإنسان مسؤول عن نفسه قبل كل شيء، ثم عن أسرته من بعده، ثم عن أقاربه، ويُراعى نفس الترتيب أيضًا في فقه الميراث، حيث توجد أولويات لأصحاب الحقوق بعضهم على بعضهم، ويستند هذا أيضًا على عنصرين:

الأول: قوة درجة القرابة للذين يعطون الزكاة.

والثاني: درجة الاحتياج للمحتاجين.

وترجيح الأقارب لا يعني تركَ المحتاجين، ومنحَ الزكاة لمن هم أقل منهم في درجة الاحتياج، فإن كان الصنفان على نفس المستوى من حيث الاحتياج فعندئذ يكون تفضيل بعضهم وترك الآخر مبنيٌّ على أساس القرابة، ولهذا فإنه يجب دائمًا مراعاة درجة الاحتياج والعوز، فإن

قال الله ﷻ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(البقرة، ٢٧٧)



كان أحد الأشخاص من غير الأقارب في فقر شديد، فإنه لا تُعطى أولوية للأقارب في تلك الحالة عليه؛ لأن الأجنبي أكثر فقرًا واحتياجًا من الأقارب.

وهذه المقاييس الموضوعة توضح وتُظهر بشكل كبير رحمة الإسلام بالإنسان، وتحقيق الإسلام للتوازن وتعليم الشفقة من خلالها واضح بدقة فائقة، ولأن الرحمة هي أول ثمار الإيمان، فإن القلب البعيد عنها لا يُعَدُّ حيًّا، والبسملة التي هي بداية كل خير، وسورة الفاتحة التي تعد بداية القرآن، تبدآن باسمي "الرحمن الرحيم" اللذين يدلان على رحمة الله، وكذلك حياة الأنبياء والصالحين مليئة بمظاهر الرحمة والشفقة، وقد قال النبي ﷺ:

«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» (٥٩)

إن هذا الحديث الشريف يدل على ضرورة رحمة كل المخلوقات، فالعبادات المالية -كالزكاة والإنفاق والعُشْر، التي تعد كل واحدة منها بمثابة العبودية- من أجمل مظاهر هذه الرحمة والشفقة.

قال النبي ﷺ:
«يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى»
(الترمذي، الزكاة، ٣٢)

---

٥٩ أبي داود، الأدب، ٥٨/ ٤٩٤١.



الزكاة خير علاج كي لا يتحول رأس المال إلى ورم سرطان خبيث.

المال الذي تجب الزكاة عنه ومقداره:

النصاب في الأغنام ٤٠ رأسًا من الغنم، وفي البقر ٣٠ رأسًا، وفي الإبل ٥ من الإبل، أما نصاب الذهب فهو ٨١ جرامًا[٦٠]، أما نصاب الفضة فهو ٥٦١ جرامًا، ومع أن نصاب الذهب والفضة ثابت لايتبدل وهو ١/ ٤٠، إلا أن النصاب ومقدار الزكاة في الحيوانات يختلف باختلاف عدد الحيوانات، ويمكن الرجوع إلى كتب الفقه من أجل الاطلاع على التفصيلات، كما تُدفع الزكاة أيضًا عن المنتجات البحرية، وعن المعادن التي تستخرج من الأراضى والجبال، ويمكن كذلك الرجوع إلى الكتب الفقهية لمعرفة النصاب الواجب فيها.

وكل الثروات المنقولة وغير المنقولة التي تدر دخلا تتبع الزكاة أيضًا، فغير المنقول يتم فيه احتساب الدخل السنوي لقيمة الإيجار الذي تدره هذه الثروة غير المنقولة، حيث تُدفع الزكاة عن الجزء المتبقي بعد استخراج كافة النفقات، والأراضي التي تم شراؤها من أجل بيعها في المستقبل، تُدفع عنها الزكاة عن أول سعر اشترى به الأرض،

٦٠ توجد حسابات مختلفة عن حساب نصاب الذهب، وهذه النصابات المختلفة هي: ٩٦ أو ٩٠ أو ٨٥ أو ٨١ جرامًا. فقد أشرنا إلى أقل نصاب وهو ٨١ جرامًا وهذا أكثر نفعا للفقير.



-مع رعاية فرق التضخم إذا كان هناك تضخم في الأسعار-، وكذا العقارات التي تم شراؤها من أجل بيعها، تدفع عنها الزكاة عن مالياتها، -مع الانتباه أيضًا إلى فرق التضخم-.

وبالنسبة للشركاء في الشركات، إذا قاموا بدفع الزكاة بشكل مشترك، فإنهم يتبعون ما يلي في احتساب الزكاة:

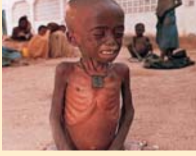
يقومون أولا باحتساب الدخل والمنصرف في بداية العام أو في نهايته، ويحسبون أيضًا ديونهم التي في الخارج إذا كانوا متيقنين تحصيلها. ويُسقطون من هذا المبلغ الإجمالي قيمة الأغراض الأساسية وديونهم للغير إذا كانت عليهم ديون. ثم يحسبون ٢,٥٪ من المتبقي إذا كانوا يسيرون على السنة الهجرية، أو ٢,٦ إذا كانوا يسيرون على السنة الميلادية.

وثمة نقطة أخرى يجب الانتباه إليها وهي أن الزكاة لا تكون على الربح فقط، وإنما تشمل -كذلك- صافي رأس المال، الذي لا يشمل الأغراض الأساسية.

أما بالنسبة للمصانع والورشات الحرفية ومؤسسات التشغيل، فإنها تتبع ما يلي في احتساب زكاتها:

١- لا تجب الزكاة على الماكينات والآلات والأدوات المستخدمة، أما إن كان تلك الماكينات من ذهب أو فضة، فإنه يتم احتساب قيمتها، ودفع الزكاة تبعًا لنصابها.

"من يصلي ويزكي بحق تكون سيرته سيرة عبد صالح"
السَّيري



٢- رأس مال التشغيل يتبع الزكاة، حيث يتم دفع الزكاة عن صافي الربح بعد خصم كافة المصروفات والأجور والديون من رأس المال المذكور.

٣- وإن كانت الرواتب تُعطى في تلك المؤسسات الصناعية شهريًّا، فإنه لا يُنظر إلى الاختلافات التي تطرأ على الرواتب في غضون السنة كلها، بل يتم الاحتساب طبقًا للحساب المعمول آخر السنة.

والتضخم من الأمور التي يجب مراعاتها أثناء احتساب الزكاة، وذلك لأن التضخم في الوقت الحالي يمكن أن يُعطي خسارة أو فقدًا لقيمة الشيء تتراوح بين ٧٠٪ إلى ١٠٠٪، ولهذا يجب عمل فهرس أو تسلسل للقيمة الثابتة للمبلغ الخاص بالزكاة من أجل إمكانية وضع القيمة الأصلية للشيء في وقته، وإن لم يتم عمل ذلك فإن مبلغ الزكاة سينخفض إلى ما دون ١/ ٤٠، وبذلك لا تتم مراعاة حق المساكين أو المحتاجين، وإذا تم إخراج الزكاة على ذلك فإنها تكون ناقصة بالطبع.

وقد أمر الإسلام بأن تكون الزكاة عينية باعتبار الأساس، أي زكاة الذهب تكون ذهبًا، والفضة فضة، وعن الأغنام أغنامًا، وعن القمح والحبوب الأخرى قمحًا أو أيَّة حبوب أخرى، وعن القماش قماشًا، وقد كانت الزكاة في عهد الرسول ﷺ وفي عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما تدفع عينية،

قال الله ﷻ:
﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾
(النور، ٣٧)



ولكنها بعد ذلك كانت تُدفع عينية ونقدا أيضًا، ولهذا فإنه لا بأس اليوم من إعطاء الفقير الزكاة بشكل نقدي بدلا من أن تكون عينية.

الجهات التى يجوز صرف الزكاة إليها:

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٠)

لقد بينت الآية الكريمة الأماكن أو الأشخاص الذين هم محل لدفع الزكاة، وهم في الترتيب كما يلي:

١- **الفقراء**: أي الذين لا يُعدون أغنياء شرعا، أي لا يمتلكون مالًا يبلغ حد النصاب، وتُدفع لأمثالهم الزكاة حتى ولو كانوا أصحاب عمل.

٢- **المساكين**: الذين لا يملكون قوت يومهم، أي الفقراء جدًّا.

٣- **العاملون على الزكاة**: هم كل من يقوم بعمل من الأعمال المتصلة بجمع الزكاة وتخزينها وحراستها وتدوينها وتوزيعها.

قال الله ﷻ:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾

(الأنبياء، ٧٣)



٤- **المؤلفة قلوبهم**: هم من يرجى إسلامهم وحسن حالهم إذا أعطوا من المال، أو من كان جديد الدخول بالإسلام وفي إسلامه شيء ويرجى حسن حاله بإعطائه.

٥- **وفي الرقاب**: يعنى أنهم عبيد، ولكنهم عقدوا اتفاقا مع سيدهم لتحرير الرقبة.

٦- **الغارمون**: أي الذين بلغت ديونهم أكثر من مالهم.

٧- **وفي سبيل الله**: أي المجاهدون، والذين خرجوا للحج دون أن يكون معهم نقود، والذين يحصِّلون العلم ابتغاء مرضاة الله من أجل نفع الأمة الإسلامية، والذين يقومون بالدعوة إلى الإسلام.

٨- **وابن السبيل**: أي المسافرون الذين انتهت أموالهم حتى وإن كانوا أثرياء في بلدانهم.

الذين لا يصح دفع الزكاة لهم:

هم: الأصول كالأب والأم والجد والجدة، والفروع كالابن والبنت والأحفاد، والأغنياء، وغير المسلمين، والزوج لزوجته أو العكس.

فالزكاة تُدفع فقط للمذكورين في الآية وتدفع لتأمين الحاجات الأصلية، ولا تُدفع الزكاة للأشخاص الحُكْمِيِّين، ولهذا فإن المستشفيات ومراكز تعليم القرآن الكريم والمدارس والجوامع ليست داخلة في محل دفع للزكاة،

قال الله ﷻ:

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾

(محمد، ٣٨)



بل هذه المؤسسات المذكورة أعلاها يتم إنشاؤها من باب الخيرات"الصدفات"، وإطعام الطعام "كإفطار الصائمين" ليس من الزكاة بل هو من الإنفاق؛ لأنه لا تمليك فيه.

العُشْر: الزكاة عن المحاصيل الزراعية:

١- عند أبي حنيفة رحمه الله لا يُعتد بالنصاب في الزكاة عن المحاصيل الزراعية، أي لا يوجد شرط لبلوغ حد معين أو حولان الحول عليها، أما عند أبي يوسف ومحمد فنصاب المحاصيل الزراعية خمسة أَوْسُقٍ أي ٦٥٣ كجم، إلا أن العشر لا يجب هنا إلا في حالة تعديّ النصاب المذكور.

٢- في الأماكن التي تنتج الأرض فيها أكثر من محصول في العام الواحد، يتم دفع العُشْر مكررًا تبعًا للمحصول.

٣- يعطى العُشْر عن المحاصيل الزراعية التي انتقلت بالإرث، وعن المحاصيل الزراعية الخاصة بالطفل والمريض مرضا عقليا.

٤- يجب أن تكون المحاصيل الزراعية التي سيدفع عنها العُشْر من المحاصيل التي لم تكن معرضة للفساد طوال العام، ولهذا فإن محاصيل الخضراوات والفواكه لا يجب فيها العُشْر، مثل التفاح والمشمش والبطاطا والفلفل وغيرها من المنتجات التي لا تبقى فترة طويلة.

"كم من صاحب ثروة خير له أن لا يعطي أبدًا من أن يعطي لمن لا يستحق. لذلك فاصرف المال الذي وهبه الله كما أمرك. إن الإحسان في غيره محله من عبد عاص يدعي الإحسانً كتوزيع مال السلطان لقطّاع الطرق".

جلال الدين الرومي



ويمكن أن يقال: إن التقنيات الحديثة مثل الثلاجات الخاصة جعلت تلك المنتجات تبقى أكثر من عام، وعلى هذا فقد اختلف أهل العلم في وقتنا الحالي في مسألة دخولها حينئذ في العُشْرِ أو لا، وفقًا لرأي أبي يوسف ومحمد، وقد انقسم أهل العلم إلى قسمين في هذا الموضوع:

أ. الفواكه والخضراوات التي يمكن حفظها لعام بالطرق الخاصة لا تُقاس بالمنتجات الأخرى التي يمكن أن تحفظ لعام أو أكثر بالطرق الطبيعية، ولهذا لا يجب عليها العُشْر.

ب. يمكن حفظ تلك الخضراوات والفواكه لأكثر من عام، بل إنها قد تدر ربحًا أكبر إذا ما حفظت؛ لأنها تباع في موسم غير موسمها، ولهذا يجب دفع العُشْر عن تلك المنتجات، ولكن عند احتساب النصاب الذي يستوجب العُشْر، يجب خصم نفقات إنتاج تلك المنتجات ونفقات حفظها أيضا.

وأمام تلك الآراء يمكن القول بأن رأي الإمام الأعظم في هذا الموضوع هو الأرجح، أي إن دفع العشر عن تلك المحاصيل المحفوظة سيكون أفضل لما فيه الخروج من عن الخلاف، ورعايةً للاحتياط، ولما فيه من مصلحة للفقراء.

وثمة موضوع آخر يجب تذكره هنا وهو: أن المنتجات التي يدفع عنها العُشْر إذا تحولت إلى مال في نفس العام، فإنها لا تجب عليها الزكاة إلا بعد مرور عام كامل عليها.

"لا تلزم المال والملك كثيرًا، كي تتركه عند الحاجة، فتعطي بيسر وتنال أجرًا. والزم سبيل من يُحيك، فهو الأول وهو الآخر".

جلال الدين الرومي



قال الله ﷻ:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾
(الحشر، ١٨)

٥- الأراضي التي يدفع عنها العُشْر إذا كانت تروى من الأنهار أو الجداول أو المطر فيجب دفعها بنسبة ١٠٪، أما إذا كانت تروى بالماكينات طوال العام أو أكثر من نصف العام فيجب عليها حينئذ بنسبة ٥٪، وهذه النسبة تابعة للزكاة باسم العُشْر، ولا تسقط عنها نفقات البذور أو الفلاحة أو الري أو العلاج للأراضي وغيرها.

٦- في حالة دفع العُشْر عن الزيتون أو السمسم أو حبوب دوار الشمس، فإنه لا يدفع عنها عُشْرًا مرة أخرى بعد تحويلها إلى زيت، إلا أن الشخص الذي يشتري هذا الزيت بهدف التجارة فإنه يدفع عنها الزكاة على حساب أموال الزكاة.

٧- إذا نمت المنتجات أو الحصص المحددة في الأراضي الواجب فيها العُشْر، وحصل الإنسان على تلك المنتجات فإنها تُحسب، ويتم تأدية العُشْر عنها بعد تمام الحصاد، ولا يتم دفع العشر قبل ذلك، أي قبل نضوجها والحصول على منتجاتها، كما لا يجوز دفع العُشْر عن الفاكهة التي لم تنضج بعد أو التي لم يتبين نضوجها.

٨- في حالة الأكل من الحبوب أو من الفاكهة وهي على الشجرة قبل أن يدفع عنها العُشْر، يجب التنبه إلى ضرورة تقييم ما تم أكله وإضافته إلى المحصول ثم احتساب العُشْر عليه، وأبو حنيفة يرى ضرورة هذا التضمين فيقول:



لو جمع الإنسان ١٠ كجم من العنب (يعني للأكل) فإن عليه إخراج ١ كجم.

٩- يطلق على الأراضي التي تصبح تحت حوزة الدولة الإسلامية -بالفتوحات التي يقوم بها المسلمون- "الأراضي الحكومية أو الأميرية"، وتكون ملكيتها للدولة، وتقسمها الدولة على أهل القرية بالسندات بحق الانتفاع، وأهل القرية حينئذ يكونون بمثابة المستأجرين، والضرائب أو الأموال التي يدفعونها للدولة تسمى بدل الإيجار، ولا يلزم على مثل تلك الأراضي العُشْر أو أي زكاة، وقد كانت معظم أراضي الدولة العثمانية على هذا الوضع.

وقِسْم من تلك الأراضي التي كانت واقعة في الأناضول والروملي بيعت إلى طلابها بمقابل، وأصبحت ملكًا لهم بالسندات، كما اشترى كثير من الأشخاص الأراضي التي لا مالك لها من أجل إحيائها.

هذا النوع من الأراضي خرج عن كونه ملكا للدولة، وأصبح ملكا خاصا ولهذا يجب فيه العُشْر، مثله مثل الأراضي الأخرى، وجميع الأراضي في تركيا في الوقت الحالي ملكية خاصة، يمكن بيعها وشراؤها، وإن لم تأخذ الدولة منهم اليوم العُشْر عن تلك الأراضي، فإنه من الواجب على مالكيها أن يدفعوا هم بأنفسهم هذه الأعشار للأماكن اللازم دفعها فيها كما يفعلون في الزكاة عن دوابهم.

قال النبي ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»

(البخاري، جـ٣/ ٢٣٢٠)



من الضروري أن نحيا تحت شعار "الثروة أمانة" كي نصل إلى نضج معنوي يجعل وجوهنا مبيضة وقلوبنا صافية حين يحاسبنا صاحب المُلك الحقيقي يوم القيامة الذي يجعلنا "مؤمنين يفيدون الناس بأقوالهم وأفعالهم".

الثروة أمانة

حوار خاص حول الإنفاق والزكاة والوقف (٦١)

-ماذا يعني "الملك" في نظر الإسلام؟

الملك في الإسلام بمعناه الحقيقي ليس للفرد أو المجتمع، وإنما هو لله تعالى. وقد أعطى الله تعالى لعبده حق التصرف بهذا الملك في فترة زمنية محددة وبشروط معينة، ولهذا فإن العبد لا يستطيع التصرف في الملك الذي عنده كيفما يشاء أو على حسب أهوائه، بل يجب أن يتصرف في الملك بموجب الطريق الذي بيَّـنه لنا صاحبه الحقيقي وهو الله تعالى.

وهذا يعني أن على صاحب الثروة أن يُشرك المضطرين والمحتاجين في ما أنعم الله به عليه من النِّعَم الدنيوية التي يستفيد منها، والهدف من هذا أن يكون مؤمنًا حقًّا يسلم الناس من لسانه ويده، وأن يستفيد الآخرون من ماله.

وهذه الكيفية إنما هي للوصول إلى إدراك أن الثروة نعمة أعطاها الله تعالى لعبده، فإن تصرف العبد فيها بما يخالف ذلك فإنه يكون قد خان الأمانة، فتظهر الاضطرابات المختلفة التي يشتكي منها المجتمع في الوقت الحالي.

---

٦١ هذا مقتبس من المقابلة التي أجرتها مجلة «آلْتُونْ أولُوقْ» مع المؤلف .



-ما مكانة صاحب الثروة في نظر الإسلام؟

لقد حث الإسلام الناس على أن يكونوا أصحاب ثروة مشروعة، وقد بني الإسلام على خمس، اثنان منها تعتمد على كون الإنسان ثريًا، وهما الحج والزكاة.

إن هذا المعني يخاطب الإنسان فيقول: كن ثريًّا بشكل مشروع وادفع زكاتك وأدّ حجك، وقد قال النبي ﷺ:

«اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى...» (٦٢).

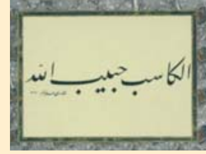
وبذلك حث سيدنا النبي ﷺ على أن يكون المرء معطاءً، وليس آخذًا.

-ما الضوابط التي ينبغي مراعاتها لتحصيل الثراء الذي حث عليه الإسلام؟

لقد حث الإسلام على التجارة، ولكنه لم يتركها حرة دون شرط أو قيد كما هي في النظريات الليبرالية، أو مقيدة بشكل غير طبيعي كما في الأنظمة الاشتراكية، لقد حث الإسلام على التجارة لتكون ذات فاعلية حقيقية، فالتجارة الموضوعة من أجل فائدة الفرد والمجتمع ترتبط بمجموعة من القواعد باعتبار أسلوب تلك الفاعلية وساحة العمل، وهي على ما يلي:

قال النبي ﷺ:
«اليَدُ العُلْيَا
خَيْرٌ مِنَ اليَدِ
السُّفْلَى...»
(البخاري، الزكاة، ١٨)

٦٢ البخاري، الزكاة، ١٨/ ١٤٢٧/ ١٤٢٩.



لا يجوز التجارة في شيء حرّمه الله تعالى، وهذا يعني أن الشرط الأول لمشروعية النشاط التجاري في نظر الإسلام أن تكون ساحة الاشتغال حلالا، أما بقية الشروط الأخرى فخاصة بطراز هذا النشاط.

ولنفترض أن بضاعةً ما ندرت في السوق، فتم تخزينها، فقد منع الإسلام بيعها من أجل رفع سعرها، وهذا ما يُطلق عليه اليوم "البورصة السوداء"، أما في الاصطلاح الشرعي فيطلق عليه "الاحتكار" وقد مُنع هذا في الإسلام بشدة.

وثمة مانع شرعي آخر في التجارة وهو ما يعرف بالغَبْن، أو الخداع، حيث يظهر فرقٌ باهظ بين البضاعة وسعرها، وذلك بسبب عدم خبرة المشتري أو عدم درايته من جهة الملكة العقلية، ومن ذلك على سبيل المثال: بيع البضاعة المسروقة بثمن بخس، أو الاستفادة من عدم دراية طفل، وشراء البضاعة التي في يده بثمن بخس.

من شروط التجارة أيضًا، أن يخبر البائع المشتري بالعيوب التي في بضاعته، وألا يبيع على بيع أخيه، وألا يزكي بضاعته ويطعن في بضاعة غيره لينفق ما عنده من البضاعة، فعلى التاجر أن يكون ذا خلق ومروءة في معاملاته.

ونكتفي أخيرًا بذكر هذه الخاصية -لأن هدفنا عدم التوغل في شرح كل الأسس الشرعية للنشاط التجاري- ففي بعض الأحيان يتم تحديد نسبة الربح من الناحية الشرعية، وتظهر أهمية ذلك بشكل كبير في بعض الظروف الطارئة كالحرب

قال الله ﷻ:
﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾
(المنافقون، ٧)



وانتشار الأوبئة وغيرها، وقد أعطى الدين الصلاحية لرجال الإدارة لسن القوانين التي تعمل على اتخاذ التدابير أو التحديد من أجل المصلحة العامة، وتوجد مظاهر كثيرة في الحياة التجارية على هذا، ولهذا فإن هناك ضرورة لرعاية حد الربح ورعاية القواعد التي وضعها رجال الإدارة من أجل سلامة العامة، كما توجد ساحات للنشاط التجاري لم يكن هذا التحديد بها فعالا، وذلك بسبب زيادة المخاطر.

وتوجد أدلة كثيرة لاحصر لها تدل على أن الإسلام حث على النشاط التجاري، فقد ورد في الحديث الشريف:

«التَّاجِرُ الْأَمِينُ الصَّدُوقُ الْمُسْلِمُ مَعَ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٦٣)

وورد أيضًا:

«الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ، وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ»(٦٤)

وورد أيضًا:

«التَّاجِرُ الْجَبَانُ مَحْرُومٌ وَالتَّاجِرُ الْجَسُورُ مَرْزُوقٌ»(٦٥)

وورد أيضًا:

«مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ...»(٦٦)

---

٦٣ ابن ماجة، التجارة، ١/ ٢١٣٩ .

٦٤ ابن ماجة، التجارة، ٩ / ٢١٥٣.

٦٥ الديلمي، المسند، جـ٢، ٧٩ .

٦٦ البخاري، البيوع، جـ ٢، ٢٣٨.

قال النبي ﷺ:

«التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة»

(ابن ماجه، التجارة، ١)



- أحد المسلمين أصبح غنيا مع مراعاته القواعد الإسلامية، هل يمكنه التصرف كيفما يشاء في هذا المال؟

الثروات -وغيرها مما يدخل في حكم البضاعة- كثيرة ومتنوعة، مثل الدواب والأملاك وأدوات الزينة، والأمتعة، وقد وضع الإسلام قواعد كثيرة من أجل استعمال البضائع والأغراض التي تشكل وسائل متعددة، مثلا:

لقد حرّم الإسلام التقليل من مأكولات دواب الركوب وعلفها ورغَّب في تكثيره، كما حرَّم تحميلها من العمل ما لا تطيق، كما منع من التصرف في الملك بشكل قد يضر بالآخرين.

كما أمرنا الإسلام بعدم رفع الجدران حتى لا نمنع عن جيراننا الشمس أو رؤية منظر جمالي معين، كما أمر الإسلام بعدم استخدام أية أمتعة بشكل سيئ قد يعرضها للخراب فلا يستطيع أن يستفيد منها أحد، وما ذكرناه خاص بالأمتعة التجارية، أما بالنسبة للمواد الغذائية مثلا فلنفترض أن الأسعار رخصت، فلا يمكننا حينئذ أن نقوم بسكب زيت الزيتون الموجود في مخازننا على الأرض، أو بسط الخضراوات الموجودة في البساتين على الطرق على سبيل الاحتجاج، معتقدين أننا بذلك نعترض على رخص الأسعار، وذلك لأن تلك البضائع يجب أن تقدم لخدمة العامة.

قال النبي ﷺ:

«إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه»

(ابن ماجه، التجارة، ١)



ويحرم تحديد الإنتاج بهدف الحصول على ربح طائل، ولهذا يمكن القول بأن أية أعمال متعمدة تدعو لإعاقة ترخيص الأسعار -كأن تتفق الشركات الكبرى بعضها مع بعض على ذلك- مما يضر بالمستهلك، فإنما هي محرمة.

- ما التكاليف المالية الواجبة على المسلم الثري؟

إن أهم التكاليف الواجبة في مال الثري هي الزكاة، والزكاة في اللغة مشتقة من التزكية، والتزكية تعني التطهر، وهذا يعني أن الزكاة عمل ينقي ويطهر المال، ولأن الزكاة فرضت بأمر من الله تعالى، فإن مقدار الزكاة حق للفقير، ولا فرق بين منعه وبين اغتصاب حق الآخرين، وقد عيّن الله تعالى نصابًا لكل نوع في أموال التجارة ولكل ثروة، وكل أموال أو بضائع زائدة عن هذا النصاب يجب فيها الزكاة.

والثروة في نظر الإسلام ليست بمقياس ثروة الأغنياء الحاليين الذين يملكون أموالا طائلة كما يظنُّه عامة الناس.

فالحد الشرعي للثروة في الإسلام هو امتلاك ٨١ جرامًا من الذهب أو ما يعادلها من المال، وأي مبلغ من المال أو بضاعة بنفس القدر وما فوقها ومر عليها عام كامل تجب فيها الزكاة.

والنسبة التي حددها ديننا في ثروتنا -حقا للفقير والمحتاج- هي ١/٤٠ ، ويجب علينا أن نقدم حق المحتاج

"ينتهي المال الحلال والحرام... لكن يبقى الثواب والجزاء".

عبد الرحمن الأوزاعي



هذا بأجمل شكل، وهذا الحق المسمى بالزكاة يعني مشاركة الفقير الغني في النسبة المحددة له من قبل الشَّرْع.

والزكاة هي الحد الأدنى للقيمة التي تعطى للمحتاج، إلا أن تلك النسبة تزيد عن عشرة في المائة في دخل الأراضي الزراعية، أما في الدواب فإنها تختلف باختلاف جنس الدابة، وإذا ما أضاف الإنسان على زكاته الصدقات والإيثار والإنفاق فإنه يكون بذلك قد جمّل ثروته وجعل فيها البركة، وقد أعلن سيدنا أبو بكر ﵁ الحرب على من امتنعوا عن أداء الزكاة، وهذا يُظهر أهمية الموضوع.

أما إذا لم يعط الغنيُّ القويُّ للفقير الضعيف حقه المشترك بينهما فإن الغني يكون بذلك غاصباً وظالما، وتُنتزع الرحمة من قلبه، والبركة من ماله، ولا تتطهر ثروته من الأرجاس والأوساخ.

وقد أوضح القرآن الكريم الأشخاص الواجب في حقهم الزكاة، ومنهم: الفقير والغارم والمسكين، وطلبة العلوم، والذين يجاهدون في سبيل الله وابن السبيل، وهؤلاء تُعطى لهم الزكاة بالنسب المقررة شرعًا.

ولأن عهدنا عهدٌ بلغت فيه الأزمة المالية حدها، فإن على أغنيائنا ألا يكتفوا فقط بالزكاة الواجبة عليهم فحسب، بل يجب عليهم فعل ما هو أكثر من ذلك.

"تفسد الأعمال حين يكون المال بيد البخلاء، والسلاح بيد الجبناء، والقرار بيد الضعفاء".

سيدنا أبو بكر ﵁



وثمة أيضًا العُشْر، ولو أردنا أن نتحدث عن العشر باختصار فنقول: إن العُشْر موضوع مهم أهمله العالم الإسلامي، وقد كانت الأراضي في الدولة العثمانية على الشكل "الميري"، أما الآن فقد تغير شكل التصرف في الأراضي، وأصبحت ملكية خاصة، يمكن بيعها وشراؤها، أي إن صاحبها يمكنه التصرف فيها كيفما يشاء، إن أراد بيعها باعها، وإن أراد تأجيرها أجرها، وعلى هذا يَلْزَمُ أصحابَها أن يدفعوا سنويًّا ٥٪ عن الأراضي التي تروى بآلات الري، و١٠٪ عن الأراضي التي تروى بالمطر، والاسم الشرعي لذلك هو العُشْر، والذين يمتنعون عن دفع العشر مثلهم مثل مَن يمتنع عن دفع الزكاة، أي إنهم يعدون مغتصبين للحقوق، قد اغتصبوا حق الفقراء وحق من هم في سبيل الله، فيجب أن يُنظر إلى هذا الموضوع بجدية واهتمام، ويجب على كل فرد أن يطالع المسائل المتعلقة بالزكاة، إما عن طريق سؤال أهل العلم أو من خلال مطالعة الكتب الفقهية.

قال النبي ﷺ: "انفحي أو انضحي أو أنفقي، ولا تحصي، فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك" (مسلم، الزكاة، ٨٨)

- لقد أوضحتم أنه يجب على الأغنياء -الذين يمتلكون المال الذي أنعم الله به عليهم كأمانة- أن ينفقوا في الأوجه المختلفة بخلاف الزكاة، هلا وضحتم لنا كيفية ذلك؟

بالتأكيد... إن الإنفاق بأنواعه المختلفة ليس فرضًا كالزكاة، بل هو اختياريٌّ حث الإسلام عليه، والإنفاق



والإيثار هو تخصيص مال لله بشكل أبدي، أي جعله وقفا لله، أما الزكاة فهي الإنفاق المفروض الذي يجب أن يُبْذَل للمحتاجين، فينبغي ويلزم تزيين الثروة بالصدقة والإنفاق والإيثار.

يقول الله تعالى في سورة التوبة:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣٤)

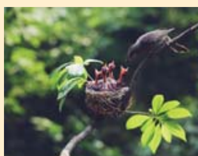
وكما هو واضح في الآية أن من اغتصب حق المحتاج فمصيره إلى جهنم، فيجب علينا أن نفكر جيدًا في هذا الوعيد الإلهي، كما يجب علينا أن نجتهد في أن ننفق أكثر من ١/ ٤٠، لاسيما وأنه قد ورد في الآية الكريمة:

﴿...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...﴾ (البقرة: ٢١٩)

- سيدي، إن بلادنا اليوم تعاني أزمة اقتصادية، فهل يغدو لزكاتنا وإنفاقنا أهمية أكثر في هذه الأيام خاصةً؟

كما تفضلتم فإن بلادنا اليوم تمر بأزمة اقتصادية واجتماعية ومادية ومعنوية، ولهذا فإننا في أمس الحاجة إلى حملة للإنفاق، ويجب علينا أن نتألم لألم إخواننا المؤمنين الفقراء والمرضى والضعفاء؛ لأن الرحمة طمأنينة نفسية في الدنيا وسعادة أبدية في الآخرة، ولهذا ثمة ضرورة -إلى جانب إيفاء الزكاة- لزيادة حسنات وخيرات إخواننا

"الرحمة طمأنينة نفسية في الدنيا وسعادة أبدية في الآخرة".



الذين يملكون الإمكانيات المالية؛ لأن الزكاة عبارة عن أمر إلهي خاص بمراعاة وصيانة أصحاب الحاجة في الأوقات العادية، ولذلك فإنه ينبغي أحيانا أن يزيد الفقر والعوز بدرجة كبيرة، ولهذا فإن أهمية فعل الخيرات من أجل تحقيق الطمأنينة والسلام في المجتمعات أمر في غاية الأهمية، وفي تلك الأوقات الطارئة لا ينبغي الاكتفاء بالزكاة فقط؛ لأننا يمكن أن نكون نحن مكان هؤلاء المحتاجين، كما أن هذا في الوقت نفسه دين بالشكر لربنا.

وكما يجب علينا تعويد أطفالنا على الصلاة وهم صغار، فكذلك يجب علينا أن نعودهم منذ صغرهم على حب الإنفاق وحب الخير ومساعدة المحتاجين؛ لأننا إن لم نعوِّدهم على ذلك في صغرهم فسيصعب عليهم أن يفعلوا ذلك وهم كبار، فيجب أن ينشأ هؤلاء الصغار على إدراك أن الله تعالى هو مالك الملك، ويجب أن يكبروا على معرفة أنهم يحملون أمانة، وعليه فإن الأجيال التي ستنشأ على تلك الروح، يمكن أن تحيي من جديد حملات الإنفاق والمساعدة التي كانت تملأ تاريخنا، فتاريخنا الإسلامي مليء بالنماذج المشرقة للإنفاق.

وسأعطي مثالا على ذلك عندما فقد العثمانيون البلقان عام ١٩١٣ م عقدت مؤسسة تسمى "الأخوة الصادقة" في الهند لقاءات عديدة مع رؤساء التشكيلات الإسلامية في

قال الله ﷻ:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

(سبأ، ٣٩)



الهند، وقاموا بدعوة جميع المسلمين لمساعدة العثمانيين، وحثوهم على دفع زكاتهم لهم، حتى إنهم افتتحوا المعارض لذلك في الميادين الرئيسية، ومن النماذج الرائعة التي قدمها المسلمون آنذاك، شاب أتى إلى أحد المعارض وأعطاهم قميصه وثيابه الداخلية، وعجوز أتى إليهم وأعطاهم كفنه.

إن هذه الحادثة، وغيرها الكثير من الأحداث المشابهة، أظهرت رغبة عارمة في الإنفاق كانت تعبيرًا عن حب الغير وإيثاره على النفس، وطبيعي أننا اليوم نحتاج لهذا الحماس أكثر من الأمس، ولهذا فإنه ومع كون توزيع الزكاة على الأماكن المخصصة لها اليوم في غاية الأهمية، إلا أنني ما زلت أقتنع بأن منحها لمن يعملون في سبيل الله أهم وأعظم.

- سيدي، رأينا أن الوقف كان وسيلة لخيرات كبيرة على مدار التاريخ، فهل يمكن أن نستنير بآرائكم حول الوقف؟

إن عملية التنظيم في الإنفاق تظهر جلية في مؤسسة الوقف، فالوقف يعني تقديم ما نملكه لله تعالى، ومنع التمليك والتملك، وأن نجعل ما نملكه لله تعالى على التأبيد، والغاية في ذلك التقرب برحمة وشفقة إلى جميع المخلوقات ابتغاء مرضاة الله. فبذل الجهد من بذل الروح والمال لله، وكلاهما ثَمَنُ الجنة.

لا يقتصر الإنفاق على الأمور المادية، بل يشمل كل ما أكرمنا به ربنا؛ وخير صور الإنفاق تبليغ الإسلام بالعيش في أنواره.



وقد قلنا أكثر من مرة: إن الأوقاف عند العثمانيين كانت تزيد عن ٢٦ ألف وقف، وقد استمرت هذه الأوقاف مع الناس بحب الخير وحب الغير، وقد استطاع هذا المجتمع الدولي الكبير أن يجد التوازن الاجتماعي بفضل تلك الأوقاف، والأوقاف في الوقت نفسه إنما هي آثار للتراحم في المجتمع، والأوقاف هي أجمل الميادين التي يمكن أن يتم توزيع ما ننفقه فيها، وكم نحن في حاجة اليوم لتلك الأوقاف، فينبغي إحياء تلك المؤسسات من جديد في مجتمعنا، من أجل احتضان المحتاجين والمساكين بالرحمة والشفقة.

- يا ترى هل يشعر المواطن الذي يعيش في مكان فخم في بلدنا بالمواطن الذي يعيش في مكان عشوائي، وإلى أي مدى يشعر باضطرابه وفاقته، ويا ترى هل هو على علم بوجوده أو معيشته؟

إن الإنسان أمانة، والمتاع أمانة، وكل شيء خاص بالدنيا يعد أمانة، وتسليم الأمانة إلى صاحبها وسيلة من وسائل الرحمة، والإنفاق لا يقتصر على الأمور المادية فحسب، بل يجب أن ننفق من كل شيء أحسن الله تعالى به علينا، والعيش بمبادئ الإسلام وتبليغه إلى العالم أجمع يُعد من أجمل أشكال الإنفاق، وقد وهب الصحابة الكرام أنفسهم وأرواحهم لله تعالى، وأنفقوها في سبيل نشر

قال النبي ﷺ:
«تصدقوا فسيأتي على الناس زمان يمشي الرجل بصدقته، فلا يجد من يقبلها»
(البخاري، الفتن، ٢٤)



لا بد من الانتباه إلى الكلام والأسلوب والحركات وتعابير الوجه أثناء أداء خدمات الوقف، والحذر أشد الحذر من الأسلوب الجارح.

الإسلام وإيصال صدى الإيمان والإسلام إلى كل ركن من أركان الدنيا، والتضخم الذي هو أحد أهم أزماتنا الاقتصادية في الوقت الحالي سببه الرئيسي معنوي وليس ماديًّا؛ لأن الأمانة التي سُلِّمَت إلى الإنسان لم توضع في مكانها المحدد بل صرفت في سبيل الأهواء النفسانية واستعملت بالتبذير والإسراف، فبحرمة آهة المظلوم نزع الله البركة، وانتشر الاضطراب النفسي والمادي في المجتمعات.

وتاريخنا خاصةً شاهد كيف أن المجتمعات التي أنفقت وزكت عن أموالها وصلت إلى الراحة والطمأنينة.

- سيدي، لقد علمنا من تاريخنا أن أجدادنا كانوا يفكرون في جيرانهم وفي ضعفاء المجتمع بقدر تفكيرهم في أنفسهم وربما أكثر، أما اليوم فنرى الناس لا يفكرون في الآخرين بفعل الرأسمالية التي تهيج الشهوات وتحث على الاستهلاك، فما سبب ذلك ونتيجته في رأيكم؟

لو أدى المسلمون جميعا كل الزكاة المفروضة عليهم، فلن يبقى شخص واحد يحتاج إلى الزكاة، وفي تقديري على سبيل التخمين أن أصحاب الأراضي لو أعطوا العُشر عن محاصيلهم، وأصحاب الدواب لو دفعوا ما وجب عليهم في دوابهم من زكاة، فلن يبقى مضطرب أو جائع في مجتمعنا، والأمثلة على ذلك في التاريخ كثيرة، ولأن كل الأغنياء في عهد سيدنا عمر بن عبد العزيز أدوا ما عليهم



من زكاة، فقد عمت الرفاهية المجتمع كله، لدرجة أنهم لم يجدوا فقيرًا واحدا يستحق الزكاة.

وقد أعطى أجدادنا أيضًا أمثلة كثيرة على ذلك، فقد أنفقوا كثيرًا كأنهم تسابقوا في الإنفاق، بل إنهم وصلوا إلى درجة الإيثار التي هي أعلى من الإنفاق، والإيثار هو نزع ما يملكه الإنسان وفصله عن نفسه وتفضيل الآخر على النفس بالرغم من حاجتها، وقد قلَّ الإيثار في مجتمعنا في الوقت الحالي حتى يكاد أن ينعدم، فلم يعد من المنتظر أن يصل كل شخص إلى درجة الإيثار في الإنفاق، كما كان ذلك في المجتمعات التي ارتقت بالأنبياء والأولياء، فمشاعر الإيثار في تلك المجتمعات كانت مدهشة للغاية.

يجب علينا اليوم أن نولي عناية أكثر للإنفاق، وأن نحث الناس عليه أكثر فأكثر، كما أنه من جملة الوظائف المهمة لمجتمعنا اليوم تأسيس المؤسسات الدينية، وتنشئة الأجيال الفاضلة، التي تخدم الإسلام، وتأسيس المنازل التي يعيش فيها المساكين والمحتاجون، وتشييد المستشفيات التي يستفيد منها المجتمع.

إن المحتاجين والمساكين والفقراء الذين ينتظرون أمام باب الوقف هم كالمرضى أمام باب الطبيب، فيجب علينا أن ندخل السعادة في قلوبهم الحزينة مثلما نقضي حاجاتهم، وليس في أخلاقنا أسلوب: "اذهب اليوم، وارجع غدًا!"

- حسنا يا سيدي وما طريق أداء الزكاة، وما الذي يجب الانتباه إليه أثناء دفع الزكاة؟

يجب على المزكي أثناء دفع الزكاة أن لا يُشعر آخذَها بالاحتقار أو الإذلال، وهذا السلوك ينتج عن أن تكون



العلم والحكمة من اللقمة الحلال، والعشق والرحمة من اللقمة الحلال. إن ظهر حسد أو غش أو جهل منك فاعلم أن ذلك ناتج من اللقمة الحرام. أَزرعتَ يومًا قمحًا فحصدت شعيرًا؟

تصرفات الإنسان على طراز إسلامي راق، لقد تصرف أجدادنا في هذا الموضوع بحساسية عالية، وشكّل هذا التكامل في التصرف واحدة من قمم الآداب والأخلاق الإسلامية.

وكان في المساجد قديمًا حجر يسمى بـ"حجر الصدقة"، وكان المؤمنون من أهل الإنفاق يضعون صدقاتهم في ظرف ويتركونه داخل هذا الحجر، وكان أصحاب الحاجة يأخذون ما يكفيهم من تلك الظروف دون أن يروا مَن وضع هذه الصدقة، ولكن يجب علينا هنا ألا ننسى أن الناس في ذلك الوقت كانوا أصحاب فضيلة ويشعرون بمشاعر المسؤولية والأخلاق، كما كان أصحاب الحاجة أيضًا لا يستغلون هذه الأخلاق الطيبة التي كان عليها أصحاب الفضل، لا تزال أحجار الصدقة باقية في بعض مساجدنا إلى الآن، ولكن يا للأسف، الأجيال الحالية تمر كل يوم على تلك الأحجار ولا تعرف ما فائدتها؟، وإذا كان الله تعالى قد قال عن الصلاة في كتابه العزيز:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

(المؤمنون ١ – ٢)

فإن الزكاة أيضًا يجب أن تؤدى كذلك بنفس الخشوع، لاسيما وأن القرآن الكريم قد تناول الأخلاق التي يجب أن تُتَّبع أثناء الصدقة، يقول الله تعالى:



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾

(البقرة: ٢٦٤)

يجب أن يكون الشخص مفعمًا بالرحمة والشفقة أثناء إعطاء الصدقة، وكأنه يعطيها لنفسه، وعليه أن يتخيل نفسه مكان هذا المسكين الذي يأخذها، وعلينا أن نعلم أن حال آخذ الزكاة يتغير تبعا لحال قلب المعطي، فعندما تعطون الصدقة بإخلاص، تشعرون في قلوبكم بإخلاص من يأخذها منكم، فلو كان المعطي يحدث نفسه أثناء أداء الزكاة "سأعطيها في عجالة سريعة وأرجع"، يكون الفيض على قدر العجالة.

والأدب في تقديم الصدقة مهم للغاية، فلو أعطيت الصدقة -مستشعرا مشاعر اللطف الذي أحسن الله به إليك- وكأنك تعطيها لله شكرا له سبحانه وامتثالا لأمره، فإن الفيض المعنوي الذي سيناله العبد أكبر بكثير من الصدقة التي يقدمها بشكل عادي، فيجب علينا أن نشعر بالمِنَّة والاحترام للفقراء ونحن نؤدي الصدقة أو الزكاة، على اعتبار أنها وسيلة نؤدي بها عبادة مفروضة علينا، ولهذا يجب علينا أن نذهب بأنفسنا إلى الفقراء ونقدم لهم صدقاتنا وزكاتنا.

والحديث الشريف الذي يوضح لنا آداب الإنفاق مهم للغاية، فهو يعلِّمُنا أنه:

قال الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾

(البقرة: ٢٦٤)



«مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ -أي مهره-»[٦٧]

ولهذا يجب علينا أن ندرك أننا نقدم الصدقة إلى الله تعالى، وإن كنا نتبارى في تزيين الهدية عندما نقدمها لمن نحب، فمن باب أولى أن نستخدم الأسلوب نفسه في تقديم الصدقة، وإن كنا نعتني في شراء شيء لأنفسنا في غاية الدقة والاهتمام فعلينا أن نراعي نفس الاهتمام والدقة في إيصال الصدقات والزكاة إلى مستحقيها، فعليه يجب علينا ألا نقلل من شأن الابتسامة والكلمة الطيبة ونحن نقدم الصدقة، وهذا محمود سامي أفندي، وهو من أهل الله، إذا ما كان يركب سيارة ورأي فقيرًا يوقفها وينزل، ويذهب إليه ويتبسم في وجهه ثم يعطيه الصدقة، فيجب أن تكون الرحمة والشفقة تجاه المخلوقات هي السمة المميزة للمسلمين.

كما أورد القرآن الكريم أدبًا آخر يجب اتباعه في الصدقة والإنفاق حينما قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ...﴾ (البقرة: ٢٦٧)

قال النبي ﷺ: «باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطاها» (الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٣، ١١٠)

---

٦٧ مسلم، الزكاة، ٦٣/ ١٠١٤.



فيجب على العبد أن يؤدي هذه العبادة الاجتماعية وقلبه مفعم بالحب والعشق والخشوع.

يقول مولانا جلال الدين الرومي: "إن القلب محط أنظار الرب"، والإيمان عمل قلبي، والرحمة ثمرة من ثمار القلب، فلنرحم من في الأرض حتى يرحمنا من في السماء، اللهم فاعف عنا وارحمنا يا ذا الطول والجود والإنعام!!.

والجانب المعنوي للزكاة والإنفاق يثير الدهشة كثيرًا، فإنه تأتي الهدايا الكثيرة إلى "وقف عزيز محمود هدائي" الذي نحن فيه، ويكون بعض الناس بتلك الهدايا التي يجلبونها أكثر اطمئنانا وسرورا من الفقير الذي يأخذها، وهذا يعني أن هذه الحال تُظهر درجة حِلِّ الأموال وأنها من كسب حلال، وكأن قانون الجذب والانجذاب في المال يسرى أيضاً في الربح، فإن كان الربح نظيفًا تمامًا، فإن من يدفعه يشعر بالراحة والطمأنينة، هذا فضلا عن أن الآخذ لتلك الصدقات يدعو بالأدعية الخالصة لمن أعطاها، وهذا هو الجانب المعنوي في الموضوع.

وثمة خاصية أخرى وهي حق السائل والمحروم في أموال أصحاب الثروة، وهو الذي يحتاج ولا يسأل الناس، فيقول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾

(المعارج: ٢٤-٢٥)

"انظر إلى كسب القلب، واخدم الضعفاء، واحفظ المنكسرة قلوبهم، فهم أشخاص ليس لهم دخل من الناس، وبالرغم من هذا نجد الكثير منهم يعيشون في تلك الدنيا بقلب مطمئن وتواضع وذلة، عليك أن تبحث عن هؤلاء الناس، وتجدهم وتخدمهم".

جلال الدين الرومي



فيجب علينا ألا نهمل هؤلاء المحرومين المذكورين في الآية، وهم الأشخاص الذين يحتاجون إلى المال، ولكنهم لا يسألون الناس تأدبًا وتعففا، فيجب علينا ألا نغتر بمظهرهم ونقول في أنفسنا: إنهم غير محتاجين.

- هل هذا يعني أنه يجب فعلا القيام ببحث جاد؟

بالتأكيد، لأن التحري شرط في الزكاة المفروضة؛ لأنه إن لم يتم التحري عن الشخص الذي سُتعطى الزكاة له، وأعطينا زكاتنا لشخص لا يستحقها، يلزمنا حينئذ دفع الزكاة من جديد، فللزكاة شرطان: الأول: التحري، والآخر: التمليك، أي منح الغير ما نملكه بمعنى نقل الملكية إليه في المُعْطَى، والزكاة التي تُعطى دون تحرٍّ يجب إعادة دفعها من جديد، وهذا بالطبع إذا لم تصل إلى أصحاب الاحتياج الحقيقيين.

- حسنا سيدي، هل يسقط شرط التحري في منح الزكاة للمؤسسات الخيرية مثل الأوقاف؟ وهل تتحمل المؤسسة مسؤولية التحري تماما؟

عندما تُعطى الزكاة للمؤسسات الخيرية فإن التحري يكون على تلك المؤسسة، حيث إنه يكون لتلك المؤسسات موظفون مختصون بعملية التحري، فهم يذهبون إلى الأماكن المختلفة، ويقومون بالتحري عن الأشخاص الموثوق فيهم

قال النبي ﷺ: "المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن به، فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس".
(البخاري، الزكاة، ٥٣)



بالحي أو المنطقة، مثل أئمة المساجد أو العمدة أو غيرهم، وإن كانت هناك إمكانية فإن هؤلاء الموظفين يذهبون إلى منازل هؤلاء الأشخاص المحتاجين ويتحرون عنهم بأنفسهم، وبعد هذا التحري فإن المسؤولية -والله أعلم- تسقط عن من يدفع الزكاة بعد التحري، أي إنه لو تم عمل التحرّي، وتم دفع الزكاة لأحد الأشخاص وتبين بعد ذلك أنه غير محتاج فإن هذا لا يستوجب إعادة دفع الزكاة.

والزكاة تُعطى فقط للشخص، والتمليك شرط، ولا تُعطى الزكاة للأشخاص الحكميين مثل الجوامع أو المدارس أو مراكز تحفيظ القرآن أو المستشفيات، بل يجب في تلك الساحات الإنفاق، ولهذا فإن للإنفاق الذي يتم خارج نطاق الزكاة أهمية كبرى في الإسلام.

من ذلك على سبيل المثال الأوقاف التي كانت في الدولة العثمانية والتي كانت تزيد عن ٢٦ ألف وقف، كلها كانت أوقافا تعتمد على الإنفاق وليس على الزكاة، والقيام بالكثير من الخدمات كان يعتمد على الأوقاف، وكل الأوقاف التي تأسست في الدولة -والتي كانت لا تخطر على بال أحد، بدءًا من أنشطة وخدمات المياه والمستشفيات إلى تزويج الفتيات اليتامى وحتى خدمة الحمالين والطيور وغيرها- كانت من بين تلك الأوقاف المذكورة، واليوم فإن خيالنا لا يستطيع أن يصل إلى عمق هذا الإحساس، لقد كانت تلك

الأوصياء على الوقف هم في موقف حساس لأنهم وكلاء على الزكاة المفروضة، فصاحب الخير مع أنه قادر على أن ينفق بنفسه، قد جعل الوقف وكيلًا له آملًا أن يصل إنفاقه إلى المكان الصحيح.



الأوقاف وتلك الخدمات نتاج أرواح سامية وآفاق عالية، لقد كان يتم تأسيس المستشفى والسبيل والمدرسة إلى جوار الجامع في الدولة العثمانية؛ لتكون كل احتياجات المجتمع مرتبطة بالمسجد، وبذلك يشعر الناس دائمًا بأن الملك لله، وفي الوقت نفسه يحدث التوازن الاجتماعي بينهم.

لقد كان الفقير والغني يعيشون معًا في نفس الحي في طمأنينة كاملة، وكانت منازل الأغنياء ملاذا للفقراء، حيث كان الفقراء يستطيعون البوح بآلامهم بكل راحة هناك، وكان اليتيم يجد الرعاية والحماية هناك، بل إنه لم يكن هناك فرق كبير من الناحية الهندسية بين منازل الفقراء ومنازل الأغنياء، لقد كانت تنبض قلوب الفقراء والأغنياء معا، وكانت قلوبهم مترابطة بروابط الأخوة.

ولأن الأغنياء كانوا يشعرون بأن الفقراء وسيلة يتمكنون ببركتها من أداء الفريضة الواجبة عليهم، وأنهم سيكونون سببًا في حمايتهم من البلاء، فقد كانوا يتصرفون معهم بكل أدب ورحمة، وبأسلوب يُشعر بأنهم يشكرونهم على قبولهم في صورة إعطاء الصدقات والزكاة التي يقدمونها لهم، وعلى الجانب الآخر كان الفقراء مفعمين بمشاعر الشكر للأغنياء؛ لأنهم كانوا السبب في إيصال تلك الهدايا الإلهية إليهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا...﴾

(النساء، ١٣٥)



- سيدي لا شك أن تاريخنا مليء بالنماذج التي تدل على الإيثار والإنفاق، وحتى إن لم تكن كثيرة فإننا نقابل اليوم أمثالها مليئة بالعظة والعبرة، فهل يمكن أن تذكر لنا نماذجا أثرت فيكم كثيرًا؟

يخطر ببالي أوَّلا والدي وعمي، فقد كان أبي وعمي حينما يعطيان صدقة أو هدية لأحد الفقراء يضعانها في علبة جميلة، ويقدمانه بشكل رقيق ولبق للغاية، وبذلك يشعر آخذها بالسرور، ويشعر من أعطاها بالطمأنينة، فالأول يأخذ تلك الهدية بفرح ويقبلها أنها جاءت من الله، والثاني يفرح أيضا لأنه أدى ما عليه من أمانة.

كما أن النماذج في "وَقْفِ عزيز محمود هُدَائِي" كثيرة للغاية، أود أن أذكر بعضا منها، كنا كوقف نساعد أمًّا وابنها، كان الابن مشلولا، وقد أنهى دراسته الجامعية، وذات يوم أتت الأم إلى الوقف وشكرت الوقف، وقالت:

"إنني من اليوم لن آخذ مساعدة، بل أعطوها لمن هو أكثر احتياجا مني"

ثم قالت:

"لقد توفي ابني، وقد دفنت ابني بآخر ما أعطيتموني من أموال، وأنا الآن أعيش بمفردي، وأستطيع أن أتدبر نفسي، والمال الذي كنتم تعطونه لنا فلتأخذه أسرة محتاجة تعيش الظروف نفسها التي كنا نعيشها من قبل".

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿...وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

(الحشر، ٩)



قال النبي ﷺ: «من نفَّسَ عن أخيه كربة من كرب الدنيا نفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...»

(الترمذي، ٢٩٤٥)

كما كنا نساعد أسرة توفي زوجها وكان هولنديًّا، وذات يوم أرسلت تلك الأسرة رسالة إلى الوقف ذكرت فيها أنها تمكنت من تخليص زوجها من حقوق العباد بعد أن سددت ديونه، وأصبحت في وضع يمكنها العيش دون مساعدات، وشكرت الوقف على مجهوده وخدماته، والأمثلة المشابهة على ذلك كثيرة للغاية، وكلها نماذج تدل على الإيثار، أي على فضيلة التخلي عن الإمكانيات وتركها للغير.

- نشكركم كثيرًا على هذا الحوار الشيق.

الشكر لكم.



القسم الثالث

من ذُرى الفضيلة في حضارتنا



الخدمة وآدابها

الخدمة

قمة الرقي الروحي

لا شك أن أساس الأخلاق الإسلامية يكمن في التوجه بالإخلاص والحب إلى الله تعالى، ولا شك أيضًا أن أهم علامة لهذا التوجه نجدها في الخدمة؛ لأن الخدمة طبقًا لقول القائل: "من خدم وصل"، تعد درجة عالية ومتميزة توصل القلوب إلى الوصال الإلهي.

إنها درجة ارتقى بها الأنبياء والأولياء وكل من كان مَظْهرًا للوصل والمكافأة الإلهية، أي كل من عاشوا وكانوا نماذج حية للحديث النبوي الشريف: «**سَيِّدُ الْقَوْمِ خَادِمُهُمْ**».(٦٨)

وعليه فإن بلوغ العبد قمة الوصال الإلهي والتنعم بالنعيم الأبدي يتم من خلال الخدمات التي تفيض بها القلوب المخلصة، وعلى هذا فإن أداء خدمة صغيرة تتفق مع رضاء الله تعالى يمكن أن تكون أعلى من الكثير من نوافل العبادات.

---

٦٨ الديلمي، المسند، جـ ٢، ص ٣٢٤.

من خدم وصل.



"إن المسافة التي قطعناها في هذا الطريق لم تكن بقراءة كتب التصوف فحسب، بل بتطبيق ما فيها، وبذل الخدمة للناس بقدر الإمكان، إن كل شخص يسلك إلى الله طريقًا، ونحن سلكنا طريق الخدمة".

عبيد الله أحرار

(قدس الله سره)

ففي إحدى الغزوات كان الحر شديدًا، وكان بعض الصحابة صائمين، وبعضهم مفطرين، وقد نام الصائمون من شدة الحر والتعب، أما المفطرون فقد اجتهدوا في جلب المياه للوضوء، ونصب الخيام كي يستظل بها إخوانهم الصائمون، ولما حان وقت الإفطار قال سيدنا النبي ﷺ:

«ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ» (٦٩)

وسيدنا الرسول ﷺ الذي علّم أمته الكثير من قوانين الخدمة، كان يحمل الحجارة على ظهره المبارك أثناء بناء مسجد قباء وبناء مسجده عليه الصلاة والسلام، بالرغم من معارضة الصحابة الكرام وممانعتهم لذلك، وهذا التواضع العالي وروح الخدمة التي أظهرها سيدنا النبي ﷺ نور الوجود كان نموذجًا وقدوة لا مثيل لها لأمته، لقد أمضى حياته ﷺ من أولها إلى آخرها خدمة للحق والإنسانية والخلق جميعا.

ولهذا فإن الخدمة تعد أبرز الصفات في حياة السعداء الذين اتخذوا سيدنا النبي ﷺ قدوة لهم، وهذا يعني أن كل قلب عاشق للحق ممتليء بحب سيدنا النبي ﷺ يكون من أهل الخدمة، وأهل الخدمة أشبه بالشمس والقمر في السماء، والخدمة بهذه الكيفية وسيلة لإفادة المخدومين من ناحية، ووسيلة لرقي وسمو من يقومون بالخدمة على قدر جهودهم وإخلاصهم في تلك الخدمة، وربما كانت الفائدة

---

٦٩ مسلم، الصيام، ١٠٠-١٠١/ ١١١٩.

التي يجنونها أعظم من الفائدة التي يجنيها المخدومون أنفسهم.

وعلى هذا فإن أهل الخدمة كالنهر الذي يجري فيكون سببًا في حياة ما لا يحصى من المخلوقات من إنسان وطيور وحيوان ونبات، والبحر الذي يصب فيه هذا النهر هو بحر الوصال الإلهي الأبدي.

والذين يدركون تلك الحقيقة يعدون كل من يخدم بشكل دائم خادمًا حتى وإن كان السلطان، فالسلطان العثماني العظيم سليم الأول عندما أصبح الحرمان الشريفان تحت حكم الدولة العثمانية، وكانت الخطبة تُقرأ باسم "حاكم الحرمين الشريفين"، فاضت عيناه بالدمع، وقال رافضا لتلك الصفة ومصححا مقولة الخطيب: "بل خادم الحرمين الشريفين"،

إن دل هذا فإنه يدل على مظهر من مظاهر إدراك المعنى الحقيقي للخدمة العليا، والغاية الأساسية من العبودية.

وقد عزا عبيد الله أحرار –قدس سره– المرتبة التي وصل إليها إلى بركة الخدمة، وقال من باب التحدث بالنعمة:

"إن المسافة التي قطعناها في هذا الطريق لم تكن بقراءة كتب التصوف فحسب، بل بتطبيق ما فيها، وبذل الخدمة للناس بقدر الإمكان، إن كل شخص يسلك إلى الله طريقًا، ونحن سلكنا طريق الخدمة"



"الخدمة وسيلة لإفادة المخدومين من ناحية، ووسيلة لرقي وسمو من يقومون بالخدمة على قدر جهودهم وإخلاصهم في تلك الخدمة، وربما كانت الفائدة التي يجنونها أعظم من الفائدة التي يجنيها المخدومون أنفسهم".



"الخدمة كالنهر الذي يجري فيكون سببًا في حياة ما لا يحصى من المخلوقات من إنسان وطيور وحيوان ونبات، والبحر الذي يصب فيه هذا النهر هو بحر الوصال الإلهي الأبدي".

وهذا يعني أن العلم وحده لا يكفي، بل لا بد من ترجمة العلم إلى خدمة.

ولا تكون الخدمة مقبولة عند الحق إلا بشروط، فالخدمة المقبولة هي الخدمة التي يتم فيها التوجه إلى كل المخلوقات بقلب مفعم بالإخلاص والرحمة والحب ابتغاء مرضاة الله، أي يجب أن تتم الخدمة بإخلاص وصدق دون انتظار منفعة شخصية، وإنما تهدف إلى الربح الأخروي فحسب، وعلى هذا فإن «شق التمرة» المذكور في الحديث الشريف إنما هي وسيلة إلى النجاة الأبدية.

ويروي عبيد الله أحرار -قدس سره- الحادثة التالية التي وقعت له فيقول: ذات يوم دخلت السوق، وجاءني شخص فقال لي: "أنا جائع، فهلا أطعمتني لوجه الله"، ولم يكن مع عبيد الله أي مال سوى عمامة قديمة، فدخل إلى أحد الطباخين وقال له: "خذ عمامتي هذه وأطعم بثمنها هذا الفقير، إنها قديمة ولكنها نظيفة"، فأطعم الطباخ الرجل، وأراد أن يعيد العمامة لعبيد الله أحرار، إلا أن عبيد الله أصر على عدم أخذها، وانتظر في الحانوت حتى يشبع الرجل، بالرغم من أنه كان جائعًا أيضًا.

وبلطف من الله أصبح عبيد الله أحرار فيما بعد صاحب ثروة كبيرة، وكان يعمل في مزارعه آلاف العمال، إلا أن هذا الشخص المبارك لم ينقطع يومًا قط عن الخدمة، فكانت



مساعدته وخدمته التي يقوم بها -مع من يعرف ومن لا يعرف- في طريق الكمال المعنوي كبيرة للغاية، ويتحدث بنفسه عن هذه الحادثة التي تتعلق بالخدمة فيقول:

"كنت قد أخذت على عاتقي مهمة خدمة أربعة من المرضى في مدرسة مولانا قطب الدين في سمرقند، كانت أمراضهم قد زادت وأصبحوا يوسخون أَسِرَّتهم، فكنت أغسلها بيدي، وأبدِّل ما عليها من أغطية، فانتقل إليَّ المرض حتى أصبحت طريح الفراش مثلهم؛ لأنني كنت أخدمهم وألازمهم دائما، ولكني بالرغم من هذا لم أتوقف عن خدمتهم وتابعت تطهير أبدانهم وغسل ثيابهم".

إن التصرفات النموذجية الخاصة بفضيلة الخدمة والإنفاق في سبيل الحق التي كان يقوم بها الكبار في حياتهم، كانت نموذجًا جميلًا لنا، ولا يستطيع أي واحد أن يعطي حق ما يملكه من إمكانياته المادية وقيمتها مهما كان ثراؤه إلا بمقدار رقيه الروحي، فاتصاف المرء بالتواضع الكامل مع رقيه المعنوي ومراعاته مقاييس الزهد والتقوى يصل به إلى مرتبة علوية مثل ما وصل عبيد الله أحرار في قصته المذكورة.

وأحد المراتب الكبيرة -التي يصعب الوصول إليها في الخدمة- يمكن مشاهدتها بوضوح في القصة التي رواها معروف الكَرْخِيّ أحد أولياء الحق ﷻ:

"الأدب في الخدمة أعز من الخدمة نفسها"

عبد الله بن منازل



"القلب الممتلئ بالمحبة هو القلب الذي يعفو، أما لو كنت شكلًا جامدًا لا روح فيه فإن اسمك يموت بموت جسدك، أما إن كنت من أصحاب الكرم وأهل الخدمة فإن اسمك سيظل -حتى بعد موتك- بقدر ما بذلتَ من تضحية وخدمة"
الشيخ سعدي

ذات نزل أحد المرضى ضيفا على معروف الكَرْخِيّ، وكان المريض شاحب الوجه، ضعيف البنية، قد سقط شعر رأسه، وكانت آلامه تمزق جسده النحيل مثل خطاطيف تتناوشه من كل زاوية، فلما رآه الكَرْخِيّ ضيّفه في بيته وبسط له الفراش وجعله يرتاح، كان المريض يتأوه باستمرار من شدة المرض، ولم ينم هو ومن في المنزل حتى الصباح، وكان في حالة اضطراب وضيق، يزعج من كان في المنزل باعتراضاته المتكررة على كل شيء، وبمرور الوقت بدأ من في المنزل يضجرون من الرجل، فخرجوا من المنزل حتى لم يبق فيه غير هذا المريض ومعروف الكَرْخِيّ وزوجته فقط، كان الكَرْخِيّ لا ينام بالليل حيث يظل في خدمة الرجل، وذات يوم غلب النومُ الكَرْخِيَّ، فنام من شدة التعب بجوار الرجل، وبينما هو نائم إذ بالرجل المريض ينظر إليه ويسيء إليه بكلمات قاسية بدلا من أن يشكر لهذا الرجل الصالح جميل صنعه وخدمته له وشفقته معه: "كيف يكون هذا درويشا!! إن أمثاله يكونون معروفين ومشهورين في الظاهر، أما في الباطن فهم مراؤون، كل أفعالهم مظاهر فقط، يجملون ظاهرهم ويهملون باطنهم، يأمرون بالتقوى ولا يفعلونها، ولهذا فإن هذا الرجل ينام دون أن يفكر في حالي، الذي ينام شبعان كيف يعرف حال المسكين المريض الذي سهر طوال الليل؟"



وبالرغم من تلك الكلمات التي سمعها معروف الكَرْخِيّ إلا أنه لم يُظهر أي ضجر للمريض، بل عامله بالصبر والرحمة، إلا أن صبر زوجته فاض عن حده، وقالت لزوجها بهمس خفي:

لقد سمعتَ ما قال هذا الرجل سيىء الأدب، لا سبيل إلى أن نؤويه في البيت بعد الآن، ولن نسمح له أن يثقل علينا وأن يؤذينا أكثر، مره فليذهب إلى مكان آخر وليتدبر أمره، فالإحسان إنما يكون إلى من يقدره، لا إلى من يكفره، وتحت رؤوس اللئام لا توضع وسادة من ريش بل تضرب بالعصي والحجارة، سمع معروف الكَرْخِيّ من زوجته تلك الكلمات بهدوء، وقال لها متبسما:

"يا زوجي الحنون، لِم كل هذا الغضب مما قاله الرجل، إن كان قد قال ما قال فإنه إنما قاله لي، وإن كان قد أساء فالإساءة إليَّ، إن ما قاله -وإن كان لا يرضيكِ- فهو يرضيني، فكما ترين إنه في حالة مضطربة دائمة، ولا يقدر على النوم ولو يسيرا، ولا بد أن تعلمي أن المعرفة الحقيقية والمرحمة والشفقة لا تُنال إلا بالصبر على جفاء أمثال هؤلاء."

وينصح السعديُّ رواي هذه القصة بهذه النصائح الغالية:

"عندما ترى فضيلة الخدمة في أوقات الصحة والقوة، فعليك أن تحمل الحِمل عن الضعفاء كشكر منك عن هذه

"عندما ترى فضيلة الخدمة في أوقات الصحة والقوة، فعليك أن تحمل الحِمل عن الضعفاء كشكر منك عن هذه الفضيلة".

الشيخ سعدي



الفضيلة، فالقلب الممتلئ بالمحبة هو القلب الذي يعفو، أما لو كنت شكلا جامدا لا روح فيه فإن اسمك يموت بموت جسدك، أما إن كنت من أصحاب الكرم وأهل الخدمة فإن اسمك سيظل –حتى بعد موتك– بقدر ما بذلتَ من تضحية وخدمة، ألا ترى أن بالكرخ الكثير من الأضرحة، ولكن هناك ضريحاً واحداً فقط هو المعروف والمقصود للزوار، إنه ضريح معروف الكرخي".

ويا لروعة ما قاله أهل الله:

"التصوف أن تكون حبيبًا، ولا تكون عبئًا على الغير، أي أن تحمل الأعباء عن كل شخص، ولا تُحَمِّل أحداً عبـأك.

وإن أبواب الرحمة تفتح على الأمة بما يضحي به أهل التصوف من خدمات، فقيمة أية خدمة مرتبطة بمقدار التضحية المبذولة من أجل أداء تلك الخدمة، ومرتبطة بالحالة الوحدانية التي يكون عليها الخادم حال بذله للخدمة، فالخدمة المقبولة هي الخدمة التي تُؤدى ابتغاء مرضاة الله، والتي تؤدى بأسلوب لا يحقر أو يصغر من تُقَدَّمُ له الخدمة، وكما قال عبد الله بن مُنَازِل –قدس سره– "الأدب في الخدمة أعز من الخدمة نفسها".

ويقول مولانا جلال الدين استنادًا إلى هذه الحقيقة:

"اعمل حبا لله، واخدم حبا لله، ثم ماذا عليك إن قبل الناس عملك أو رفضوه؟ ألا يكفيك أن يكون الله تعالى

القلوب المليئة بالروحانية يصدر عنها مظاهر الأخلاق الحسنة، والأعمال الصالحة، والنضج المعنوي.

مشتريًا، ويجعلك تربح الكثير والكثير في هذه الدنيا الفانية؟ ما الذي سيعطيه الناس لك مقارنة بما سيعطيه الله لك؟ يجب أن يكون توجه عينيك وفؤادك إلى ما سيأتيك من الله، وليس إلى الشكر الذي سيصيبك من الناس".

إن هذا هو السمو والجمال الذي يعمل التصوف على إيصال القلوب إليه، ولهذا رأينا حضرة أمير كُلالْ يوصي تلميذه بهاء الدين نقشبند -قدس سره- بالوصايا التالية حتى يتخلى عن ميوله النفسية:

"انظر إلى كسب القلب، واخدم الضعفاء، واحفظ المنكسرة قلوبهم، فهم أشخاص ليس لهم دخل من الناس، وبالرغم من هذا نجد الكثير منهم يعيشون في تلك الدنيا بقلب مطمئن وتواضع وذلة، عليك أن تبحث عن هؤلاء الناس، وتجدهم وتخدمهم".

لذا وجدنا شاه نقشبند -قدس سره- يعيش السنوات الأولى من انتسابه لحياة التصوف في خدمة المساكين والمرضى، وحتى الحيوانات الجريحة، ويجتهد في إماطة الأذى عن طرق الناس، وذلك من أجل الوصول إلى الخشوع والتواضع الذي يعارض الكبر والغرور.

يقول شاه نقشبند:

"لقد عملت فترة طويلة في الطريق الذي أمرني به أستاذي، وخدمت كل أنواع الخدمة، كنت لا أفضل نفسي



"انظر إلى كسب القلب، واخدم الضعفاء، واحفظ المنكسرة قلوبهم، فهم أشخاص ليس لهم دخل من الناس، وبالرغم من هذا نجد الكثير منهم يعيشون في تلك الدنيا بقلب مطمئن وتواضع وذلة، عليك أن تبحث عن هؤلاء الناس، وتجدهم وتخدمهم".



على أي مخلوق، فوصلت إلى حد إذا مررت بالطريق ووجدت أحدا من مخلوقات الله ﷻ يمر كنت أنتظره حتى يمر ثم أمرُّ بعده، واستمرت خدمتي على هذا النمط سبع سنوات، وفي مقابل ذلك بدأ يتجلى لي حال كنت أشعر فيه وكأنني أسمع الأصوات الحزينة التي تدعو وتتضرع بألم إلى الحق".

والمثال السابق يوضح لنا مظهرًا حيا على التضحية في الخدمة من أجل الخالق، أي أن تخدم المخلوقات وأنت ترقب محبة الله تعالى.

يقول الله تعالى عن المؤمنين الصالحين:

﴿...**يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**...﴾ (الأنبياء: ٩٠؛ المؤمنون: ٦١)

وأكبر مجال للمسارعة في الخيرات هو مؤسسات الأوقاف، فأهل الوقف هم الأنبياء الذين يأتون على رأس الإنسانية، ثم الأولياء الصالحون الذين تربوا على نهج الأنبياء، ثم الكُمَّل من المؤمنين، لقد حملوا جميعًا الوجد الإيماني الموجود في قلوبهم إلى أركان الدنيا الأربعة، وكتبوا أجمل صفحات التاريخ بماء من ذهب.

من المؤكد أن الخدمات مختلفة متنوعة، وكل الجهود التي تتم من أجل إرضاء الله تعالى تدخل في دائرة الخدمة أيضًا، والمُهِم هو تحقيق تلك الخدمة من الناحية المادية ومن الناحية المعنوية، أي إن تحقيقها إنما يتم بقدر استعداد

قال الله ﷻ:

﴿...يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ...﴾

(الأنبياء: ٩٠)



القلوب وجاهزيتها، وذلك لأن الله تعالى قدّر كل خدمة يقوم الإنسان بها، ومنحه الإمكانيات المادية والمعنوية اللازمة لتحقيق تلك الخدمة، فأصبح كل مخلوق مهيئاً للخدمة التي سيقوم بها.

والذي يدعو للعظة والعبرة هنا أنه كان في حجة الوداع ما يقرب من ١٢٠ ألف صحابي، منهم قرابة ١٠٠ ألف انتشروا في أرجاء الدنيا، وأوقفوا أنفسهم على خدمة دين الله ابتغاء مرضاة الله ﷻ، وقضوا نحبهم على ذلك، وقد رأينا قبور أبناء سادتنا عثمان والعباس ﭫ في سمرقند، كما أن في اسطنبول العديد من قبور الصحابة ﭫ، أما من بقي في مكة والمدينة فكانوا في المركز يؤسسون الدولة، أي إن لكل منهم خدمة معينة في مكان معين.

والصحابي الجليل سيدنا خالد بن زيد أبو أيوب الأنصاري ﭬ حضر إلى اسطنبول مرتين مع أن عمره كان قد جاوز الثمانين، واستشهد هناك، فكانت دعوته الناس إلى الإسلام وحرصه على أن يصلوا بذلك إلى سعادة الدارين، وجهاده في سبيل نشر هذا الدين العظيم، إنما يعد كل هذا من أكبر وأجمل النماذج على الخدمة في الإسلام، لقد ساقهم حب الخدمة والتنافس على النجاة في الآخرة إلى أنحاء الدنيا الأربعة بأسرها.

*

"الخدمة المقبولة هي الخدمة التي يتم فيها التوجه إلى كل المخلوقات بقلب مفعم بالإخلاص والرحمة والحب ابتغاء مرضاة الله".



"الذين يخدمون بالمَنِّ كثيرون، أما الذين يعرفون نعمة الخدمة قليلون، وأنتم لو أدركتم فرصة خدمتكم، وبذلتم خدمتكم شاكرين لمن تخدمون، فإنكم ستكونون سعداء، وتقِلُّ الشكوى منكم"
على الرّامِتَينِي

ومن الأمثلة العظيمة على روح الخدمة أيضًا سيدنا وهب بن كبشة[٧٠] رضي الله عنه، ويوجد قبر هذا الصحابي الجليل في الصين[٧١] وقد كلَّفه سيدنا النبي ﷺ بأن يذهب لدعوة الناس في الصين، وكانت الصين تبعد عن جزيرة العرب بحسابات ذلك العصر وإمكانياته عامًا كاملًا، وبعد أن أقام هذا الصحابي هناك فترة طويلة يشتغل بالتبليغ والدعوة، أراد أن يعود إلى المدينة ليرى سيدنا النبي ﷺ الذي اشتاق لرؤيته كثيرًا، فخرج قاصدًا المدينة حتى وصلها بعد عام، ولكنه

٧٠ وهب بن كبشة: هو الذى بعثه رسول الله ﷺ إلى الصين للقيام بالدعوة إلى الإسلام، وله ضريح في مقاطعة "قانطونKanton" في الصين .
انظر: Darby de Thiersant Le Mahomètisme en Chine Paris ١٨٧٨ .s .٣٦؛ الاسلام في الصين، حسن تحسين، ص :٢٧-٢٨ وكتب في هذا الموضوع الاستاذ الدكتور إحسان ثريا صيرما، وهو باحث أكاديمي، مقالا طويلا باللغة التركية بعنوان "تاريخ الإسلام في الصين"، راجع العنوان الإلكترونى التالى: http : / /www .ihsansureyyasirma .com

٧١ في الصين في بلدة "جوانجيزاهو- Guangzhou" مقام يقال إنه مقام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ومن الحقائق التاريخية المعروفة أنه في حال وجود أي قبر لصحابي أو ولي في مكان ما، فإن هذا يكون له تأثير في صيانة وحماية المشاعر الدينية لأهالي تلك المنطقة، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك في مدن وسط آسيا مثل بخارى وطشقند وسمرقند وتركستان.



-وللأسف- لم يتمكن من رؤية النبي ﷺ بسبب وفاته، فزاد ذلك من شوقه وحسرته، فعاد إلى الصين وهو يدرك أهمية الخدمة التي أمره بها سيدنا الرسول ﷺ، وتوفي وهب وهو يؤدي تلك الخدمة العظيمة.

إن كل هذه اللوحات تعبر عن الخدمة بتضحية لا يمكن الوصول إليها إلا بوازع إيماني كبير، لقد كانت روح الخدمة وحبها عندهم بمثابة النجم اللامع الذي أضاء لنا طرق النجاة الأبدية.

ولا شك أبدًا في أن الصحابة الكرام ﷺ نالوا تلك المرتبة من خلال التربية المميزة التي رباها عليهم سيدنا النبي ﷺ، وأنهم راعوا بعناية وحساسية عالية أيضًا تسعة عناصر مهمة:

١- **خدمة الله تعالى**: وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه عن طيب نفس، وبذل الجهد في سبيل إعلاء كلمة الله.

٢- **خدمة النبي ﷺ**: والتي تتمثل في الشعور بمحبة سيدنا النبي ﷺ النابعة من أعماق القلب، والعيش على سُنَّتِه، والأمر بها.

٣- **الخدمة لكبار رجال الإسلام**: وهي إظهار الحب والإخلاص والوفاء لهم.

٤- **خدمة الوالدين**: وهي كسب رضاهم دون قول أفٍّ لهما.

"خدمتُ النَّبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لِمَ صنعت؟ ولا: ألا صنعت؟".

أنس رضي الله عنه



٥- **خدمة الأبناء**: وهي القيام بتربيتهم؛ ليكونوا مؤمنين صالحين.

٦- **خدمة الأقارب والأرحام**: وهي صلة الرحم والأقارب، والإحسان إليهم.

٧- **خدمة المؤمنين**: وهي تقاسم آلامهم وأفراحهم.

٨- **خدمة كل الناس**: وهي العمل على نفعهم باليد واللسان.

٩- **خدمة المخلوقات**: وهي جعل كل المخلوقات تحت جناح الرحمة والشفقة.

وكثيرا ما كان يردد لنا المرحوم سيدنا موسى أفندي – قدس سره– تلك العبارات نقلاً عن علي الرّامِتَيني بخصوص أداء الخدمة:

"الذين يخدمون بالمَنِّ كثيرون، أما الذين يعرفون نعمة الخدمة قليلون، وأنتم لو أدركتم فرصة خدمتكم، وبذلتم خدمتم شاكرين لمن تخدمون، فإنكم ستكونون سعداء، وتقِلُّ الشكوى منكم".

وسواء كنا منتبهين أو غير منتبهين، فإنه يجب أن نعلم أن جميعنا يبحث عن سلامة الروح، أي الوصول إلى الطمأنينة والسكون، وهذا يعتبر خزينة داخلية يمكن نيلها بالخدمات التي تؤدى بمشاعر العبادة إلى الله تعالى، ولهذا فإن المؤمن الذي تكون عنده روح الخدمة ومشاعرها يعرف كيف يجد وسيلة الخدمة وفرصها في كل الأحوال، ويكون

الخدمة يقتضيها الإيمان.



حرصه على التضحية والخدمة من أجل الله حينئذ أكبر من الحرص والعزم الذي يسعى وراء الشهوات والمنافع الدنيوية.

إن رغبة الخدمة النابعة من الحب، والتي مكانها في القلب، تجعل العبد رحالًا في العالم اللامتناهي، وبذلك يتجرد القلب من ظلمة القسوة، ويصبح مفعمًا بشفقة الحب، وبالأخلاق والعلم المصاحبين لتلك الروح يمكنه الوصول إلى أبدية مسكرة، ولهذا فإن الخدمات الحقيقية الصادقة تعد أثرًا للنضوج القلبي، وأمثال هذه القلوب يتجلى فيها نظر الرحمن.

ويا له من خسران كبير إذا ما انقضى العمر وهو بعيد عن تلك المزايا القلبية، ويا لسعادة من يملؤون قلوبهم بحب الخدمة بمعناها الحقيقي.

اللهم املأ قلوبنا بالخشوع ومحبة اكتساب رضاك! واجعل لنا نصيبًا من الحمية الدينية وحب الخدمة التي كانت لدى الصحابة الكرام والأولياء، وأبطالنا الذين دافعوا عن ديننا ووطننا! آمين!!

كما يستحيل أن تنفصل الحرارة عن الشمس، كذلك يستحيل ألا يشعر أصحاب القلوب الرقيقة السامية بالناس المحتاجين.



الإسلام، إحياء الإنسان:

إن الغاية الأساسية لمنظومة أي فكر تعمل على إكساب الإنسان الرقي ليحصل على المرتبة العليا في العلاقات الإنسانية، إلا أن كل الأنظمة البشرية فشلت في الوصول إلى النقطة التي وصل إليها الإسلام في تحقيق تلك الغاية، والسبب في ذلك هو اعتماد تلك الأنظمة البشرية على العقل المحدود الإمكانيات، أما الإسلام فلأنه نتاج الإرادة الإلهية، فإنه شكَّل نظامًا متناغمًا من أجل الإنسان وكل الكائنات، وبذلك قدم الإسلام تكاملًا يفوق الخيال، ولا يوجد شيء يكون طبيعيا أكثر من هذا، لأن تعرف الإنسان -الموصوف بعدم القدرة- على نفسه وعلى الموجودات الأخرى، وتنظيمه للعلاقات البشرية، لا يمثل شيئًا قط أمام قوة الله التي لا نهاية لها، ولهذا فإن كل الخدمات التي قدمتها الأنظمة الفلسفية التي وُضِعَت بدعوى تنظيم العلاقات الإنسانية، بل وحتى الأديان البشرية، سارت في الاتجاه المعاكس، وقدمت الخدمة الخاطئة للبشر، وبدل أن تجلب السعادة للبشرية جلبت المذلة لها.

إن عداوة القسوة والتزام الرحمة والرأفة نتيجة طبيعية للأصالة الروحية.

والكثير من الأنظمة الموضوعة بدءًا من نظرية فرويد الذي ساق الإنسان إلى السفاهة الأخلاقية، وحتى ماركس الذي زعم أن نظريته ستعمل على إنقاذ البشرية



من الناحية الاقتصادية، كانت نتيجتها الأولية أنها تحققت على عكس ما زعموا، أما نتائجها النهائية فكانت تتمثل في جلب المشكلات الاجتماعية للبشرية، بل وكانت سببًا في سفالتها.

وثمة حقيقة تاريخية تتمثل في أن سيدنا النبي ﷺ احتضن الإنسانية كلها -بينما كانت تغرق في المظالم والإرهاب- برحمته وشفقته التي كانت أهم ثمرة للإيمان، وقد كان سيدنا النبي ﷺ بتلك المنظومة من التصرفات الممتلئة بالمحبة والرحمة، قد شكّل قمة أبدية في كونه نموذجًا للبشرية كلها، فقبل البعثة النبوية كان البشر مجرد أناس يظلمون ويعذبون ويهجمون على أبناء جنسهم منذ نعومة أظفارهم، إلا أن سيدنا النبي ﷺ أنقذ من كانوا حوله من تلك الأفعال الذميمة، ورباهم على أخلاق الإسلام، فكان كل واحد منهم كالنجم اللامع في السماء، إنهم الصحابة الكرام ﷺ الذين تعلموا وتربوا في مدرسة سيدنا النبي ﷺ، في مجتمع الصحابة الكرام ﷺ الكثير من الحوادث التي لا حصر لها، والتي تعكس مدى ما وصلوا إليه من مستوى أخلاقي، باتخاذهم سيدنا النبي ﷺ فخر الكائنات قدوةً لهم، ومن هؤلاء الصحابة -الذين كانوا بتصرفاتهم يدعون إلى الاستقامة- سيدنا مصعب بن عمير رضي الله عنه، والحادثة التالية توضح لنا مدى حكمته ودعوته إلى الاستقامة:

المؤمن الحقيقي يُحيي كل مكان يدخله، ويساهم في غنى الروحانية هناك.



إن أسعد بن زرارة خرج بمصعب إلى بني ظفر وعبد الأشهل في المدينة، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدَي قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمقدم مصعب بن عمير ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام قال سعد لأُسيد:

لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وأنههما أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أسعد بن زُرَارَة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدمًا، فأخذ أُسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه، وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف عليهما متشتمًا، فقال: ما جاء بكما، تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته نكف عنك ما تكره؟

قال أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام -قبل أن يتكلم- في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له:

قال مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: "أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته نكف عنك ما تكره؟".



تغتسل فتطهر وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي فقام فاغتسل وطهر ثوبه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

فغضب سعد بن معاذ مما حدث، فذهب بنفسه إلى مصعب، فجاء مغضبًا مشهرًا سيفه، ولكن مصعبًا قابله بوجه مبتسم بشوش، فهدأ من روعه، وفعل معه مثلما فعل مع أسيد، ولما استمع سعد بن معاذ إلى بعض الحقائق الإلهية من مصعب بن عمير انجذب قلبه إلى هذا النور الإلهي، وارتشف من نهر الإيمان.

ولا شك أن هذا الخبر يوضح لنا مدى ما وصل إليه الصحابة الكرام من نضج كبير بفضل تربيتهم وتعلمهم على يد سيدنا الرسول ﷺ، لقد كتب هؤلاء الأخيار بفضل بركة الإسلام وإحيائه للإنسان، بأحرف من ذهب في صفحات تاريخ البشرية دستور: "ليحي فيك مَن جاء لقتلك".

وبهذا المناخ عفا سيدنا النبي ﷺ عن كثير من المجرمين، الذين كانوا يستحقون القتل، بل وعفا أيضًا عن وحشي الذي قتل عمه، وعامل هؤلاء جميعًا بالحلم، فكانت الرحمة التي في قلبه دائمًا ما تسبق غضبه، وانطفأت نيران الغفلة والضلالة التي أحرقت البشرية في نهر حقيقته، وأصبحت نيران الغفلة والضلالة بمثابة البستان الذي تنمو فيه الأزهار

"ليحيا فيك مَن جاء لقتلك"



والورود النادرة، وأنقذ الناس في العهد الذي عاش فيه من الجهالة والوحشية التي كان لا مجال معها لإقامة الضعيف إلى جوار القوي، حتى أصبح هذا الكلام مثلا: "من كان بلا أنياب أكله الناس".

لقد صنع سيدنا الرسول ﷺ من هذه الوحشية وهذه الأنانية حبًّا للغير وإيثارًا للآخر على النفس، لدرجة أن الرجل كان يؤثر أخاه على نفسه بِشربة الماء وهو في الأنفاس الأخيرة بعد المعركة من أجل أخيه المجروح الذي يحتاج إلى تلك الشربة.

لقد كان سيدنا الرسول ﷺ -وهو الذي أوصل الإنسانية إلى أسمى قمة معنوية يمكن أن تبلغها- يأتي في مقدمة القافلة الإسلامية التي أسسها، وقد اجتمع في مدينة لاهاي الهولندية في منتصف القرن الماضي مجمع رجال العلم والفكر لاختيار أعظم مائة شخصية في التاريخ، ومع أن تلك الهيئة كلها كانت من النصارى إلا أنهم اضطروا لاختيار سيدنا الرسول ﷺ أفضل شخصية على الإطلاق، من حيث المقاييس الأخلاقية.

وثمة خاصية أخرى تلفت الانتباه ألا وهي أن ٩٠٪ من الصحابة الكرام اختاروا الإسلام ودخلوا فيه من شدة إعجابهم وتأثرهم بشخصية وسمات وأخلاق النبي ﷺ الذي وصفه ربه بأنه الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

"من كان بلا أنياب أكله الناس"



حتى الذين كانوا من أشد الناس عداء له، لم يصفوه قط بأنه "ظالم" أو "كذاب"، وعندما كانوا يتحدثون بنية تشويه صورته، كانوا لا يجدون ما يقولونه سوى مدحه.



والذين يقفون قلوبهم على الإسلام ويحرصون على خدمته، يجب أن يعلموا جيدًا أن تلك الدعوة إنما هي إحياء للإنسان قبل أي شيء، ويجب أن يتقربوا لكل إنسان باعتبار معدنه الأصلي -على أنه أشرف المخلوقات - لأن نموذجية الإسلام حكمت بأن الإنسان خُلِقَ في أحسن تقويم، وهذا يعني إحياء الإنسان وتطهيره من كافة التأثيرات العارضة، التي يمكن أن تخيم على الكمال الموجود في فطرته، ولا يمكن الوصول إلى تلك المرتبة إلا بإحياء الجماليات الظاهرة بمقاييس القلب.

ولهذا فإن الإسلام ومنذ لحظة ظهوره اتخذ من تربية الإنسان وإصلاحه الأخلاقي أساسًا له، ونجح المنتسبون له بذلك في جعل أنفسهم شخصيات تفخر بها الإنسانية كلها، بعد أن كانوا يعيشون حياتهم كلها سعيًا خلف الشهوات النفسية والحيوانية، ولكنهم استطاعوا أن ينضجوا بالمقاييس الملائكية.

ومن ذلك على سبيل المثال سيدنا عمر بن الخطاب الذي كان جبارا في الجاهلية، وجدناه بعد الإسلام رقيق

قال النبي ﷺ:
«إني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»
(البخاري، الجنائز، ٧١)



القلب يخشى حتى من أن يؤذي نملة صغيرة، فأصبح سيدنا عمر ﷺ رجل قلب عالي الهمة، وبهذا الاعتبار فإن الإسلام يمثل روحًا تقترب بحب من الإنسان.

إن الإحساس بالمسؤولية -القائمة على أسس الرحمة التي غرسها الإسلام في القلوب- تصل بالإنسان إلى الكمال في تصرفاته، وإلى سعادة الدارين في النهاية، وذلك لأن الإسلام هو إحياء الإنسان، وكل المشاعر والأحاسيس التي جلبها الإسلام هي في الحقيقة أصدق المشاعر.

وقد أوضح يونس أَمْرَه تلك المشاعر في الأبيات التالية:

تعالوا نتعارف

ولنجعل الأمور يسيرة

ولنتداول الحب بيننا

فالدنيا فانية لا تبقى لأحد!

لقد توحدت تلك المشاعر مع أجدادنا الأمجاد إلى درجة قال أحد الأسرى من قادة العدو بعد انتهاء القتال:

"ما أظلمك أيتهاالرحمة؟ تُحبّبي إليّ حتى أعدائي!"

وفي عصرنا هذا يدّعي بعض الغافلين -الذين لا خلاق لهم من الإيمان- أن تكامل الرحمة الموجودة في الإسلام يتساوى مع مفهوم الإرهاب، وهؤلاء بزعمهم هذا كالذين يسعون لتغطية الشمس بقشة، ولكي يجعلوا قوتهم مؤثرة،

"تعالوا نتعارف
ولنجعل الأمور
يسيرة
ولنتداول الحب
بيننا
فالدنيا فانية لا
تبقى لأحد!"

يونس أمره



ويتسلطوا على أتباعهم بالرهبة والخوف، فإنهم يقومون في الغالب باختيار الناس الأبرياء كضحايا لهم، أما الإسلام فهو النقيض تمامًا، فقد أمر باحتضان العباد جميعا -حتى المجرمين- بالعفو والرحمة، وأمر بإصلاحهم، فما دام الحال هكذا؛ هل يوجد الآن ولو مجرد احتمال بأن يكون الإسلام موجها للتخويف أو إرهاب المعصومين الأبرياء؟

إن الإسلام (ومنذ لحظة وجوده) يحتضن مخاطبه سواء كان كافرًا أو مؤمنًا بالرحمة والعدالة، ويمنع بشدة كل أنواع التخريب للمال والنفس، أما الدولة التي أسسها الإسلام فكانت مُكَلَّفَة بحماية المال والنفس والعِرْض، والأسرة، وتأمين التوازن والتناغم الاجتماعي، ولأن هذا الأسلوب ليس له أية علاقة بالإرهاب لا من قريب ولا من بعيد، فإنه لا يُنكر أيضًا أنه أزال كل التصرفات التي يمكن أن تُعدَّ أساسا لذلك.

يروي سيدنا مسلم بن الحارث ﷺ فيقول:

"بعثنا رسول الله ﷺ، في سرية فلما دنونا من الحصن سمعنا ضوضاء أهله فاستحثثت فرسي فأتيتهم، فقلت: قولوا لا إله إلا الله تحترزوا، فقالوا: لا إله إلا الله، فقال أصحابنا: حرمتنا الغنيمة بعد أن بردت في أيدينا، فلما قدمنا على رسول الله، ﷺ، أخبر بذلك فحسن لي ما صنعت، وقال لي:

«إِنَّ لَكَ مِنَ الْأَجْرِ بِعَدَدِ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ كَذَا وَكَذَا»

قال الله ﷻ:
﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾
(الأعراف، ١٩٩)



ثم قال:

«أَكْتُبُ لَكَ كِتَابًا أُوصِي بِكَ أَئِمَّةَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدِي»،

قال: فكتب لي كتابًا وختمه". [٧٢]

وهذه حادثة أخرى مليئة بالعظات والعبر:

بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يده فقال:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ» مرتين. [٧٣]

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال:

«يَا عَلِيُّ، اخْرُجْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، فَانْظُرْ فِي أَمْرِهِمْ، وَاجْعَلْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيْكَ»

فخرج عليٌّ حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال، حتى

قال النبي ﷺ:

"والله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا، خير لك من أن يكون لك حمر النعم»

(البخاري، الجهاد، ١٤٣)

---

٧٢ ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ، ٤١٩ – ٤٢٠

٧٣ صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، ٤٠٨٤ .



إنه ليدي لهم ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه، بقيت معه بقية من المال، فقال لهم علي رضوان الله عليه حين فرغ منهم:

هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم؟

قالوا: لا،

قال: فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله ﷺ، مما يعلم ولا تعلمون، ففعل، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

فقال: «**أَصَبْتَ وَأَحْسَنْتَ**»

ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائما شاهرا يديه، حتى إنه ليرى مما تحت منكبيه، يقول:

«**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ**» ثلاث مرات. [٧٤]

لقد اتخذ العثمانيون من هذه الأخلاق السامية شعارًا لهم، فكانوا لا يجبرون أحدًا من غير المسلمين في البلاد التي كانوا يحكمونها على الدخول في الإسلام، ولم يظهروا قط أي قمع مثلما فعلت الثقافية الإمبريالية، بل كانوا يدركون أن غير المسلمين الذين يعيشون في بلدانهم إنما هم أمانة

اذا كان الله بعظمتة وجلاله غفور رحيم فهل لا نتسم أيها الاخوة بالتسامح. اغفروا وارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء

٧٤ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٦، ص ٦٠٠ .



استودعهم الله إياها، وببركة هذا التصرف ورقي هذه الأخلاق السامية جرى على ألسن الناس في بولاندا هذا المثل:

"طالما أن خيول العثمانيين لم تشرب من نهر فيستيل[Vistül]، فإن تلك البلدة لن تنال حريتها ولا استقلالها".

ولهذا أصبحت الدولة العثمانية بهذا الاتجاه دولة تفضلها الأمم الأخرى، والمقولة التالية التي قالها الأمير البيزنطي جراندوك نوتاراس أثناء المباحثات التي تمت في آيا صوفيا بخصوص طلب المساعدات من البابا، عندما كان جنود الفاتح يحاولون اقتحام الأسوار، من المقولات المشهورة أيضا، لقد قال ذلك الأمير البيزنطي:

"إنني أفضل أن أرى العمامة العثمانية في اسطنبول على أن أرى قبعة الكاردينال".

ولهذا فعلينا اليوم أن نقتبس من فيض وتجليات الرحمة الربانية، وأن نعيش كمال الرحمة بكل المخلوقات، فهذا من أكبر المؤثرات التي تقربنا من الحق تبارك وتعالى.

إن المثال التالي يوضح لنا إلى أي مدى تتسع آفاق قلب المؤمن:

كان أبو يزيد البسطامي قد خرج يومًا في رحلة، وبينما هو في طريقه جلس تحت ظل شجرة ليتناول طعامه، فلما فرغ من الطعام حمل أغراضه وتابع سيره، وبينما كان يسير

أهل الخدمة دقيقون في كل الأمور وكأنهم يسيرون في حقل من الألغام، ويراعون اللطافة في معاملاتهم.

في طريقه رأى نملة على كيس طعامه، فحزن وقال متألما: لقد أخرجت تلك النملة من وطنها، وعاد من فوره إلى المكان الذي كان يجلس فيه ليترك النملة هناك،

لقد فعل البسطامي ذلك؛ لأنه كان يدرك معنى الشفقة بمخلوقات الله، وأن الشفقة بالمخلوق تنبع من محبة الخالق، فانظر كيف اهتم البسطامي برعاية الحقوق حتى حق نملة.

إن الإسلام الذي حض على الرِقَّةٍ والرحمةٍ حتى بالدواب، يعرف أن الإنسان مخلوق عزيز مكرم، ولهذا فإنه، ومن أجل الحفاظ على تلك القيمة للإنسان، يريد منا أن نرتقي نحو المعالي، ولا نهبط إلى القاع، فعندما ننتبه إلى حقيقة ﴿**أَحْسَنِ تَقْوِيم**﴾ فإننا سنصل بذلك إلى المعنى الحقيقي المقصود الذي يريده الإسلام للإنسان، ويمكن مشاهدة تلك الروح، وهذا المقياس في كل القواعد الإسلامية المتعلقة بالإنسان، ولا شك أن نهي الإنسان عن الأهواء النفسية التي تجره إلى التدني، وأَمْرَه بالارتقاء صوب العلوية التي تغبطه الملائكة عليها، هو أحد الأهداف الأساسية للإسلام.

ولا شك أن سبب كون العالم اليوم مسرحًا للكثير من المظالم والإرهاب، إنما هو ميل الناس للأهواء النفسية التي تعمل على تدنيهم، وابتعادهم عن الخصال التي ترقى



"لا تؤذِ حتى النملة التي تجمع الحَبَّ، فلها روح، والروح حلوة عزيزة. (لها روح مثل روحك)"

الشيخ سعدي



بالإنسان مثل الرحمة والحب الإلهي، أي إن هذا الظلم والإرهاب نتيجة طبيعية للحرمان من الجمال والكمال الذي لا مثيل له إلا في الإسلام.

ولا شك أيضًا أن فهم الإسلام جيدا، والإصغاء إليه بالأذن والقلب معًا، وإدراك أن الدنيا بكل زخارفها وحليتها دنيا فانية، سيعمل على إنقاذ الإنسانية التي هوت إلى القاع من جديد، أو بمعنى آخر، تعلُّم محتوى الإسلام والاحتياجات الأصلية للبشرية أولًا، ثم تنظيم الحياة بعدها طبقًا لهذا؛ لأن نفحات الإسلام المباركة البراقة هي أكثر المصادر التي تحتاج إليها الإنسانية إلى يوم القيامة بركة وفيضًا، وقد قال يونس أمره بسبب عشقه الحقيقي:

"سامح المخلوقات لأجل الخالق".

أليس هذا البيان حبل النجاة للناس -من الذين ابتعدوا عن الحقيقة- في أي مكان من الدنيا، فيجب معاملتهم بالرحمة واحتضانهم بها، لكي يفوزوا في الدارين.

وهذا يعني أن تبليغ الإسلام في الوقت الحالي مسؤولية تقع على الفرد والمجتمع، لاسيما ونحن في هذا العصر قد بلغت لدينا التقنيات ذروتها، وأصبح من الممكن تبليغ الإسلام في كل وقت، ولإدراك هذا المفهوم، علينا أن نتعرف على تلك الحادثة التالية التي وقعت في العصر الحالي:

"سامح المخلوقات لأجل الخالق"

يونس أمره



أعلن أحد الأطباء في أمريكا إسلامه، وقد أُعد حفل في المسجد من أجل هذا، اجتمع في المسجد كل المسلمين من قريب ومن بعيد من أجل محاورة هذا الطبيب -الذي دخل الإسلام حديثًا- لمعرفة السبب في اختياره الدين الإسلامي، وقبل أن يبدأ الطبيب كلامه وجه سؤالًا للحاضرين قائلًا:

لقد توفي والدي ووالدتي وهما على النصرانية، فهل لكم أن تعلموني كيف سيكون حالهم في الآخرة؟

اضطربت الجماعة من هذا السؤال المفاجئ، وأدركوا أنهم إن أجابوه على سؤاله بأنهما في النار قد يفسدون بهجة اجتماعهم، فأجابوه بقولهم:

إن كان الإسلام لم يصل إليهم فهم معذورون، وعليه فإنهم ينتظرون في البرزخ، ويوم الحشر يتحدد مصيرهم بعد الميزان.

فقال لهم الطبيب: أيها المسلمون لقد كان أبي وأمي أطيب مني وأفضل خلقا وأكثر معرفة، ولكنهما كانا يدينان بدين النصرانية بمقتضيات ظروف المجتمع الذي عاشا فيه، وماتا على هذه الحال، ماتا وهما يعتقدان أن عيسى عليه السلام شريك في الألوهية مع الله تعالى، ولم يكن لديهما خبر قط عن الإسلام، لم يعرفا عن الإسلام إلا اسمه فقط.

وأما أنا فقد أتيتم أنتم جزاكم الله خيرًا، وأنشأتم مسجدًا هنا، وشرحتم الإسلام لي، وكنتم سببًا في إسلامي

أهل الخدمة مسؤولون في كل مكان يصل إليه قلوبهم.



"يا صديقي، اسلك سبيل الله والصالحين، ومدَّ يدك حين تكون واقفًا كي تعين الساقطين. واسعَ لعمل الخير، فأولياء الله يأخذون بضاعتهم من الحوانيت التي لا يتردد عليها أكثر الناس".

وهدايتي، أما أبي وأمي فكانا متقاعدَين، فلماذا لم يتقرب إليهما واحد منكم ليعلمهما الإسلام، ولو أن واحدًا منكم فعل ذلك لربما دخلا في الإسلام مثلي وصارا أفضل مني.

نعم إني أعلم أن الإسلام والإيمان شيء مقدر للإنسان، ولكن هذا العالم عالم الأسباب، فلماذا لم تأخذوا بالأسباب وتقوموا بتبليغهم الإسلام؟ وأنا أظن أن رحيلهم إلى الدار الآخرة وهم محرومون من الإيمان كان بسبب غفلتكم وإهمالكم، وسيحاجونكم يوم القيامة، وأنا أيضًا، وبعد برهة من الوقت ظل يبكي فيها، بدأ يشرح للجالسين سبب دخوله الإسلام.

إن هذه الحادثة الحقيقية يجب أن تجعلنا نفكر كثيرًا وبعمق؛ لأن الدعوة إلى الإسلام وظيفة واجبة على كل مسلم بالقدر المتيسر له، وبسبب تقدم التقنيات ووسائل الاتصال في وقتنا هذا، فإن هذه المسؤولية أصبحت أعظم وأعظم؛ لأن الكثير من الناس الذين يعيشون في أرجاء الدنيا، وليس عندهم خبر عن الإسلام سيأتون يوم القيامة ويأخذون بتلابيبنا، ويحاجوننا أمام الله بسبب إهمالنا لهم، وغفلتنا عنهم وتقصيرنا تبليغهم الإسلام.



ويجب علينا هنا أن نقول بكل وضوح أن الدين لا يؤخذ وسيلة للأحداث السياسية، فيجب علينا أن نفرق بين



الأهم هنا هو كيفية تمكن الإنسان من أن يكون ذا طبيعة لطيفة كالوردة، أي يكون كالوردة التي يرى الناس أشواكها في حديقة الدنيا، ولكنهم لا يشاكون بهذا الشوك، وحتى إن دخلوا أعشاشهم شتاء فإنهم يتفتحون في الربيع ويحتضنون العالم كله...

الحقائق الدينية وبين الأحداث والتصرفات السياسية، على سبيل المثال:

إن طائفة "الخوارج" كانوا يفعلون ما يفعلونه باسم الدين، ولكنهم في الحقيقة يقومون به بموجب سياسة خارجة عن الإسلام وهم من أهل الفوضى، من ناحية أخرى وجدنا طوال التاريخ بعض الأشخاص أو الطوائف أو حتى الدول تريد أن تفسد على الناس طمأنينتهم من أجل منافعهم الشخصية، وحصولهم على الربح، ويقومون بالمناورات السياسية من أجل تحقيق ذلك، ولكي يعطوا النزاعات التي يقومون بها الصبغة الشرعية، ويُظهِرُون أنفسهم أنهم على حق، فإنهم يستخدمون العناصر التي تعد مشروعة في المجتمع وخاصة الدين، ثم بعد ذلك يبدؤون في تشويه صورة المتدينين، وهذه العبارات التالية التي قالها ابن سبأ الذي كان السبب الرئيسي في "واقعة الجمل"، تحمل من العظات والعبر الكثير والكثير كما أنها تُظهر مقياس أهل الفتنة والفساد من بعده، لقد قال هذا الرجل:

"يا قومي، إن حياتكم وشرفكم مرتبط بتفرقة الناس، فاعملوا على تفرقتهم، وأشعلوا نيران الحرب عندما يلتقون غدًا، ولا تتركوهم مشغولين بأشياء أخرى، حتى يروا أنه يجب عليهم الإعراض عن الصلح الذي لا ترغبون فيه البتة،

حتى يصير علي والزبير وطلحة ومن يتبعونهم يحاربون بعضهم بعضا وتشغلهم الحروب..." (٧٥)

إن هذه الكلمات تكشف لنا حقيقة الكثير مما يجري في الخفاء من الاختلافات التي رأيناها في الماضي ونراها في وقتنا الحالي، وقد رأينا في الأوقات الأخيرة أن العالم الإسلامي أصبح بلا زعيم، والمجتمعات الإسلامية تعيش في غياهب الغفلة والاختلاف، ولكي نتمكن من اكتشاف السبب الحقيقي لهذا، علينا أن ندرك جيدًا معنى تلك الكلمات، وأن ندرك جيدًا ما شابهها في وقتنا الحالي.

وما أجمل ما قال مولانا جلال الدين الرومي:

"يا من زرع بذور الشوك في تلك الدنيا، أَفِقْ لنفسك، واهدأ، ولا تبحث عن الشوك الذى زرعته في حديقة البلابل، ولا تحمِّل الحديقة جناية ما اقترفته يداك".

"بأي عقل تنهض لرؤية القصور والوصمات في وجه القمر، وبأي عقل تنهض لجمع الشوك في الجنة، يا من تبحث عن الشوك ولا تبحث عن الوردة، ولو أنك دخلت الجنة لن تجد هناك الشوكة سوى نفسك".



"يا من زرع بذور الشوك في تلك الدنيا، أَفِقْ لنفسك، واهدأ، ولا تبحث عن الشوك الذي زرعته في حديقة البلابل، ولا تحمِّل الحديقة جناية ما اقترفته يداك"

جلال الدين الرومي

٧٥ أ. جانان، موسوعة الحديث، جـ ١٣ ، ٣٣٤.



وقد كان مولانا جلال الدين الرومي يعمل على إيقاظ القلوب تجاه المفسدين، فيقول:

"ومن الناس من هو مثل الوحوش التي تأكل الإنسان، وقولهم: "لا حول" لن تجدي شيئاً، لأن قلوبهم أصبحت فراشا للشيطان، وهم أيضًا شياطين الإنس".

"ومن الناس أيضًا من يشبه الجزار الذي يريد أن يسلخ جلد صديقه، فيقول لك: "يا حبيبي ويا صديقي"، ولكنه في الحقيقة يُعِدّ لك السكين، ويبتسم في وجهك، ويقول لك الكلمات العذبة من أجل سلخ جلدك، فويل لمن يبتلع أفيون الأعداء".

وكل إنسان على هذا الوضع يستخدم الإنسانية كقناع له فقط؛ لأنه لم يكن يعلم شيئًا عن السمو والرقي، ولم يتذوق الحب الإلهي، ولم يكن له نصيب من عالم الرحمة، ومن كان فكره هكذا فإنه يقتل الحقيقة، ولو كان من اتصف بذلك شاعرًا فإنه يمزق الروح، وإن كان مدافعًا عن الأخلاق فإنه يمحو الأخلاق، ويقول مولانا جلال الدين الرومي أيضًا:

"ومن كان ديدنهم هكذا لو أنهم يحملون في أيديهم الورود، فإن تلك الورود تكون شوكًا للآخرين، لو يذهب إلى جوار صديقه فإنه يكون كالأفعى التي تلدغ مَن بجواره".

وقد أوضح الحق جل جلاله حال الغافلين بقوله:

"أيخضرُّ الحجر في الربيع؟ كن ترابًا تنمو عليه الأزهار والورود بألوان شتى".

جلال الدين الرومي



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾
(البقرة: ١١ – ١٢)

وعلى هذا فإن المهم أن يكون الهدف هو رضاء الله تعالى، وليس الميل النفسي، أو المصلحة الشخصية، والذين يريدون تحقيق مطالبهم المذمومة مستخدمين المبادئ الدينية في تحقيق ذلك، هم الذين يفقدون رضاء الله تعالى المنزه عن كل نقص، ولهذا قال الله تعالى عن تلك الطائفة التي أفسدت في الأرض وقتلت الأنبياء ومن شابههم من البشر:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾
(المائدة: ٣٢)

"لا تقطع شجرة الوردة في الخريف، كي لا تحرم من مظهرها الرائع في الربيع".
الشيخ سعدي

وذلك لأن من يقتل النفس بغير حق فقد اعتدى بذلك على عصمة الأنفس، ولم يعترف لها بحق الحياة، وبذلك يكون كمن تجرأ على حقوق الناس جميعا، وعليه فإن من قتل نفسًا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعًا، ومن أحيا نفسًا، أي عفا عنها وكان مانعا لقتلها، فكأنما أحيا الناس جميعًا.



ويقول مولانا جلال الدين الرومي، الذي شبه الإسلام بـ"ماء الحياة"، أي الماء الذي يمنح النفس خلودها بقوله:

"لن تموت نفس تقف على شاطئ ماء الحياة".

وبهذا يمكننا القول بأن كل مبادئ الإسلام تحيط بكل تلك الحساسيات الدينية، وبهذا الاعتبار فإن الإسلام في البداية يجعل الناس يتجهون إلى المعتقد الصحيح بكل وسيلة، ثم بعد ذلك يوجههم إلى أجمل التصرفات والأخلاق الحميدة المرتبطة بها كالرحمة والخدمة والعلم واللطف ومراعاة الحقوق، وبذلك يحيا الناس بالمعنى الحقيقي للكلمة.



وعليه فإن خصلة الرحمة فقط هي التي ستجعل المؤمن يعيش في الوقت الحالي في خشوع إيماني، وستنقذه من التسلط النفسي، وستجعل روحه متعمقة وتتصف باللطف والشفقة، أما ثمار الرحمة فتتمثل في الكرم والتواضع والخدمة والعفو والتخلص من الحسد، ومصدر كل هذا هو الإيمان.

أهل الخدمة يسارعون إلى عون كل مخلوق، ويرحمون حتى المذنب، فيأتونه ويحيون قلبه بقول لين فيه الرحمة، لا بلسان يبث السموم.

وعلى هذا فإن كل خدمة صادقة بعيدة عن الهموم والمنافع النفسية لو تمت تأديتها بإخلاص، ووصلت إلى الناس وكل المخلوقات، فإنها ستقرّب العبد من الله، لأن أبواب الأمل التي في قلوبنا لن تتفتح إلا بخدمة المخلوقات،



وبها تزيد إمكانية قربنا، وإذا كان الأمر على النقيض فإن ميولات وصفات النفسية شديدة للغاية، وتحجب عن الهدف المنشود من مجيئنا الى الدنيا.

والحاصل أن الإيمان ومنظومة التصرفات الجميلة الناتجة عنه تشكل الأسس الرئيسية للسعادة والاطمئنان الإسلامي، ولهذا فإن المؤمنين الصالحين يوجهون قلوبهم وعقولهم للحق تبارك وتعالى، ويخصصون أنفسهم لفعل الأعمال الخيرية المفيدة، وبذلك يعيشون حياة مليئة بالأعمال الجميلة، وكما قال مولانا جلال الدين الرومي:

"طوبى للقبيح الذى يخضع لأطيب الطيبين! وويل لذي وجه مثل الوردة أصبح صديقا لشخص بارد مثل الشتاء!".

اللهم أعزنا بجمال الإسلام في الدارين، واحفظ دولتنا وأمتنا والعالم الإسلامي، والإنسانية كلها من الفتن والمصائب! آمين!!



إن بحثنا عن أساس الأخلاق الإسلامية فسنجده في التوجه إلى الله تعالى بعشق وإخلاص، ولا ريب أن "الخدمة" هي الرمز الوحيد لذلك التوجه.



أسلوب الهداية والرحمة في الخدمة:

يجب أن تكون الخدمة متصفة بمجموعة من الأوصاف لكي يتحقق فيها كمال يتفق مع الرضاء الإلهي، ويأتي على رأس تلك الصفات النية، فيجب أن تكون النية لله تعالى أي لاكتساب رضاه، ويجب ألا يكون الهدف من الخدمة التي يقوم بها الشخص أن يقال عنه: "إنه كريم خَيِّر؟"، أو تكون من أجل الافتخار بين الناس، يجب ألا تسيطر الأطماع والأغراض النفسية على تلك الغاية العلوية، ويجب أن تتم الخدمة بأسلوب يتسم بالرحمة واللطف، فيبذل القائم بالخدمة جهده في عدم أذية مخاطبه.

وهذه القصة التي حدثت لسيدنا الشيخ إبراهيم حقي الأرضرومي من القصص التي تعطينا العظة والعبرة في هذا الشأن:

ذات يوم من أيام رمضان دعا أهل إحدى القرى التابعة لأرضروم الشيخ إبراهيم حقي الأرضرومي إلى قريتهم لإلقاء الدروس الدينية عليهم، وقد استأجر أهل القرية فرسًا يملكه غير مسلم لإحضار الشيخ إلى القرية، ولما ذهب صاحب الفرس إلى الشيخ أراد الشيخ أن يتصرف بنفس التصرف الذي تصرف به سيدنا عمر بن الخطاب عندما كان ذاهبًا إلى القدس، أي يتناوب الركوب مع الخادم في الطريق

"يا بني، أحسِنْ، فالحيوانات الوحشية تُصَاد بالكمائن، وقلوب الناس تصير بين يديك بالإحسان".

الشيخ سعدي



نظرًا لأن الدابة واحدة فقط، ولما أوضح الشيخ للخادم هذا قال الخادم غير المسلم:

"إذا علم أهل القرية بذلك فسيغضبون، ولن يعطوني أجرتي"،

فقال له الشيخ:

"أنت تخاف من أهل القرية ألا يعطوك أجرتك، وأنا أخاف من عقاب الله يوم الحشر".

وأصر الشيخ على ما يريد، ولما اقتربت القرية كان دور الخادم في الركوب مثلما حدث تمامًا مع سيدنا عمر بن الخطاب، فأصر الخادم على عدم الركوب، ولكن الشيخ أبى بشدة، وأصر عليه أن يركب، فدخل الخادمُ القريةَ راكبًا، ولما رآه أهل القرية راكبًا والشيخ يمشي، غضبوا جدًّا وأخذوا يعنفون الخادم قائلين له:

"أنت شاب وتركب، والشيخُ مُسِنٌّ ويمشي، بالرغم من أننا أعطيناك أجرتك.!"

فأوضح الشيخ لهم أن هذا كان بناءً على رغبته، فهدأ الناس، وحينئذ قال واحد من أهل القرية للخادم:

"يا هذا، لقد رأيت الشيخ يتصرف معك بهذا التصرف النبيل، أفلا تعتنق الإسلام بعد هذه الصحبة التي خدمت فيها الشيخ؟ "

قال الله ﷻ:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

(القصص، ٥٦)



فأجاب الخادم بهذه الإجابة المليئة بالعبرة والعظة:

"إن دعوتموني إلى دينكم فلن أدخل، وإن دعوتموني إلى دين هذا الشيخ المبارك فإني قد آمنت به وأنا في الطريق قبل أن آتي إليكم".

إن هذا المثال الذي ظهر على يد وليٍّ -ذي قلب مثل البحر- من أولياء الله إنما يدل على أسلوب الرحمة والهداية.

إن التوجه إنما يكون إلى روح الإنسان أكثر من أي شيء آخر، والتصرف معه من هذا المنطلق يعبر عما يتضمن المعنى الموجود في "النظر إلى الخلق بمنظور المنهج، الذي شرعه الله لعباده"، ولهذا فإن الصالحين ينظرون إلى الإنسان على أنه خليفة الله في الأرض، ويتقربون إليه على أنه مخلوق أودعه الله سرًّا إلهيًّا.[٧٦]

وأمثال هؤلاء لا ينظرون إلى المذنبين مهما بلغت ذنوبهم ولا يعرضون عنهم، بل ينظرون إلى الكمال الموجود داخل أرواحهم؛ لأنهم لا يقطعون الأمل بسهولة، وهذه الكيفية حقيقة حسية وعقلية لا تُنْكر، لأن الله تعالى لقننا في القرآن الكريم من أسمائه الرحمن والرحيم، وهما أكثر اسمين من أسماء الله تعالى لقننا الله تعالى بهما، حتى إن

"النظر إلى الخلق بمنظور المنهج الذي شرعه الله لعباده"

٧٦ انظر: سورة الحجر، الآية، ٢٩.



مولانا ويونس أَمْرَه كان كل واحد منهما بمثابة السلام والسكون والطمأنينة للأهالي في الأناضول في الفترة التي اضطرب فيها نظام الأناضول بسبب هجوم «المغول» عليه.

هناك سورة في القرآن كاملة تسمى "سورة الرحمن" وتبدأ بـ«الرحمن»، وهي تفيد أن رحمة الله شملت كل شيء، ولهذا فإن التقرب إلى الإنسان من نافذة القلب، أو التقرب إليه بأسلوب الرحمة والهداية، موافق للرضاء الإلهي تمام الموافقة، ومن حيث النتيجة فإنه سيكون أكثر بركة، لاسيما وأن الإنسان يضم بين جنباته جماليات كبرى مكنوزة داخله.

لأن هذا الأسلوب يُكسب الذي طبَّقه والمطبَّق عليه صفات جميلة حسنة كالرحمة واللطافة والمحبة والشفقة والرغبة في الحق، وقد كان هذا الأسلوب مثل الإكسير الذي يجعل جلال الدين الرومي "مولانا" ويجعل يونس أمره "يونس"، ويجعلهم مثل ماء الحياة للكثير من الأرواح المريضة.

ولهذا فإن استخدام التصوف والأسلوب الخاص به سواء في محتواه أو في خدمات التبليغ والدعوة يعرض أهمية كبرى كل وقت، وهناك حقيقة تاريخية لا يمكن إنكارها وهي أن مولانا ويونس أمْرَه كان كل واحد منهما بمثابة السلام والسكون والطمأنينة للأهالي في الأناضول في الفترة التي اضطرب فيها نظام الأناضول بسبب هجوم «المغول» عليه، لقد كانوا بمثابة العلاج للقلوب المتألمة والأرواح الجريحة، وقد نظر الاثنان إلى كل واحد من الغافلين على أنه مريض ينتظر النجاة، ولهذا عاشوا دائمًا



بعيدين عن الحقد والنفور في معاملاتهم، وما أجمل ما قال يونس أمره:

ما جئت من أجل منصب
كل عملي من أجل الحب
فالقلوب مقر الأحباب
وأنا جئت لإحياء القلوب

ولأن هذه الشخصيات الكبيرة أتت من أجل إحياء القلوب، فإنهم كانوا ينظرون دائمًا إلى الإنسان من نافذة القلب، وكانوا دائمًا ما يوزعون المحبة والشفقة على من حولهم، وبذلك كان كل واحد منهم وسيلة لهداية الكثيرين، ولو أنهم تصرفوا بشكل يناقض ما يُنتَظَر منهم فسينقطع الارتباط الذي كان بينهم وبين الناس تماما، وحينئذ لن تبقى هناك إمكانية لتبليغ الناس الحق، وبهذا يكون الناس على نقيض المراد الإلهي، لأن الحق تبارك وتعالى يريد لعباده النجاة من المستنقع الذي سقطوا فيه، ولهذا أرسل آلآفا من الرسل والأنبياء للإنسانية على مدار التاريخ، وأمرَهم بتزكية قلوبهم بأجمل أسلوب، وقد ظل أهل الله -الذين كانت مهمتهم تقريبا شبيهة بمهمة الأنبياء والرسل في التربية والتبليغ- على نفس هذا الأسلوب النبوي في التربية المعنوية.

"ما جئت من أجل منصب، كل عملي من أجل الحب، فالقلوب مقر الأحباب، وأنا جئت لإحياء القلوب."

يونس أمره

وقد أوضح ربنا ﷻ -وهو المصدر الوحيد للرحمة



والرأفة- ذلك الأسلوب المؤثر اللازم على العباد اتباعه في الدعوة إليه، فقال تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥)

وقال تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٣ - ٣٤)

ونتيجة لتطبيق هذا الأسلوب الإلهي الموصى به في الآيات تحولت الكثير من الأرواح إلى ورود بعد أن كانت شوكا، وغرقت الصدور المظلمة في بحور النور.

ومولانا جلال الدين الرومي -قدس سره-، انطلاقًا من هذا الأسلوب، يوضح أهمية هداية المذنبين والغافلين والتائهين إلى الطريق القويم، وهو يقول عن الأسلوب المتبع في ذلك:

"إن الحديد الأسود والصدئ إذا ما قمنا بمسحه وجلوه فإن الخبث الذي فيه سيزول، ولو كانت مرآة من حديد وقمنا

"إن كنت تريدنا وتريد رضانا، فاعلم أن ذلك منوط بكسب قلوبنا".
جلال الدين الرومي



بجلائها أيضًا فإنها ستلمع، وتنعكس فيهاأجمل الصور".

"لا تكدر مياه مدينة القلب، حتى ترى الشمس والقمر تتلألأن على صفحتها، لأن الناس يُشْبِهُون مياه الأنهار، والمياه إذا عكرتها فلن ترى فيها شيئًا".

وروح الإنسان كما أوضح مولانا تشبه المياه البراقة، ولكن عندما تُلَوَّث بالأشياء الخبيثة والذنوب، فإنك لن ترى فيها شيئًا، فإنَّ علينا أن نجعل هذا الماء براقا كي نتمكن من رؤية درر المعنويات وأنوار الحقائق، ولهذا فإن الغاية من التصوف تربية المشاعر النفسية، وإيصال الأفراد والمجتمعات إلى الطمأنينة والسلام، لأن الحق تبارك وتعالى زين الإنسان بالرقة والظرافة والأخلاق العلية، والقيمة الحقيقية للإنسان تكون بقدر ما يتمثل تلك الخصائص والسمات في عالم القلب، فالقلوب الممتلئة بالروحانية تكون مظهرًا ومكانًا لتجلي الأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة والأحوال المعنوية. فتتجلى في العبد الآية الكريمة:

﴿...**فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ (التين: ٤)

ولهذا لا يمكن حرمان أي شخص -مهما بلغ من الكفر والشرك- من الدعوة إلى الهداية، وهذا مثال على ذلك من أمثلة العصر النبوي التي لا تحصى:

وعن ابن عباس ﵁ قال: بعث رسول الله ﷺ إلى

قال الله ﷻ:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

(النحل، ١٢٥)



وحشي بن حرب قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه: يا محمد كيف تدعوني وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا؟! وأنا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة؟ فأنزل اللَّهُ ﷻ:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]

فقال وحشي: يا محمد هذا شرط شديد إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا، فلعلي لا أقدر على هذا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]

فقال وحشي: يا محمد، هذا أرى بعد مشيئة فلا أدري يغفر لي أم لا؟ فهل غير هذا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[الزمر: ٥٣]

قال وحشي: هذا نعم، فأسلم، فقال الناس: يا رسول الله، إنا أصبنا ما أصاب وحشي؟ قال:

الخدمة بلا محبة ورحمة كسر للقلوب.



«هِيَ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةٌ». [٧٧]

وأصبح وحشي الذي قتل حمزة في أُحُد، صحابيًّا من أصحاب رسول الله ﷺ، ولكي يشعر وحشي بأنه دفع دية قتل حمزة، ولكي يضمن عفو الله عنه قتل مسيلمة الكذاب، وبذلك أنقذ المسلمين من شروره وأنهى الفتنة التي أظهرها مسيلمة.

وكما رأينا في تلك الرواية أن القلوب التي تتجه إلى التوبة النصوح قد نهلت من محبة ورحمة الرسول ﷺ بمعناها الحقيقي والكامل، والحاصل أننا سمعنا من فَم رسول الله المبارك ما يعطي الإنسانية كلها السعادة والتجلي والشفاء، وأن البشرية رأت بحر العفو والكرم وبر الأمل بكرم «نور الوجود»، ونال الخطاب الإلهي المشفق الظاهر في قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِي﴾ بجاه فخر الكائنات ﷺ.

ولهذا فإن تمسكنا في الوقت الحالي بالرحمة الإلهية، واستخدام هذا الأسلوب الذي يعطي ذلك الأمل، إنما هو في غاية الأهمية لنا في وقتنا الحالي الذي نعيش فيه أزمة معنوية تشبه تلك الأزمة الموجودة في الغرب الرأسمالي بسلبياته، إن الطريق الأهم لنا اليوم هو المكاسب الحسية وليس جر الناس إلى النزاعات العقلية، لأنه يمكن أن يكون الكثيرون قد تشكل عقلهم بشكل خاطئ، ولهذا فإنه

"والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا، قالوا : يا رسول الله كلنا رحيم، قال: إنه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة، رحمة العامة". (الحاكم، المستدرك، جـ٤، ١٨٥)

---

٧٧ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ ١٠، ٢١٤ – ٢١٥/ ١١٣١٤.



"إن العلاج يبحث عن الجرحى والمرضى من الناس، وإن الدواء يسري محل الداء، وإن الماء يسيل إلى محل منخفض".
"وأنت أيضًا إذا كان ماء الرحمة ضروريًا لك، فافعل مثل ما فعل الماء ـ كن في جانب المساكين والفقراء".

مولانا جلال

لا يمكن الإقناع بالجدال والنقاش واكتساب المخاطب بهذه الطريقة، لأن الشروط السلبية والأدلة العقلية تمنع من القبول، وحتى يتم التمكن من التآلف مع القلوب بالحقيقة يلزمنا أولا أن نتسامح، وأن نحيي الميول السامية الموجودة بداخل القلوب، وهذا الأسلوب سيكون أكثر تأثيرا.

ولهذا فيجب علينا قبل أن ننتقد عيوب الشخص الذي غرق في الذنوب والمعاصي، وقبل أن نطالبه بتنفيذ الأوامر الدينية، علينا أولًا أن نكتسب قلبه، وأن نسعى إلى تأسيس علاقة ودية معه تساعد في إعداد أرضية للمودة الشخصية للتأثير على ما يتلقنه، وبعد إعداد القلب بتلك المحبة اللازمة، يتم البدء رويدًا رويدًا في صلاح العيوب والأخطاء، ويجب علينا أن نضع نصب أعيننا الثمرة المباركة لتلك العلاقة الروحية التي سيتم إيقاظها بالإكرام والالتفات المادي والمعنوي، وقد فتح النبي ﷺ نافذة سماوية على القلوب التي غرقت في دخان المعاصي والذنوب، وقدم لها الأنفاس الجديدة عندما قال:

«شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»[٧٨]

علينا أيضا أن ندرك المعنى الدقيق في الحديث.

ولا يوجد أجمل مما أوضحه مولانا جلال الدين الرومي عن هذا البيان النبوي حيث قال:

٧٨ أبو داود، السنن، السنة ٢٠/ ٤٧٣٩.

"إن العلاج يبحث عن الجرحى والمرضى من الناس، وإن الدواء يسري محل الداء، وإن الماء يسيل إلى محل منخفض. وأنت أيضًا إذا كان ماء الرحمة ضروريًّا لك، فافعل مثل ما فعل الماء."

ولا يؤتي المرهم أو العلاج نفعه أو تأثيره إلا بعد تطهير الجرح من الميكروبات، وهذا أيضًا يعني تطهير القلوب المريضة من ميكروب الذنوب، أي غسلها بماء التوبة، أي إن الشفاعة (وهى العلاج) تتحقق بعد ذلك.

وورد في الحديث الشريف أيضًا:

«التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»(٧٩)

والحديث الشريف السابق يحمل في معناه البشرى من جهة، ويحمل شرط تلك البشرى من جهة أخرى، وهذا الشرط قد اختفى في مظاهر الرحمة.

وكما راعى جميع الأنبياء تلك الرقة العلوية النابعة من أسلوب الرحمة والهداية، سار على نهجهم أيضًا أولياء الله تعالى، وأدركوا أن أول ثمرة للإيمان هي الرحمة، وعرفوا العبودية في مقياس هذين الإطارين:

١- التعظيم لأمر الله، أي: تنفيذ أوامر الله بكل احترام.

٢- الشفقة على خلق الله ﷻ.



يقول الله ﷻ:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

(الفرقان، ٦٣)

"فكن صامتًا كالكتاب بجانب الجاهلين".

جلال الدين الرومي

---

٧٩ ابن ماجه، الزهد، ٣٠/ ٤٢٥٠.



ولعل حال الفضيل بن عياض من أجمل الأمثلة على قلب المؤمن الذي يعيش بتلك المقاييس، فذات يوم رأوا الفضيل يبكي فسألوه: لماذا تبكي؟ فأجاب:

"أبكي لحزني على مسلم مسكين ظلمني، أبكي على حاله يوم القيامة".

وقد أوضح مولانا جلال الدين الرومي الخاصية التي ساقت هؤلاء الأولياء إلى تلك الرحمة فقال:

"عندما تفيض بحار الرحمة، فإن الأحجار نفسها تشرب من ماء الحياة، ويبعث الموتى من مراقدهم، وتتطهر القلوب السوداء من أدرانها وترقى إلى مصاف القلوب الملائكية".

وروي أن إبراهيم بن أدهم قام ذات يوم بغسل فم سكير شرب الخمر، ولما سألوه: لماذا فعلت ذلك؟ أجابهم بأنه سمع اسم الله على لسانه، فما أحب أن يقال اسم الله الطاهر على لسان نجس فطهر فمه، ولما أفاق الرجل من سُكْرِه قالوا له: إن الزاهد الخرساني إبراهيم بن أدهم غسل فمكَ من أثر الخمر، فقال الرجل: وأنا تبت إلى الله لهذا، وقد رأى إبراهيم بن أدهم في منامه رؤيا قيل له فيها:

"لقد غسلت فمه من أجلنا، ونحن غسلنا قلبه من أجلك"

من يأمر الناس بالعفو، ويحضهم على أن يأخذوا بحظ وافر منه هؤلاء كمن ينشر رياحين العفو من حدائق القلب، والإنسان الذي لا يقدر على العفو، هو في الحقيقة قد أهلك نفسه.



وقد قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ولأمته كلها:



﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ...﴾ (الأعراف: ١٩٩)

ولا شك قط في أن الرسول ﷺ كان في تطبيق هذا الأمر أجمل وأكمل قدوة لنا، فقد سما بأخلاقه ورحمته وعفوه سُمُوًّا لا تبلغ الملائكة مقامه، وما سنرويه الآن واحد من تلك النماذج:

لقد أصدر الرسول ﷺ يوم فتح مكة قرار العفو العام عن أهلها، مكة التي لم طالما آذت الرسول ﷺ وأصحابه تعيش اليوم حالة من السعادة والمحبة والرحمة بهذا العفو الكبير الذي أعلنه النبي الكريم ﷺ، وبينما كان الناس في مكة فرحين براية العفو التي أظلهم بها النبي ﷺ، إذا برجل من الكفار يدعى فضالة اندس وسط الناس ليقتل الرسول، فلما اقترب منه لم يظهر الرسول أي خوف أو وجل منه، بل فتح له أجنحة الرحمة والشفقة،

وقال: «أَفَضَالَةُ؟»

فأجاب: نعم.

فقال له الرسول ﷺ الذي بُعث رحمة للعالمين:

«**اسْتَغْفِرِ اللَّهَ**»، ثم وضع يده الشريفة على صدر الرجل.

وفي تلك اللحظة امتلأ قلب فضالة -الذي كان ذاهبًا ونيته قتل الرسول- بالحب والرحمة ونور الإيمان، وأصبح

لا فيوضات في قلب لا يعرف الرأفة والرحمة.



بعدها من أكثر الصحابة حبًّا لرسول الله ﷺ.[٨٠]

يا له من تصرف ونضوج كبير سام يمكن التعبير عنه بقول من قال: "ليحيَ فيك مَن جاء لقتلكَ".

والتاريخ الإسلامي مليء بالأمثلة التي لا تحصى على هذا، ويأتي على رأس تلك الأمثلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكثير غيره من الذين كان كل واحد منهم بمثابة الثمرة اليانعة لهذا الأسلوب الجميل، يقول مولانا جلال الدين في هذا:

"يمطر المطر على كل أرض قاحلة نتيجة لتموج بحر الكرم وكمال الرحمة الإلهية، وبذلك تصل المياه إلى كل مكان مسه القحط".

"أيها الداعي إلى الهداية! اعلم أن علاج العين اللئيمة عين حسنة، فالعين الحسنة والنظرة الحسنة تواجهان العين اللئيمة وتزيلانها، لأن العين الحسنة والنظرة الحسنة تنبثقان من رحمة الله، ورحمة الله غالبة على قهره، وأما العين اللئيمة فتنبثق من قهره ولعنته، ولذا تغلب العين الحسنة على اللئيمة لأن العين الحسنة من رحمة الله، وقد ورد هذا المعنى في الحديث القدسي:

«...إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[٨١]

"لا تنسَ الله تعالى والموت.
وانسَ شيئين: عملك الصالح لامرئ، وإساءة تلقيتها من غيرك".
لقمان الحكيم

٨٠ انظر: ابن هشام، السيرة، جـ٣، ص ٥٨٣.

٨١ البخاري، الزهد، ٥٥/ ٧٤٢٢/ ٧٤٥٣/ ٧٥٥٤.



كما يجب أن تعلم أن رحمة الله في كل وقت تغلب على قهره، ولهذا انتصر كل نبي على أعدائه."

"وعلى هذا فإن الوسيلة لإزالة البلاء ليست الظلم أو التوبيخ، وإنما هي العفو والصفح والكرم، كما ورد في معنى قول النبي ﷺ:

«إن الصدقة ترد البلاء...»[٨٢]،

وهذا الحديث النبوي الشريف ينبهنا إلى ضرورة الفهم الجيد لطريقة مداواة البلايا والأمراض.

ولكن يجب ألا تنسى أن العفو عن الظالمين يعني ظلم المظلومين، والرأفة باللصوص والناس السيئين يعني الغدر بالضعفاء وعدم الرحمة بهم.

ويجب حينئذ ضبط هذا التوازن بشكل جيد، لأن الله تعالى مع كونه غفورًا رحيمًا، إلا أنه في الوقت نفسه عزيز ذو انتقام، أي صاحب عزة ينتقم من الظالمين الذين يعتدون على حقوق الناس بغير حق.

ولهذا قال النبي ﷺ:

«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»

فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال:

"إن أردت كسب قلوب الأعداء، فلا تجرح قلوب الأصدقاء، فكما أنك لا تستطيع كسب الأعداء كذلك ستفقد الأصدقاء".

أبو مسلم الخراساني

---

٨٢ الترمذي، الزكاة، ٢٨؛ السيوطي، الجامع الصغير، جـ ١، ص ١٠٨.



"أيها الإنسان، في الدنيا صوتان متضادان، فيا ترى لأي منهما قلبك مستعد؟ صوت هو حال المقربين من الله، والآخر حال الضالين. إن قبلت أحد الصوتين فلن تسمع الآخر، فالمحب يصيبه الصمم والعمى أمام كل ما يناقض حبيبه".

جلال الدين الرومي

«تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»(٨٣)

وحاصل ما نريد أن نقوله هنا هو أن كل فرد في العالم اليوم أصبح كالطائر الجريح من ناحية الإسلام والإيمان، وحتى يتم التمكن من تضميد جروحهم بشكل دقيق وحساس، علينا أن نتقرب منهم برحمة ومحبة، وهذا بالتأكيد لن يتحقق إلا بالكيفية التي يمكن تحقيقها بالمحتوى والأسلوب الذي سعينا إلى توضيحه فيما سبق.

اللهم اجعلنا على طريق العفو دائمًا متمثلين قولك لنا: «إن رحمتي سبقت غضبي»، وألحقنا اللهم بزمرة الصالحين دلائل الهداية!! آمين!!!



---

٨٣ البخاري، الإكراه، ٧/ ٦٩٥٢؛ مسلم، البر، ٦٢ .



"كن طيبًا حسنًا للكبير والصغير، فإن كان تعاملك بلطف ورقة فسيكون الفقير عبدًا لك، والغني ودودًا متواضعًا. والتوفيق في اللسان الجميل. أما إن كان تعاملك قاسيًا حادًا فلا تتوقع إلا الفظاظة".

الشيخ سعدي

أسلوب الشفقة والحلم في الخدمة:

إن النظر إلى الإنسان بالمقاييس الإسلامية يستوجب الاهتمام والاعتبار بأصله أكثر من الوقوف على وضعه الملوث بالمعاصي، والمسلم الحقيقي يجب أن يدرك أن الإنسان العاصي كالطائر المنكسر جناحه يلزمه العناية والاهتمام، وأن يشعر دائمًا من داخله بالرغبة في تسكين روحه المتألمة، وأن يكون مهتمًّا بصحته واطمئنانه، لأن التسامح والشفقة التي ستظهر للمخلوق من أجل الخالق ستكون أقوى مؤثر يوصل المؤمن إلى الكمال والفضيلة.

وقد اتبع الإسلام أسلوبا يعتمد على الاعتدال دون الوقوع في الإفراط والتفريط، واعتُمد دستوراً أصلياً في الخدمات كالتعليم والتبليغ، وهذا الدستور يمكن تحقيقه بالحلم واللين، وحياة النبي ﷺ والصحابة الكرام والصالحين مليئة بما لا يحصى من أمثلة على هذا الأسلوب الذي اتخذوه تجاه المذنبين.

ذات يوم مرَّ أبو الدرداء رضي الله عنه على أناس يضربون رجلاً ويسبونه، فقال لهم: ماذا فعل؟ فقالوا: أذنب ذنبًا، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في بئر أكنتم تستخرجونه منها؟ قالوا: نعم نستخرجه، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم، فقالوا له: ألا تبغضه وتكرهه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي.



قال الله ﷻ:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

(الفرقان: ٧٠)

وفي هذا المثال الكثير من الحِكم التي أراد أبو الدرداء أن يثبتها في قلوب المؤمنين، وهذه الحِكم هي الأضواء العُلوية التي تنعكس على الأمة من أنوار طاعة أوامر الله، وأخلاق الرسول ﷺ، وقد كانت تلك الأنوار طوال التاريخ وسيلة لأنوار الهداية كمظهر من مظاهر النضج، وأصبحت بمثابة الأسلوب المتأصل في العمل الصالح.

إن هذا الأسلوب بمثابة إنقاذ المذنب من الغرق في الذنوب، وتطهيره في بحر التوبة في إقليم المحبة والرحمة والعفو والتسامح، وقد تقرب الرسول ﷺ إلى أكبر رؤوس المشركين (كأبي جهل) بهذا التسامح، فلم يتعرض لذنبه أو ما يقترفه، بل كان هَمُّه منصبا على دعوته إلى الطهارة في بحر السعادة والنجاة الإيماني، والله تعالى يزيل ذنوب العبد المتشبث بالتوبة والإيمان، حتى إنه يُحوّلُ ذنوبَه حسناتٍ، وهذا بالطبع بمثابة الشعلة الكبيرة التي تنير لنا الطريق في هذا الشأن، يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان: ٧٠)

والذين لم يستطيعوا أن يأخذوا نصيبًا من تلك الرحمة السامية فإنهم أعداء لأنفسهم وللإنسانية، والغافلون الذين لا يعرفون شيئًا عن الرحمة أو الشفقة كهؤلاء، مساكين



لا يدركون طرق النصيب الإلهي، إلا أن أولياء الله الذين توصلوا إلى منبع الرحمة مثل مولانا جلال الدين الرومي ويونس أَمْرَه كانوا محبوبين من كل المخلوقات، من البشر وحتى من الذئاب والطيور، فكان كل واحد منهم بوجهه المنير المبتسم بمثابة الوردة المتفتحة في الجنة، حتى إنهم كانوا ينثرون الجمال على الأشواك، ويداوون القلوب الجريحة، والأهم هنا الآن هو كيفية تمكن الإنسان من أن يكون ذا طبيعة لطيفة كالوردة، أي أن يكون كالوردة التي يرى الناس أشواكها في حديقة الدنيا، ولكنهم لا يشاكون بهذا الشوك، وحتى إن دخلوا أعشاشهم شتاء فإنهم يتفتحون في الربيع ويحتضنون العالم كله.

ثلاثة أصناف من الناس عرفوا أنفسهم:

١.من لا يؤذي حتى الرياح.

٢.والمستحي من ذكر اسمه.

٣.والناظر إلى الناس بعين الرأفة والرحمة.

وما أجمل ما قال مولانا جلال الدين الرومي في ذلك:

"لقد أنار القمر لأنه لم يخش الليل، ولم يفر من الظلمات، وبدأ القمر ينثر أنواره، والوردة أيضًا اكتسبت رائحتها الجميلة لأنها عاشت في سلام مع الأشواك، واستمع لهذه الحقيقة أيضًا من الوردة، وانظر ماذا تقول: لماذا أغتم؟ لأنني أعيش مع الشوكة!، لماذا أترك نفسي للحزن؟ وقد اكتسبت صفة التبسم التي أنا عليها لأنني كنت مع الشوك، وبسببه تمكنت من نشر المناظر والروائح الجميلة في العالم".



وقد لخص حضرة أشرف الرومي هذا الأسلوب اللازم من أجل إمكانية الوصول إلى هذا الحال في هذا البيت:

لأجل الحبيب يغدو السم بلسما

وقد لعن أحدُ الصحابة أحدَ المبتَلِين بشرب الخمر؛ لكثرة ما يؤتى به وهو سكران وتطبيق الحد عليه، ولما سمع رسول الله ﷺ هذا قال له:

«لاَ تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إلا إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»(٨٤)

وقد تعرض أحد طلاب المرحوم رمضان أوغلو محمود سامي -قدس سره- لأزمة فأدمن الخمر، وجاء مرة إلى باب حضرة الشيخ، فقال له أحد الطلبة الذي فتح له الباب: "ما هذا الحال، هل تعلم إلى أي باب وصلت؟ فرد الرجل المسكين قائلا: "وهل يوجد باب آخر يحتضنني برحمة؟" قالها مظهرًا عجزه وقلة حيلته، وقد سمع سامي أفندي الموضوع فأتى إلى الباب، وأمر بأن يدخل تلميذه هذا إلى الداخل، وأخذه ليدخله إلى قصور الروح، وأحيا قلبه الخرب من جديد بالرحمة والشفقة والمحبة، وقد أصبح هذا الشخص الذي تعرض لهذا الإرشاد بهذا الأسلوب القلبي الرقيق من زمرة الصالحين بمرور الوقت، بعد أن تم إنقاذه من الأحوال السلبية.

خذ أنت أيضًا نصيبك من النور والموعظة والحسن والجمال! ولا ترمي بأنفك في القذارة فتكن كتلك الخنفساء! كن إنسانًا، كن إنسانًا!"

جلال الدين الرومي

---

٨٤ البخاري، الحدود، ٥/ ٦٧٨٠ .



وقد عبر رسول الله ﷺ في الحديث الشريف عن تلك الأخلاق الحميدة التي تمثل النظر إلى المخلوقات بعين الخالق، والتي تتحقق في الأولياء فقال:

«...وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَرَاحَمُوا»

قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم، قال:

«إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ، وَلَكِنْ رَحْمَةُ الْعَامَّةِ، رَحْمَةُ الْعَامَّةِ»[٨٥]

فمهما ابتعد الإنسان عن طبيعته الأصيلة، لكنه في النهاية صاحب شرف عال من حيث كونه إنسانًا، إن انغماسه في مستنقع الذنوب جاهلًا بهذا السمو الذي في جوهره، يشبه سقوط الحجر الأسود الموجود في جدار الكعبة على الأرض واتساخه بأوضارها، ولا يمكن أن يُتَصَوَّر مؤمن يتصف باللامبالاة تجاه هذه الحال، فالكل سيرعى ويحفظ حرمة الحجر الأسود، وسيتسابق الجميع من أجل رفعه عن الأرض ومسح التراب عنه، وتنظيفه بدموع أعينهم، وإعادته إلى مكانه المشرّف، إن الناس حينئذ تتذكر أنه من الجنة، وتفكر في القيمة المعنوية الموجودة في جوهر وروح الحجر الأسود، والإنسان أيضًا كان في الجنة وأُخْرِج منها، ومهما اقترف من الذنوب وأوغل فيها، إلا أن قيمته الموجودة في روحه وجوهره ما تزال باقية.

انظر بسرور لنفسك فأنت زبدة العالم وانت ابن آدم، قرة عين الأكوان.

الشيخ غالب

٨٥ الحاكم، المستدرك، جـ ٦، ١٨٥/ ٧٣١٠ .



إن تكايا القلوب بمثابة ورش الترميم التي ترمم القلوب والأرواح، فالآلة المعطوبة هي التي تنقل إلى المصلح ليصلحها، ولأن هذا العمل من أجل إصلاح الأخطاء فمن الطبيعي جدًّا أن تكون تلك الدعوة أكثر ما تكون للمخطئين.

من ناحية أخرى فإن الطبيب الحاذق لن يغضب من مريضه ويقول له: لماذا مرضت؟ ولن يفسر الطبيب المرض على أنه تقصير من المريض في حق نفسه وإن أصابه المرض من تقصيره، بل سيفسره على أنه أصابه إما لعجزه في التفكير، أو في الفعل للمريض، ولهذا يجب على الطبيب أن يضع نصب عينيه الألم والاضطراب الذي يعاني منه المريض بدلًا من البحث عن الأسباب التي أدت إلى كونه مريضًا، وأن يبدأ في علاجه بشفقة ومرحمة كبيرة دون تضييع للوقت، ويرى نفسه مسؤولًا عن هذا العلاج، وعلى هذا فالمتصوف الحقيقي يعيش في المجتمع بأحاسيس الطبيب الذي يبحث في أركان المستشفى عن المرضى ليعالجهم ويتفقد أحوالهم، هذه الأحاسيس والتصرفات تكون حبل النجاة للضالين عن السبيل.

وإنقاذ الإنسان المذنب الذي سقط في براثن المعصية من هذا الوضع وإدلاء حبل النجاة إليه، يعد وسيلة من وسائل السعادة العلوية الكبيرة، وهذا التنبيه الذي نبّه به الرسول ﷺ عليًّا رضي الله عنه أثناء فتح خيبر يلفت الانتباه كثيرًا:

«...فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[٨٦]

---

٨٦ البخاري، الجهاد، ١٤٣/ ٤٢١٠ .



وقد عبّر الله ﷻ في كتابه العزيز عن هذه الحقيقة فقال:

﴿...وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ (المائدة: ٣٢)

وهذه مسألة إيمانية، ولا شك أن أثقل المشاعر والأحاسيس الإنسانية خطأً هو الكفر، إن إمكانية النجاة من هذا بواسطة الأسلوب اللين أكثر احتمالاً، ولذا أمر الله ﷻ موسى عليه السلام أن يستعمل القول اللين لما أرسله إلى فرعون ليلقنه الإيمان، ويخاطبه بكلمات لينة، لأن نجاح الداعي إلى الإيمان في هذا الأمر من الأعمال الصالحة التي هي أكبر وسيلة لتعظيم هذه المكاسب كما أوضحنا سابقًا.

فالله تعالى لم يكن غافلًا عن شدة كفر فرعون، ولهذا فإن أسلوب تلقيننا وخطابنا -حتى وإن كان مخاطَبُنا شديد الكفر مثل فرعون- يجب أن يكون في إطار الأوامر الإلهية باستخدام القول اللين، وليس على صورة التهديد والوعيد، وما أجمل ما قال مولانا جلال الدين الرومي:

"افهم جيدًا قول الله تعالى لموسى عليه السلام: **﴿فَقُولَا لَهُ قَولًا لَيِّنًا﴾**، لأنك لو سكبت الماء البارد على الزيت المغلي فإنك ستفسد الموقد، والقِدْر أيضًا".

وقد بيّن الحق ﷻ تلك الحقيقة في الآية الكريمة:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ...﴾ (آل عمران: ١٥٩)

قال الله ﷻ:
﴿مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾
(المائدة، ٢٣)



"حين يعاتبك والدك على جرم ارتكبته، فإنك تراه مثل السّـبع الذي يهجم عليك وينهش جسدك، وهذا داء نابع من عتابه وجفائه"

جلال الدين الرومي

إن هذا الأسلوب ليس من أجل الكفار والمذنبين فحسب، فربما كان هذا الأسلوب لازمًا أيضًا في حق المقصرين والضعفاء وأصحاب الهفوات ممن يعيشون الإسلام سلوكا وفكرا، لأنه في نفس الوقت الذي يُسعى فيه إلى إصلاح المعوج، يمكن أن تعطي الغلظة التي تكسر قلب المخاطب نتيجة عكسية ضد الهدف المنشود، لأن هذا الإصلاح الذي يتم بهذا الأسلوب الفظ، يكون خارج الصبر والتحمّل حتى تجاه الآباء والأمهات، ومهما قيل في هذا الموقف من مُسوِّغات، فإنه يكون كالسكين غير الحاد على القلوب، وبالتالي يفقد فائدته وجاذبيته، ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

"حين يعاتبك والدك على جرم ارتكبته، فإنك تراه مثل السّـبع الذي يهجم عليك وينهش جسدك، وهذ داء نابع من عتابه وجفائه"

أي مع أن عتاب والدك يكون حرصا على الخير لك، إلا أن الجفاء والعتاب الذي يظهره لك يجعل الرحمة والشفقة التي في قلبه تجاهك تغدو كأنها وحش كاسر.

وعلى هذا يجب ألا يُنسى الجانب النفسي الذي في الإنسان، ويجب التصرف معه باعتبار أنه مخلوق له قيمة كبيرة باعتبار الجوهر الذي خلق عليه، مهما بلغت ذنوبه، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الشريف:



«بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ...»(٨٧)

وهذه "بَزْمِ عَالَمْ" وَالِدَه سُلْطَانْ التي أدركت الحكمة في هذا الحديث جيدًا، فأسّست وقفًا في دمشق من أجل تضمين قيمة ما كسره الخدم حتى لا يتم تعنيفهم أو أذيتهم، وهذا الإحساس الرقيق بهؤلاء الخدم يرينا أفقا قلبيا عميقا.

ولهذا يجب على المؤمن الحساس الذى عنده هذا الشعور أن يؤاخذ نفسه ويسامح غيره في مسألة التبليغ والدعوة، لأن الله تعالى يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ...﴾ (الحجرات: ١٢)

ويقول الرسول ﷺ في الحديث الشريف:

«لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الفَاحِشِ وَلَا البَذِيءِ»(٨٨)

فالصالحون الكُمَّلُ الذين يعيشون على التزام هذه التوجيهات الربانية صاروا أعلام الفضيلة والأخلاق العظيمة، وباتوا لا يرون الدنيا مستقلة ومنفصلة عن الآخرة أبدا.

قال النبي ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» (مسلم، البر، ٣٢)

٨٧ مسلم، البر، ٣٢/ ٢٥٦٤.

٨٨ الترمذي، البر، ٤٨/ ١٩٧٧.



وقد كان الرسول ﷺ عندما يرى شخصًا مذنبًا أو عاصيًا في المجتمع، لا يقصده بالتنبيه وإنما يعرض للمسألة بشكل عام حتى لا ينكسر قلبه، فبهذا الأسلوب الرفيع يريح المجتمع من هذا الذنب أو الجرم دون إثارة مشاكل جانبية، فأحيانًا كان الرسول ﷺ يجعل المسألة عامة ويصفها بالخطأ، وذلك من أجل إشعار صاحب هذا الذنب بأن هذا الذنب لا يليق به، يُروى أنه ﷺ كان يقول أحيانا: «مَا لِي أَرَاكُمْ...» فكأنه عليه الصلاة والسلام يضيف رؤية الغلط إلى نفسه.

وهذا هو أسلوب عدم تصغير المخاطب أو إحراجه بالذنب، وهو وصف مشترك عند الصوفية في إدراك التصوف بشكل صحيح والعيش به، لأن الطريق إلى الله يمر من بناء القلب، وليس من هدم القلب، وما أجمل ما قال يونس أمره:

القلب عرش الرحمن
ومحط نظر الديان
فمن يهدم القلب
كان شقيّ الدارين

حقيقة إن الكثير من البشر الذين يراهم الناس قبيحين بسبب ذنوبهم لن يدخلوا مناخ الرحمة مجددًا إلا ببركة هذا المفهوم والأسلوب.



إن كسرت قلبًا
مرة
فليست صلاتك
صلاة
يونس أمره



إن أسلوب تلقيننا وخطابنا -حتى وإن كان مخاطَبُنا شديد الكفر مثل فرعون- يجب أن يكون في إطار الأوامر الإلهية باستخدام القول اللين، وليس على صورة التهديد والوعيد.

ويروى أنه كان لجنيد البغدادي طالب شُوهد ذات يوم وهو يقوم بعمل يسيء به لنفسه، فشعر بالخجل على فعلته هذه، وغادر التكية، ولم يعد يأتي إليها، وامتد الزمن بهذا الطالب حتى أنكر قلبه، وذات يوم كان الجنيد يمر من السوق مع أصحابه، وإذ بهذا الطالب يرى الجنيد فيبتعد عن المكان مسرعا خجلا منه، فقال الجنيد لمن معه: "اذهبوا عني، لقد فر طيري من عشي"، وذهب الجنيد خلف تلميذه، ولما شعر التلميذ بأن جنيدًا يتعقبه ازداد اضطرابًا، وتسارعت خطواته، ودخل شارعًا مسدودا، ولما أحس بأن الجنيد اقترب منه، ضرب رأسه في الحائط بشكل لا إرادي من الخجل، فلما رأى شيخه بين يديه تغير لونه وأحنى رأسه، فقال له الجنيد: "يا بني، إلى أين أنت ذاهب، وممّن تفر؟ إن همة المعلم لتلميذه ومعونته له إنما تكون في الأيام الصعبة"، وأخذه بكل شفقة وذهب به الى التكية، أما التلميذ الذي ندم على فعلته فقد انكب على قدم معلمه وتاب عما بدر منه من ذنب.

وعليه فإن هذه الحال تعد واحدة من النتائج المباركة للإرشاد المعنوي واستخدام الشفقة والرحمة -التي تشبه شفقة الأب على ابنه- تجاه الإنسان المذنب مهما كان ذنبه، فلا يُرد هذا الشخص، بل بالعكس تجب معاملته بالشفقة والرحمة.



قال النبي ﷺ:
«لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا»
(الترمذي، البر، ٦٣)

ومن ناحية أخرى فإن العفو عن الذنوب والأخطاء، ومقابلة الإساءة بالإحسان، والدعاء بالهداية والإقلاع عن الذنوب والأخطاء يجب أن يكون وصفًا فارقًا للمسلم الناضج، وإن دعاء الرسول ﷺ بالهداية لأهل الطائف -عندما ألقوا عليه الحجارة- ورفضه لأن يدعو عليهم لمن أبلغ الأمثلة وأدلها على هذاالوصف، كما أن أسلوب الشفقة والرحمة الذي اتبعه مع أهل مكة عندما دعا لكل واحد منهم بالهداية، وسؤاله الله لهم أن يخرج من أصلابهم من يؤمن به، وعدم استخدامه للدعاء عليهم أو طلب العذاب الإلهي لهم، إنما كان هذا وسيلة للنجاة والإصلاح للكثير من ذوي النفوس الطاغية.

وقد قال الرسول ﷺ:

«لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاؤوا فَلَا تَظْلِمُوا»[٨٩]

لأن الشخص حين يُعامَل بالإحسان إن كان عدوًّا يصبح بهذا الإحسان حبيبًا، وإن كان بعيدًا يقترب، وإن كان قريبًا تزداد محبته، أما الذين انساقوا وراء قسوة قلوبهم واتخذوا الظلم أسلوبا لهم، فإنهم يعيشون أزمة معنوية

---

٨٩ الترمذي، البر، ٦٣/ ٢٠٠٧.



كبيرة، وهذا هو سبب رغبتهم في فهم المفاهيم الخاطئة من أجل راحتهم، أما استخدام الأسلوب الصوفي في تلقين الإسلام، فإنه يعطي نجاحًا أكثر من هذا الجانب، واليوم نجد أن معظم الطائفة المختارة التي اعتنقت الإسلام في الغرب تراجع كتب المتصوفة الكبار أمثال "ابن عربي" و"مولانا" من أجل ملء الفراغ الروحي الذي يعانون منه، حتى إن الكتب الصوفية هي الكتب الأكثر رواجًا بين الكتب الإسلامية في العالم الغربي اليوم، ولكَمْ نحن في حاجة اليوم إلى هذه السيادة القلبية التي تحيط بكل عالم الإنسانية، والتي أوضحها مولانا في الأبيات التالية:

تعال تعال، كائنا من كنتَ تعال

كافرا أو مجوسيا أو وثنيا تعال

فَتَكِيَّتُنا ليست محل يأس أو قنوط

ولو عدت من توبتك مئة مرة، تعال.

والهدف من هذه الأبيات دعوة مولانا للتسامح وتعرّف الإنسان على جوهره الأصلي، وإنقاذه من الأخطاء على أرضية التسامح والشفقة المباركة، وتشريفه بالإسلام، وليست تلك الدعوة قبول الشخص في الإسلام من غير هدف ولو بقي على حاله القديم، فالهدف هو تنظيم وضبط العالم الروحي للشخص، وعلى هذا فإن تكايا القلوب بمثابة ورشات الترميم التي ترمم القلوب والأرواح، فالآلة

تعال تعال، كائنًا
من كنتَ تعال
كافرًا أو مجوسيًا
أو وثنيًا تعال
فتكيتنا ليست
محل يأس أو
قنوط
ولو عدت من
توبتك مئة مرة ،
تعال

جلال الدين الرومي



المعطوبة هي التي تنقل إلى المصلح ليصلحها، ولأن هذا العمل من أجل إصلاح الأخطاء فمن الطبيعي جدًّا أن تكون تلك الدعوة أكثر ما تكون للمخطئين.



وعلى هذا يجب أن تتم معاملة المقصرين والمخطئين بالرحمة والشفقة والتسامح الصوفي في تلك اللحظات التي يشعر فيها المرء بالتقصير في جنب الله، لأن هذا التصرف يحيط بالذنب والتقصير والخطأ من كل الوجوه، ويعد أيضًا أكثر التصرفات التي تزيد من احتمال النجاة والإصلاح بركة وفيضًا.

ولكن يجب ألا ننسى أن التسامح مع المذنبين يكون في الذنوب والمعاصي الفردية فقط، وإلا فليس من الصواب النظر بالتسامح والشفقة لمن يحملون للمجتمع الخراب والإيذاء، ويقومون بمظالم وأخطاء تهدد أمن وسلامة المجتمع، كما أنه ليس خطأ أبدًا النظر بنظرة الغضب للمذنبين الذين يعيشون في محتوى المقاييس السطحية للدين فقط، والوقوفُ بعيدًا عن المذنب من أجل ذلك أمرٌ ضروريّ من أجل حماية القلب من الأضرار التي ستنتج عن التآلف معه، أما السادرون في غفلاتهم فإنهم يتقبلون الذنوب بصدر رحب وكأنها موسيقى عذبة، ولذا فإن استخفاف الذنب يؤدي إلى عدم احترام التعاليم الإلهية

ينبغي أن لا نقل التسامح مع المذنب إلى الذنب، وألا تكون العداوة للذنب منعكسة على المذنب.



من جهة، وإلى اختلاط هذا القلب بالذنب من جهة أخرى ويكون مهلكة للعوام، أي ينبغي أن لا نقل التسامح مع المذنب إلى الذنب، وألا تكون العداوة للذنب منعكسة على المذنب.

وآخر ما نقوله هنا هو الحديث النبوي الشريف القائل:

«يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا»[٩٠]

ولكن بشرط عدم الإضرار بروح الدين، أو الميل عن الاستقامة..

اللهم اجعلنا من أهل الحب الحقيقيين الذين تمتلئ أيامهم بالحكم الإلهية، واجعلنا عالمين بأسرار الدارين، واجعل قلوبنا منبع الحمية والرحمة والشفقة للمخلوقات، وبدّل ذنوبنا حسنات، آمين!!



قال النبي ﷺ:

«يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا»

(البخاري، العلم، ١١)

٩٠ البخاري، العلم، ١١/ ٦٩.



الأدب والمقاييس في الخدمة:

إن الخدمة وظيفة اجتماعية، وهي عبادةٌ طالب الله بها عباده، وقد جعل الله تعالى البركة في حياة المؤمن مرتبطة بخدمة المخلوقات، فبالخدمة يكتسب العبد العمق والمعنى، فالخدمة تشكل قسمًا مهمًا من الأخلاق الإسلامية، لأن الخدمة هي البحث دوما على صورة التوجه إلى المخلوقات بروح تحب الغير، روح تخلصت من الأنانية، والخدمة الصادقة هي التي تُؤدى طلبًا لرضاء الله تعالى وتكون بعيدة عن الأهواء النفسية، وهي في الحقيقة تعبير عن الاشتياق والبحث عن الوصل بالله وتنعكس على التصرفات.

وعلى هذا فيجب أن يتم أداء كل الخدمات في أكمل صورة من حيث الماهية والكيفية، وهذا لا يتم إلا برعاية مجموعة من الآداب والمقاييس، أي إن المجهود المبذول في الخدمة المعنوية أو المادية يحمل أهمية كبيرة، والأهم منه كيفية القيام بها قلبيا، وبأي مرتبة ودرجة تتم تلك الخدمة، لأن الخدمة لا تكون مقبولة ومباركة إلا بذلك، ولهذا قال الأكابر: "الخدمة مهمة، ولكن الأدب في الخدمة أهم". وأوضحوا بذلك أهمية أداء الخدمة بقلب صادق ممتلئ بالفيض الروحاني، وأن تكون الخدمة متفقة وتابعة

"الخدمة مهمة، ولكن الأدب في الخدمة أهم".



لأصولٍ وآدابٍ معلومة، لأن الحق تبارك وتعالى يريد أن تكون أعمالنا صالحة، ولهذا ينظر في أعمالنا إلى أي درجة روعيت فيها التقوى، أي إنه ينظر إلى أعمالنا من حيث كيفية أدائها من ناحية الأصول والأركان، كما ينظر إلى الكيفية القلبية التي تم بها العمل، ولهذا فإن الفقير ماديًّا الغني بقلبه سيدخل الجنة بشق تمرة، أما الغني ماديًّا الفقير بقلبه فسيخسر خسرانًا مبينًا، حتى ولو أنفق أمواله كلها.

وهذا يعني أن قبول الله تعالى للعبادات التي نقوم بها إنما هو مرتبط بحب فياض وإخلاص يتدفق في ثنايا القلوب، ولربَّ عملٍ يبدو في ظاهره كبير، ولكنه في القلب لا يساوي شيئًا، ولربَّ عمل يُرى في ظاهره أنه بسيط لكنه في مقاييس القلوب الراقية عمل عظيم لا تسعه السماوات والأرض، ووسيلة لكسب روحاني لا ينقطع.

إن أهم خاصية هي الروح وأحاسيس القلب، أي المقاييس والآداب التي يراعيها القلب في العبادة، وتكتسب هذه الحقيقة أهمية أكبر في الخدمة.

وعلى هذا فإن أهم خاصية هي الروح وأحاسيس القلب، أي المقاييس والآداب التي يراعيها القلب في العبادة، وتكتسب هذه الحقيقة أهمية أكبر في الخدمة، فحين نرى أن القرآن أمر بالصلاةِ في مسجد قباء، وهدمِ مسجد الضرار الذي أسسه المنافقون ونهى عن الصلاة فيه، نعلم الفرق، إنه فرق ما بين السماء والأرض، وما بين الجنة والنار، فبالرغم من أنهما من الخارج يبدوان واحدًا، لكنهما من الداخل مختلفان جدا.



"هناك الكثير من الأشخاص لديهم القبول والاستعداد الكبير للخدمة، إلا أن ظروف ومقتضيات الزمان والمكان قد تحول بينهم وبين أدائها، أما القائمون بالخدمة فيجب عليهم أن يعرفوا أن الخدمة نعمة وأن يزدادوا في تواضعهم، بل إنه يجب عليهم أن يشكروا من يؤدون إليهم الخدمة لأنهم كانوا سببًا في إيجاد تلك النعمة لهم".

موسى أفندي

وهذا هو الحال نفسه بين الخدمات التي تُؤدى بمقاييس الأدب، والخدمات التي تُؤدى دون مراعاة لمقاييس الأدب.

ولهذا يجب على الشخص كي ينجح في خدمته أن يكون ذا شخصية تتصف بالوقار والخبرة والعرفان والعلم والأهلية، وعلى العكس من ذلك فإن كانت الخدمة غير خالصة وتشوبها الغفلة فإنه من الصعب جدًّا انتظار الخير والبركة منها، فتكون النتيجة لا طائل وراءها.

وإنسان الخدمة بهذا الاعتبار يجب ألا يكون كابوسا يتوهم العلوية في نفسه، ولكن على النقيض يجب أن يكون المؤمن مضحيا مستعدا لبذل كل ما لديه في سبيل سلامة الأرواح من الكبر والشهرة والثروة، إن إنسان الخدمة الحقيقي هو إنسان القلب الذي مصدره وهدفه الإيمان، الذي يعرف أداء الخدمة لكل إنسان بالمحبة، والذي يتخذ من الخدمة شعارًا له، فيكون عند المنعزلين في كل بؤس ومأتم، ويمكن أن نعدد الآن الأوصاف التي ستكون دستورًا في إنسان الخدمة، والمقاييس والآداب التي يجب أن ننتبه إليها مرتّبا فيما يلي:

١ - إدراك أهمية الخدمة:

يجب على أهل الخدمة أن يفكروا في أنَّ مايقومون به من خدمة إنما هو لطف وغنيمة كبيرة من أجلهم هم أولا



وقبل كل شيء، وأن يعلموا أن هذا هو أول دستور للخدمة، وعليهم أن يدركوا أن دوام النعمة يكون بشكر الله تعالى عليها، فعليه يلزم لهم أن يكونوا في شعور الحمد والشكر لله تعالى، وأعلى خدمة يمكن للإنسان القيام بها هي إعلاء كلمة الله، وهي وظيفة قدسية ودعوة عظيمة حث الله المؤمنين عليها.

والقرآن الكريم والسنة النبوية هما أمانة الله ورسوله علينا، وكما حمل الصحابة الكرام وأجدادنا تلك الأمانة لمدة تزيد عن ١٤٠٠ عام على أكمل وجه، علينا نحن أيضا أن نحملها إلى الأجيال القادمة بنفس الشكل، لأن هذه الخدمات ستكون رأس مالنا يوم القيامة تأشيرة الدخول إلى الجنة إن شاء الله.

وقد أوضح والدنا المرحوم موسى أفندي -قدس سره- الذي قضى عمره في خدمة كل المخلوقات أهمية الخدمة فيما يلي:

"يجب على المؤمن ألا ينظر إلى صغر العمل أو كبره، وإنما عليه أن يؤديه بإخلاص كلما حانت له الفرصة، لأن كثيرا من الناس يقومون بالأعمال الكبيرة، ويهملون الأعمال التي تبدو في نظرهم صغيرة، بالرغم من أنهم لا يعرفون أي الأعمال سيقبلها الله تعالى وأيها سيكون مرضيًّا عنه".

"يجب على المؤمن ألا ينظر إلى صغر العمل أو كبره، وإنما عليه أن يؤديه بإخلاص كلما حانت له الفرصة، لأن كثيرا من الناس يقومون بالأعمال الكبيرة، ويهملون الأعمال التي تبدو في نظرهم صغيرة، بالرغم من أنهم لا يعرفون أي الأعمال سيقبلها الله تعالى وأيها سيكون مرضيًّا عنه".

موسى أفندي



"اشكر الله الذي وفقك لأعمال الخير، ولم يحرمك من لطفه وإحسانه؛ فمن يخدم السلطان لا يستطيع أن يمنن عليه، بل يظل شاكرًا له لأنه استعمله".
الشيخ سعدي

وهنا علينا أن نعلم أن فرصة أداء الخدمة ليست مقدرة لكل شخص، فهناك الكثير من الأشخاص لديهم القبول والاستعداد الكبير للخدمة، إلا أن ظروف ومقتضيات الزمان والمكان قد تحول بينهم وبين أدائها، أما القائمون بالخدمة فيجب عليهم أن يعرفوا أن الخدمة نعمة وأن يزدادوا في تواضعهم، بل إنه يجب عليهم أن يشكروا من يؤدون إليهم الخدمة لأنهم كانوا سببًا في إيجاد تلك النعمة لهم.

يقول الإمام الرباني في ذلك:

وكما أن شخصًا واحدًا يمكن أن يكون سببًا في حصول العديد من الأشخاص على الكمال، فإنه يمكن أيضًا أن تكون مجموعة من الأشخاص سببًا في كمال إنسان واحد، لأنه كما يمكن أن يكون المدرس الواحد سببًا لكمال العديد من الطلاب، كذلك يكون كل طالب سببًا في كمال المعلم.

ونحن مضطرون إلى أن نعلم ونعرف النعم التي أحسن الله تعالى بها إلينا، وأن نبذل قصارى جهدنا في أدائها في سبيل الله تعالى، وهذه علامة إخلاصنا في الإيمان، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥)



من ناحية أخرى فقد أخبرنا الله تعالى بالواجب علينا إنفاقه من الأموال، فالشخص الذي يؤدي زكاة ماله بهذا الاعتبار يكون قد أدى الخدمة اللازمة في ماله، ونظرًا لأنه لا يمكن تحديد نسبة القبول والاستعداد اللذين وضعهما الله في الإنسان، فإننا مضطرون حينئذ إلى بذل أقصى ما عندنا في أداء الخدمة، وأن نجتهد في ذلك إلى آخر لحظة في حياتنا، لأن تلك الكيفية مجهولة عندنا، معلومة عند الله تعالى، ولهذا يجب علينا بذل أقصى طاقتنا ومجهودنا في سبيل الخدمة، ويقول الله تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ (البقرة: ٢٨٦)

ولهذا السبب يجب ألا يكتفي المؤمن بالخدمة التي أداها، بل يجب عليه أن يبحث دوما عن الخدمات الأخرى التي يمكن أن يؤديها، وأبرز مثال على ذلك: الصحابي الجليل عبد الله ابن أم مكتوم، فهذا الصحابي على الرغم من أن رسول الله ﷺ قد عذره من الاشتراك في المعارك -لأنه كان كفيف البصر- فقد اشترك في معركة القادسية قائلًا في نفسه: لعلي أستطيع أن أحمل الراية، وهذا مظهر واضح على ما حمله هذا الصحابي في قلبه من حب لا حدود له لأداء الخدمة على كل حال.

فيجب على المؤمن ألا ينظر إلى ضعفه وقلة ذات يده، وألا يستسلم لليأس والغفلة والتراخي، ويجب ألا يفكر في

السرير كفن لي،
والحوض تابوت لك
انحرف أنت عن الطريق ولأذهب أنا، خاتم الأنبياء دليلي.

نجيب فاضل كيساكوراك



أن الخدمات التي سيؤديها في سبيل الله ستنتهي، بل عليه أن يعيش بحماسة المجاهدة ودوام الخدمة حتى آخر عمره.

والآية الكريمة التي تقول:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحِجْر: ٩٩)

تنبّه إلى ضرورة أنه يجب أن يستمر العبد في الخدمة مادام ذا قدرة، وذلك بموجب عبوديته.

والحادثة التالية توضِّح لنا بجلاء كيف يجب أن يكون مقياسنا في هذا الموضوع:

عن مالك بن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد:

«من يأتيني بخبر سعد بن الربيع، فإني رأيت الأسنة قد أشرعت إليه»

فقال أُبي بن كعب: أنا، فذهب يطوف بين القتلى فوجده، وبه رمق، فقال: بعثني رسول الله لآتيه بخبرك، قال: فاذهب فأقرِئْه مني السلام، وأخبره أنني قد طعنت اثنتي عشرة طعنة، وقد أنفذت مقاتلي، واقرأ على قومي السلام وقل لهم: يقول لكم سعد بن الربيع: "الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله ليلة العقبة، فوالله ما لكم عند الله عذر إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف".. [٩١] أقوال سعد هذه كانت وصية للأمة ووداعا للحياة الفانية.

"الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله ليلة العقبة، فوالله ما لكم عند الله عذر إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف"

سعد بن الربيع رضي الله عنه

---

٩١ ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ.٢، ص٥٩٠ .



وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

"لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء، وما من عمل أرجى من "لا إله إلا الله"، وأنا متترس بها".

وهذه المقولة أيضًا تُظهر مدى الشعور بالمسؤولية الكبيرة التي كان يشعر بها خالد رضي الله عنه.

وهذه المسؤولية وهذه الحساسية يمكن أن تشمل كل ساحات الخدمة في سبيل الله عز وجل، ويجب على كل مؤمن أن يحصل على نصيبه من تلك المشاعر، وأن تكون تلك المشاعر مقياسًا نموذجيًّا لتصرفاته، ويجب عليه أن يدرك خطورة وعظمة التخلي عن أداء الخدمة، إن كان قادرًا على أدائها، ويجب ألا يغفل المؤمن عن أن التصرف خلاف ما ذكرنا سيعرضه لخطورة كبيرة بالنسبة لحياته الأبدية.

إن الخدمة فضيلة قام بها الأنبياء والأولياء، لم تتوقف تلك الشخصيات العظيمة عن أدائها في مرضهم ولا حتى في سكرات موتهم، وهذا يعد مثالًا كافيًا لأهل العرفان للتعبير عن مدى ضرورة القيام بالخدمة.

"لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء، وما من عمل أرجى من "لا إله إلا الله"، وأنا متترس بها".

خالد بن الوليد رضي الله عنه



قلب الشخص الذي يقوم بالخدمة يجب أن يكون كالأرض الخصبة المنبتة، فكل المخلوقات التي تسير على تلك الأرض تصبّ فضلاتها فيها، ولكن الأرض تنظف نفسها، وتنبت النباتات الخضراء الجميلة التي يتغذى عليها كل من يسير فيها.

٢- تزيين القلوب بالخصال المعنوية:

يجب أن تمتلئ قلوب القائمين على الخدمة بالروحانية والفيض، وانكشاف أفق قلوبنا لا يتم إلا بالغذاء المعنوي، وسينتج عن هذا النضج تعميق مشاعرنا ومفاهيمنا، ولو اكتفى الأولياء الصالحون أمثال بهاء الدين نقشبند، وعزيز محمود هدائي، والغزالي، ومولانا، وغيرهم بالعلوم الظاهرية فقط، ولم يتعمقوا في علوم الباطن، لما تمكنوا من نَيْلِ هذا الموقع البرَّاق، كنجوم الثُّرَيَّا، في سماء قلوبنا منذ عدة عصور.

وهؤلاء الصالحون لم يكونوا مرشدين وأدلاء للناس، الذين يريدون بلوغ الهداية فحسب، بل وحتى للسلاطين الذين كانوا يوجِّهُون العالم، لأنهم شاهدوا الأحداث بنظر المحبة والعشق من نافذة الفؤاد ولأنهم أزاحوا الستار عن العلوم الظاهرية، والعلوم المنطقية والعقلية، فكانوا مظهرًا لتجليات المحبة الإلهية الفياضة.

وبالرغم من أن أجساد هؤلاء الأولياء قد واراها التراب منذ عدة عصور، إلا أن روحانياتهم وفيضهم وتجلياتهم القلبية ما زالت موجودةً إلى اليوم، ولا شك أنهم سيظلون أحياء بخدماتهم إلى ما شاء الله.

ومن أهم أهداف الخدمة أيضًا، أن يكون من يقوم بالخدمة وسيلة للهداية، وهذا يرتبط بحال الإنسان المرشد،

فصلاحنا في ذواتنا يؤثر على صلاح من حولنا، ومدى تطبيقنا الإسلام على أنفسنا في حياتنا اليومية يؤثر بالقدر نفسه على الآخرين، فالقلب نافذة تنفتح على الأسرار الإلهية، ومن يستعمل هذه الواسطة جيدا يشاهد عالم اللانهاية، والدخول إلى محتوى التوحيد يجعل العبد سيَّاحًا في عالم اللانهاية.

وحينما ننظر إلى حياة فخر الكائنات رسولنا محمد ﷺ نجد أن الوحي الإلهي نزل على قلبه أولًا، والآيات الكريمة التالية توضح ذلك، قال تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤)

إنَّ هذا القرآن الذي نزل على قلب نبينا أولًا، كان بمثابة عرض لتصرفات وأخلاق النبي ﷺ كأنها قرآن حي، وقد تحير الصحابة الكرام في هذه الشخصية وهذه السمة النبوية، فأخذوا سماتهم وأخلاقهم وشخصياتهم أولًا من القلب النبوي، وبذلك رأينا هؤلاء القوم الذين كانوا يعيشون حياة نصف وحشية قبل الهداية، يَصِلُون بالإسلام إلى الكمال في تصرفاتهم، لأنهم حصلوا من الفيض النبوي على نصيبهم، وبذلك أصبحت مدينتهم المدينة الفاضلة في التاريخ الإنساني، والمؤمنون الذين جعلوا دين الله غايتهم وهدفهم في الخدمة، يجب عليهم أن يتخذوا من تلك



الخدمة المحرومة من الفيض الروحي مثل ماء دلو ينسكب في الصحراء، أو بذور توضع في أرض جافة فتصير طعامًا للفئران، أما بذور الخدمة التي تُلقى وتُؤَدَّى بالقلب فإنها تصبح شجرة دُلْب كبيرة في المستقبل، وعلى هذا، فيجب على الإنسان أن ينتبه في خدمته لغذائه المعنوي في حياته الشخصية.



الأحوال المباركة للصحابة نموذجا لهم، وأن يكون لهم نصيب من هذا الفيض وهذا السر، وأن يملؤوا قلوبهم بهذا الفيض القرآني.

فالخدمة المحرومة من الفيض الروحي مثل ماء دلو ينسكب في الصحراء، أو بذور توضع في أرض جافة فتصير طعاما للفئران، أما بذور الخدمة التي تُلقى وتُؤَدَّى بالقلب فإنها تصبح شجرة دُلْب كبيرة في المستقبل، وعلى هذا، فيجب على الإنسان أن ينتبه في خدمته لغذائه المعنوي في حياته الشخصية، وأن يهتم بالروحانية في العبادات، وبحب الغير، واللطف والرقة في المعاملات، وبذلك يصل إلى النضوج الروحي، والعبد الذي يتصف بتلك الأوصاف، يمكنه الوصول بها إلى المحبة الإلهية، ولهذا يقول الرسول ﷺ:

«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ»[٩٢]

وقلب الشخص الذي يقوم بالخدمة يجب أن يكون كالأرض الخصبة المنبتة، فكل المخلوقات التي تسير على تلك الأرض تصبّ فضلاتها فيها، ولكن الأرض تنظف نفسها، وتنبت النباتات الخضراء الجميلة التي يتغذى عليها كل من يسير فيها، ويجب أن تكون قلوب الذين يقومون بالخدمة كتلك الأرض المنبتة، فكل الجمال الموجود في

يقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ» (مسلم، الزهد، ١١)

٩٢ مسلم، الزهد، ١١/ ٢٩٦٥.



تلك القلوب يجب أن ينعكس على كل من تُقَدَّم إليه الخدمة، ولكي نكون من هؤلاء علينا أن ننتبه إلى أربع خصائص:

أ. يجب أن يكون القلب دائمًا مع الله:

يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠ - ١٩١)

ويقول أيضًا في سورة الرعد:

﴿...أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)

إن ذكر الله ﷻ لا يكون باللسان فحسب، ولكن يكون باطمئنان القلب بهذا الذكر، فالسعادة التي يجلبها التقرب إلى الله للقلب تظهر بهذه الصورة.

وعندما يستقر شعور المعية الإلهية في قلوب من يقومون بالخدمة، فإنهم لا يجدون أية مشقة في تلك الخدمة، بل تتيسر لهم كل المصاعب، فيؤدون الخدمة بشوق وحب، والخدمة التي تُؤَدَّى بالحب والشوق تكون صحيحة من ناحية، ويشعر من يؤديها بمتعة معنوية من ناحية أخرى، ولهذا يجب تطهير القلب عما سوى الله تعالى،

قال الله ﷻ:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾

(البقرة، ١٦٥)



المحبة والعشق كخط كهربائي يصل بين قلبين، والذين يحبون لا يستطيعون أن يُخرجوا من قلوبهم من يحبونهم، كما لا يستطيعون التخلي عن ذكرهم، ويعيشون ويموتون في طمأنينة، وهم يبذلون بسخاءٍ أموالهم وأرواحهم في سبيل من يحبون.

وإخلاص محبته لله، وقد أورد ابن عربي في كتابه مشكاة الأنوار هذا الحديث القدسي:

«**يا ابن آدم، خلقتك من أجلي، وخلقت الأشياء من أجلك، فلا تهلك نفسك فيما خلقت من أجلك**»(٩٣) "أي في سبيل الدنيا"

ب. ملء القلب بحب الله ورسوله:

المحبة في الخدمة هي بداية الترقي، وهذه النقطة هي المكان الذي يبدأ منه كل شيء في الأساس، والقلب من بعد هذه النقطة يبدأ في الانكشاف المعنوي، وعرض جمالياته.

ويجب أن يكون حب الله ورسوله أشد من أي حب آخر في القلوب، يقول الله تعالى:

﴿**...وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...**﴾ (البقرة: ١٦٥)

ويقول أيضًا:

﴿**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ (التوبة: ٢٤)

---

٩٣ مشكاة الأنوار، خزينة الأنوار، ١٢٥ – ١٢٦.



ولو امتلأت القلوب بحب الله ورسوله فإن كل الجماليات تنعكس حينئذ على قلوبنا، إن محبة الله ورسوله لا تُعرف فقط من السطور، وإنما تعرف بالمحبة التي في الصدور، والذي يحب يشتاق لمن يحبه ويقلده، لأن المحبة والعشق كخط كهربائي يصل بين قلبين، والذين يحبون لا يستطيعون أن يُخرجوا من قلوبهم من يحبونهم، كما لا يستطيعون التخلي عن ذكرهم، ويعيشون ويموتون في طمأنينة، وهم يبذلون بسخاءٍ أموالهم وأرواحهم في سبيل من يحبون، وحتى نتمكن من حب النبي ﷺ، ونكون جديرين بمحبته، لا بد أن تكون ألسنتنا رطبة بالصلاة عليه، وأن تكون قلوبنا مرتبطة به على الدوام، فبقدر اتباعنا للرسول ﷺ نصل إلى الكمال، وقد قال الله تعالى في كتابه تكريما لنبيه ﷺ في كتابه:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦)

ويقول في آية أخرى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)

وقد رأينا في الصحابة الكرام تجليًّا لهاتين الآيتين الكريمتين، وأن محبتهم للنبي ﷺ قد وصلت إلى ذروتها،

هو كالوردة في هذا الزمان وجمال الوردة حكاية على كل لسان.

يحيى كمال



"الوردة رمز للنبي صلى الله عليه وسلم، أي إن فخر الكائنات هو وردة الورود بأخلاقه، وسلطان كل الورود بكل أحواله الظاهرة والباطنة".

والذين يصلون إلى منبع المحبة في الله ورسوله سيظلون إلى يوم القيامة هم المختارون من أمة محمد، وسيذكرون بالأدعية والرحمة في كل وقت بعد موتهم، وهذه هي حال اثنين من محبي رسول الله الذين لا يحصون، والذين تمكنوا من الوصول إلى تلك الحال:

بعث النبي ﷺ سرية عينا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت -وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب-، فانطلقوا حتى إذا كان بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلا نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد، وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا، أن لا نقتل منكم رجلا، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصما في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم، فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب، وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى



خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيرا، حتى إذا أجمعوا قتله، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي، فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك مني وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله، وكانت تقول: ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم، فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللهم أحصهم عددا، ثم قال:

ما أبالي حين أقتل مسلما ... على أي شق كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليأتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر، فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء[٩٤]

"إعطاء المال والملك لا يليق إلا بالكريم، وكرم العاشقين إنقاذ الأرواح. إن أَعطيت خبزًا لوجه الله أُعطيت خبزًا، وإن أعطيت روحًا في سبيل الله، أُعطيتَ روحًا".

جلال الدين الرومي

٩٤ البخاري، المغازي، ١٠/ ٤٠٨٦؛ الواقدي، المغازي، ٢٨٠ – ٢٨١.



ومن محبة رسول الله ﷺ أيضًا أن الشباب من الصحابة كانوا يتسابقون من أجل نيل شرف حمل رسائله إلى الملوك والأمراء، لقد كانوا يتهافتون على تنفيذ مطالبه بكل حب لخدمته، كانوا يحملون الرسائل ويتخطون بها الصعاب والجبال الوعرة، ويمرون من بين يدي الجلادين ويقفون أمام الملوك، ويقرؤون رسائل رسول الله ﷺ بشجاعة إيمانية كبيرة، وما فعلوا ذلك إلا عن إيمان، وبقلوب مفعمة بالحب لرسول الله ﷺ.

إنه إيمان وحب وشجاعة الصحابة، تلك الملاحم التي سطروها بشجاعتهم، وكنا نقف أمامها بكل حيرة ودهشة، لم يتحير ولم يتعجب منها عشاق الله ورسوله، لقد كانت كل تلك الغايات ليكونوا مظهرًا لإحسان رسول الله ﷺ.

وإن عمران القلوب بحب رسول الله ﷺ سيكون البذور المباركة للخدمات المقدسة من بعد ذلك.

قال الله ﷻ:
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾
(الحجرات: ١٠)

ج - ملء القلوب بمشاعر الأخوة في الدين:

حيثما وجدت الأخوة وجدت معها الرحمة والشفقة، فلا يكتمل إيمان امرئ إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ١٠)



وقال النبي ﷺ:

«لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ» (٩٥)

وقال:

«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ-منهم-: **رَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ...»** (٩٦)

وورد في الحديث القدسي:

«وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ» (٩٧)

وها هو رسول الله ﷺ يروي لنا خبرًا يظهر مثلًا راقيًا في التآخي في الله، والتحابب فيه:

«أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ

قال النبي ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَلَا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

(مسلم، الإيمان، ٩٣)

---

٩٥ مسلم، الإيمان، ٩٣/ ٥٤.

٩٦ البخاري، الأذان، ٣٦/ ٦٦٠.

٩٧ أحمد بن حنبل، المسند، جـ ٥، ٢٢٩/ ٢٢٠٣٠.



أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ ﷻ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ» [98]

ولأن محبة أهل الخدمة بعضهم بعضًا تعمل على تأليف قلوبهم، فإن تلك المحبة تشكل أرضية مباركة مطمئنة مفعمة بالفيض، وتزيدهم قوة إلى قوة، فما من صعوبة إلا تسهل بالتآزر والتساند في جو المحبة، وقد مدح الله تعالى الذين يقاتلون في سبيله صفًّا، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤)

والتاريخ شاهد على الانتصارات التي لا تحصى للكثير من الجيوش التي تصافّت مع بعضها في حب وإيمان، وحرب "جناك قلعه" واحدة من التجليات الشاهدة في تاريخنا الحديث على هذا.

فالقوة الإيمانية التي كانت تتمتع بها جيوشنا -وقد كانت في وضع مادي صعب جدا- عملت على اكتساب هذا الجيش النصر بدلًا من الهزيمة، لدرجة أن العدو نفسه اضطر للاعتراف بهذه المساعدة الإلهية للجيش، فيقول الجنرال الإنجليزي همليتون:

قال الله ﷻ:
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾
(الصف: ٤)

---

٩٨ مسلم، جـ ١٢، ٤٣٤ .



"لقد انهزمنا أمام القوات التركية بالقوة المعنوية وليس بالقوة المادية، وقد شاهدنا مَن ينزلون من السماء لمساعدتهم".

والحاصل أن الآية الكريمة تجلّت في جيش مؤمن مخلص نال المحبة الإلهية؛ لأن الجندي المفعم بالإيمان كان يدرك أنه لو استشهد سينال السعادة، وإن عاش سيحيا بشرف الجهاد والانتصار، وكأن كل جندي من هؤلاء الجنود أمة بنفسه، لقد واجه جنود محمد في معركة "جناك قلعه" كل الأمم بصدور ممتلئة وعامرة بالقرآن والإيمان، وكان الرائد لطفي بك يصيح في المعركة قائلًا:

"هيا يا محمد! فإن كتابك ذاهب!".

وكأن الأولياء كانوا يسيرون بالرايات أمام الجيش، وكأن محمدًا ﷺ كان يحتضن الشهداء.



وقد حرّم الله تعالى على المؤمنين العداوة والسخرية فيما بينهم، والبحث عن عيوب الآخرين، وسوء الظن بالغير، وقد حذر بشدة في القرآن الكريم من تلك الأخلاق السيئة فقال:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (الهُمَزة: ١ – ٣)

قال الله ﷻ:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

(الفتح، ٢٩)



وبذلك نجد أن الله تعالى حكم على هؤلاء الناس -الذين يسخرون ويستخفون بالآخرين سواء بالقول أو بالعمل، والذين اتخذوا من القيل والقال ونشره بين الناس عادة لهم- حكم عليهم بوادٍ في قعر جهنم يسمى الحُطَمة، وهذا بالطبع من أسوأ العواقب وأحزنها.

وقد حث الإسلام على أن تكون قلوب المؤمنين متصفة بالعفو والستر على المساوئ، ودعاء بعضهم لبعض، حتى ينجوا بأنفسهم من تلك العاقبة المؤلمة في الآخرة، لاسيما وأن الرسول ﷺ قال:

«إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا» (٩٩)

لقد آخى فخر الكائنات رسولنا ﷺ بين أصحابه الكرام أخوة كانت -ولا زالت- قدوة ومنهاجًا يسير عليه المؤمنون إلى يوم القيامة، إن الأخوة التي زرعها نبينا الكريم ﷺ في قلوب المهاجرين والأنصار هي خير قدوة لنا، فقد تقاسم الأنصار أموالهم وبيوتهم مع إخوانهم المهاجرين، فقال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما:

"يا أخي إنني أكثر الأنصار مالاً، فتعال أقسم بيني

الأخَّان في الدين كاليدَين تغسل كل منهما الأخرى.

٩٩ مسلم، البر، ٢٨/ ٢٥٦٣؛ البخاري، الفرائض، ٢/ ٦٧٢٤



وبينك هذا المال، وإن لي زوجتين، فانظرْ أيهما تعجبك فأطلقها، فتتزوجها بعد انقضاء عدتها".

وبالمقابل كانت قلوب المهاجرين ناضجة قانعة بما لديها، فأجاب عبدُ الرحمن بن عوف سعدَ بن الربيع قائلا:

"بارك الله في مالك وأهلك، ولكن دلَّني على السوق، فأعمل، فخير الكسب عمل المرء".

وقد ذكر الله تعالى هذه الأخوة التي كانت بين المهاجرين والأنصار، وأثنى عليها في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩)

والحادثة التالية التي رواها حذيفة العدوي تحمل من العظات والعبر الكثير والكثير لما فيها من إظهارٍ لمعاني الأخوة، يقول ﵁: انطلق حذيفة العدوي في معركة اليرموك يبحث عن ابن عم له، ومعه شَرْبة ماء، وبعد أن وجده جريحًا، قال له: أَسقيك؟ فأشار إليه بالموافَقة، وقبل أن يَسقيه سمِعَا رجلاً يقول: آه، فأشار ابن عم حذيفة إليه؛ ليذهب بشربة الماء إلى الرجل الذي يتألَّم، فذهب إليه حذيفة، فوجده هشام بن العاص.

نفقة التضحية والكرم هي المحبة.



ولما أراد أن يَسقيه سمعا رجلاً آخر يقول: آه، فأشار هشام لينطلِق إليه حذيفة بالماء، فذهب إليه حذيفة فوجده قد مات، فرجع بالماء إلى هشام فوجده قد مات، فرجع إلى ابن عمه فوجده قد مات، فقد فضَّل كلٌّ واحد منهم أخاه على نفسه، وآثره بشربة ماء. إن المحبة ليست دعوى جافة، ولكن المحبة هي التألم لألم إخوتي، وتلبية احتياجاتهم وإظهار التضحية والتنازل لهم، وتقاسم النعمة التي في أيدينا معهم، والأخوة الحقيقية كما وردت في المثال السابق، هي الأخوة التي تظهر في الأوقات الصعبة، وقد قال النبي ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» (١٠٠)

وذات يوم سأل النبي ﷺ صحابته: من مسح منكم رأس يتيم؟ من عاد منكم اليوم مريضًا؟ من شهد منكم اليوم جنازة؟ والنبي ﷺ بهذه الأسئلة يبين أن المؤمن لا يكون مؤمنًا بمفرده، وإنما يكون مؤمنًا بتفاعله مع المجتمع، كما يجلي ضرورة كون المؤمن يمتلك قلبًا مفعمًا بحب الخير للغير.

وقد أوضح النبي ﷺ أن هذه الخدمات الاجتماعية تعد وسيلة لإظهار العبودية لله تعالى، حيث يخبرنا بالحديث القدسي فيقول:

قال النبي ﷺ:
«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»
(مسلم، البر، ٦٦)

---

١٠٠ مسلم، البر، ٦٦/ ٢٥٨٦.



«إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي» (١٠١)

والآية الكريمة التالية تلفت الانتباه بشدة إلى مدى أهمية التآخي وحب الخير للغير، يقول تعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (الإنسان: ٨ – ١١)

المحبة ليست دعوى جافة، ولكن المحبة هي التألم لألم إخوتي، وتلبية احتياجاتهم وإظهار التضحية والتنازل لهم، وتقاسم النعمة التي في أيدينا معهم.

---

١٠١ مسلم، البر، ٤٣/ ٢٥٦٩.



والخلاصة أن أهل الخدمة يجب أن يتنزهوا عن المشاعر السلبية التي تذهب بركة وحب الخدمة كالبغض والحسد والتراخي عن أداء الخدمة، كما يجب أن يكون لهم نصيب من الأرضية المباركة للمحبة التي تشرح قلوبهم وتجعلهم ناضجين.

د- أن يمتلئ القلب بالرحمة والشفقة والحب للمخلوقات:

عندما يمتلئ القلب بالفيض الإلهي فإنه تتولد فيه حينئذ الرغبة في خدمة المخلوقات، والذين يقيمون علائق الصحبة والمحبة على الله ورسوله يكونون أصحابًا لكل المخلوقات، والقلب المفعم بالخدمة يتسع ليشمل كل المخلوقات، ويكون بذلك قلبًا غنيًّا، فيصير كالتكية تحيط كل المخلوقات بالرحمة والرأفة.

فالخدمة لا تؤدى إلا بقلب حي غني، وتعطي أيضًا ثمارها المباركة، وعندما يصل الإنسان إلى تلك الحال فإنه يكون بمثابة مركز المحبة، والبذور التي تلقى بالمحبة بذور أبدية، ولهذا يجب علينا أن نحيي أنفسنا أولًا بحب الله ورسوله، ثم علينا أن نخطط حياتنا طبقًا لذلك.

الخدمة الصادقة هي التي تُؤدى طلبًا لرضاء الله تعالى وتكون بعيدة عن الأهواء النفسية، وهي في الحقيقة تعبير عن الاشتياق والبحث عن الوصل بالله وتنعكس على التصرفات.



٣- الحفاظ على الإخلاص والاستقامة:

الإخلاص والاستقامة وصفان لا يمكن لأهل الخدمة أن يتخلوا عنهما، فأن يكون الشخص من أهل الخدمة حقا شرف عظيم من الله ﷻ، ويجب على العبد أن يقدّر جيدًا قدر هذه النعمة السامية، وأن يبذل جهده في تحقيق الإخلاص والاستقامة في كل عمل يعمله، وإلا فعليه ألا ينسى أنه في حال عدم مراعاته لذلك يمكن أن تُسلَب تلك النعمة منه.

والذين أودعت لهم الوظائف والمهام الكبرى في الخدمات في سبيل الله، مضطرون للانتباه أكثر لهذا الموضوع، فالشخص الذي يتسلق إلى قمة جبل مرتفع عليه الانتباه إلى المكان الذي يضع فيه قدمه، وإلى الغصن الذي يتشبث به، وذلك لأن وضع القدم في مكان خطأ على القمة، أو الإمساك بفرع غير متين ستكون عواقبه خطيرة للغاية، ولعل ما رواه البيهقي:

"والمخلصون على خطر عظيم"، يعد أدق تعبير عن هذا.[١٠٢]

والذين يخدمون بإخلاص لديهم ضمان إلهي من الله ضد حيل ودسائس الشيطان وأعوانه، والآية الكريمة التالية توضح لنا تلك الحقيقة:

"الإخلاص ماء الحياة للقلب، والرياء يميت القلب".

عبد الله الأنطاكي

---

١٠٢ البيهقي، شعب الإيمان، جـ ٥، ص ٣٤٥.



﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص، ٨٢ – ٨٣)

والإخلاص من أهم شروط صحة الخدمة، وحينما يظهر الإخلاص يختفي الحقد والتفرقة والحرص، وحينئذ تهبط العقبات التي تواجه الخدمة إلى أدنى مستوى لها، وتتجلى آثار البركة التي هي ثمرة الإخلاص في أداء الأعمال الخيرية، وخاصة في تأسيس الأوقاف.

فالأوقاف، بالرغم من بعض الشروط، قد تعيش لعدة عصور بفضل الإخلاص في نية مؤسس الوقف، وماله الحلال الذي أسسه به، وحتى إن تعرض الوقف للانتكاسة من حين لآخر، فإن الله تعالى يضمن له من يحييه من جديد.

ويجب ألا نشك أبدًا في أن الإخلاص هو الغالب، وذلك لأن الأعمال التي تتم بالإخلاص تظل آثارها باقية ولا تضيع، حتى الجيوش التي كانت قليلة من حيث العدة والعتاد كانت تستطيع النصر على الجيوش الأكبر منها قوة بفضل بعض جنودها المخلصين الصابرين، وأكبر وأهم مثال على ذلك هو نصر غزوة بدر، أما في غزوة حنين فقد رأينا المسلمين في أول القتال ينهزمون لأنهم اغتروا بعددهم وقوتهم، وغار الإخلاص في داخلهم، إلا أن رسول الله ﷺ أيقظ المسلمين، وجعل أرواحهم تَنْشَط من جديد

إن لم يكن من في القمة منتبهين، فسقوطهم مسألة وقت.



بفضل التوجيهات والإرشادات التي أعطاهم إياها، فلما عاد الإخلاص والاستقامة لهم نالوا النصر المبين.

وأحد أهم علامات الإخلاص في الخدمة أيضًا، عدم انتظار الأجر إلا من الله ﷻ، وأجمل نموذج على ذلك هم الأنبياء والأولياء، فقد ورد في القرآن الكريم على لسان أكثر من نبي ورسول قوله تعالى:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٠٩)

والآية الكريمة توضح هذا المعنى جيدا.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك أيضًا قصة أصحاب القرية الواردة في سورة يس، حيث أرسل الله تعالى ثلاثة أشخاص إلى قرية من أجل دعوة الناس فيها إلى دين الحق، وقد عارض أهل البلدة هؤلاء الرسل، حتى إنهم هددوهم بالقتل والرجم بالحجارة، ولما سمع أحد الصالحين هذا التهديد للرسل هرول إلى قومه وقال لهم:

﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (يس: ٢٠ – ٢١)

وعلى هذا فإن الإنسان الذي يقوم بالخدمة إذا قام بها ابتغاء مرضاة الله، ولم يكن حريصًا على المنافع الدنيوية، فإنه بذلك يكتسب حب الله وحب الناس الذين يخدمهم.

أحد أهم علامات الإخلاص في الخدمة أيضًا، عدم انتظار الأجر إلا من الله ﷻ،



والحادثة التالية تعبر بشكل واضح للغاية عن هذه الحقيقة:

أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال رسول الله ﷺ:

«ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبّكَ النَّاسُ» (١٠٣)

والخلاصة أن القيام بأي عمل ابتغاء مرضاة الله تعالى يجب أن تكون بمثابة دستور عند أهل الخدمة.

ويجب ألا يميل أهل الخدمة عن الطريق الذي أمر الله الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين أن يسيروا فيه، بمراعاة الاستقامة، والتصرف في كل الأعمال والخصائص بما يتفق مع رضاء الله تعالى، فمدحهم الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ...﴾ (فصلت: ٣٠)

وأهل الخدمة عليهم قبل كل شيء أن يكونوا أسوة مؤثرة فيمن حولهم، وذلك لأن الناس عادة تتخذ من

قال النبي ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» (ابن ماجه، الزهد، ١)

١٠٣ ابن ماجة، الزهد، ١/ ٤١٠٢ .



أصحاب الشخصيات القوية والمؤثرة قدوة لها، والتاريخ الإسلامي مليء بمظاهر تلك الحقيقة التي لا تحصى.

وقد رأينا كل الثروات تنهمر على بغداد التي كانت مركز الدولة الإسلامية في العهد العباسي الذي اتسعت فيه حدود الدولة الإسلامية بشكل كبير، ونتيجة لذلك ازداد عدد الذين انغمسوا في حياة الترف والنعيم والملذات من الذين يميلون إلى الدنيا من أصحاب الطبقة الراقية، ومن هذا الترف حفل زواج ابنة الخليفة المأمون بالوزير الأول حسن بن سهل، فقد امتد هذا الحفل ١٩ يومًا، ووصلوا الى ذروة الترف والإسراف مثل المجانين، كانوا يتصرفون فيها بأهوائهم من خزينة الدولة، الأمر الذي أدى إلى ظهور حالة من السفاهة في المجتمع، فهذا الثراء والفخامة التي امتلكتها الدولة عمل على جذب الكثيرين إليها، فأسرت الكثير من القلوب، ولاشك في أن قلوبًا أسيرة كهذه لا يمكن أن تكون نموذجًا إيجابيًّا لمن حولها في أي وقت من الأوقات، ولم تترك تذكارا باقيا ولم تخلف أثرا جميلا.

وفي مقابل هذا كان يوجد أيضًا في بغداد في ذلك الوقت أولياء الله الذين يدعون إليه، ويسعون لتزكية النفوس، وإرشاد القلوب، وإحيائها وفقا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لقد كانوا يعيشون حياة التقوى بعد أن وهبوا أنفسهم في سبيل الله، ومن أمثال هؤلاء: عبد الله بن المبارك، وسفيان

أيها الإنسان، انظر إلى المرآة، وتفكر في الجمال الذي يصير قبحًا، وفي البناء الذي يصير خرابًا، كي لا تُخدَع بتلك المرآة.



الثوري، وفضيل بن عياض، وجنيد البغدادي، ومعروف الكرخي، وبشر الحافي، وهؤلاء الرجال الذين احتلوا مكانة عظيمة في العالم الإسلامي خدموا بأخلاق سامية خدمة فاضلة، وعاشوا في سبيل تلك الخدمة على عكس من عاش معهم في نفس المجتمع وسط الملذات والترف والمجون، ولهذا فإن السلطنة الدنيوية بفخامتها وما تحمل من ترف لم تتمكن من شراء قلوب هؤلاء الأولياء، ولم يستطع أيضًا أي منصب في هذه الدنيا أن يأخذهم بعيدا عن وظيفتهم ومهمتهم المباركة، بل إنهم كانوا دائمًا بمثابة الملاذ والحماية للأشخاص الذين أوشكوا على الهلاك في طوفان الترف، لقد كان السلاطين والوزراء وأركان الدولة يحكمون الأبدان والأجساد، أما أولياء الله فقد أسسوا العروش في القلوب، فهم يخدمون الناس بتضحية كبيرة دون أن ينتظروا منهم أي منفعة مادية، وكانت أحوالهم الإيمانية المفعمة بالخشوع تؤثر حتى في غير المسلمين.

قَدِمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هارون الرشيد الرقة، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، وتقطعتْ النعال، وارتفعتْ الغبرة، فأشرفتْ أم ولد أمير المؤمنين في برج الخشب، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟ قالوا لها: عالم خراسان قدم الرقة، يُقَالُ له: عبد الله بن المبارك. قالت: هذا والله الملك، لا ملك هارون الرشيد، الذي لا يجمع الناس إلا بالشرط والأعوان.

ليس التعلم مجرَّد معلومات بل التحلي بشخصية، فالناس يبهرون بالشخصية الفذة.



حقيقةً إن العباد الصالحين -أمثال عبد الله بن المبارك- على مدى التاريخ كانوا يسعون للحفاظ على شرف واعتبار الإسلام ونشاطه المعنوي بسماتهم القوية وشخصياتهم، وقد أخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز بأنه يحب هؤلاء العباد لحسن أخلاقهم وقوة إيمانهم، ولذلك حببهم إلى المؤمنين حتى يوم القيامة، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (مريم: ٩٦)

وعليه فيجب على الشخص الذي يقوم بالخدمة أن يكون شخصًا يُعتمد عليه في القول والعمل، وأن تعتلج في أعماقه مشاعر الانتماء إلى الأمة المسلمة وأنه فرد من أمة محمد الذي اتصف من قبل بـ"الصادق" و"الأمين"، ولن يتحقق كل ذلك إلا بعبودية مبنية على الاستقامة، وعليه فيجب على من سيقوم بالخدمة أن يكون متيقظا في حياته الشخصية وفي الخدمات التي يبذلها ومتنبها لأي مزلق في طريقه وكأنه يمشي على الصراط.

لقد كان الإمام أبو حنيفة أكثر قوة وتنعم بحرية كبيرة حين كان في السجن بعد أن رفض منصب القضاء في بغداد وردَّ المنافع الدنيوية، فأخفقت حيلة الخليفة. ومن كان عبدًا لله لا يكون عبدًا للمنافع الدنيوية.

٤- أن يكون صاحب شفقة ورحمة وعفو:

أهم صفة للمؤمن الكامل أنه إنسان ذو قلب حي، وأهم سمة وصفة لهذا القلب هي الرحمة والإيثار، بل هي طبيعته الأصلية، والرحمة مثل النار التي لا تنطفئ قط في قلب



المؤمن، وطريق النجاة الذي يوصل الروح الإنسانية إلى سمة النضوج يمر من درجات الخدمة والرحمة، فالرحمة هي الجوهرة الإلهية التي تشهد على إيماننا في هذا العالم، وتقرب قلوبنا إلى الله ﷻ.

وأهل الخدمة يجب أن يفكروا كما ينبغي في أسماء الله تعالى "الرحمن" و"الرحيم"، وأن يجعلوا من الرحمة والشفقة أساسًا لهم في تعاملهم مع المخلوقات التي يخدمونها، لأن الخدمة عمل من أعمال الرحمة، ويمكن الحصول على كل الأشياء الجميلة كنتيجة للخدمات التي تتم بالرحمة والشفقة والتواضع، والإنفاق هو أبرز وأوضح علامة للرحمة، ولهذا فإنه يجب على أهل الخدمة أن يكونوا كرماء أيضًا، لأن الأخلاق والصفات الحسنة يكمّل بعضها بعضًا، فالإنسان الرحيم كريم، والكريم متواضع، والمتواضع هو صاحب الخدمة الحقيقي، ويقول النبي ﷺ:

«إنّ اللَّهَ تَعَالَى جَوَادٌ يحِبُّ الجُودَ ويحِبُّ معَالِيَ الأَخْلاقِ ويَكْرَهُ سَفْسافَها» (١٠٤)

ومقابل ذلك فإن الأخلاق السيئة والصفات المذمومة يرتبط بعضها ببعض، والإنسان المحروم من الرحمة والشفقة هو الإنسان المتكبر المغرور البعيد عن الخدمة.

قال النبي ﷺ: «إن الله تعالى جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها» (السيوطي، الجامع الصغير، جـ١، ٦٠)

١٠٤ السيوطي، الجامع الصغير، جـ ١، ٦٠/ ٢٦٢٥.



وعليه فإنه لا يُنتظر خير قط من الخدمات التي تتم بأسلوب فظ غليظ، ليس فيه أخلاق حسنة أو تأليف للقلوب، وهذه الخاصية مهمة للغاية، خاصة في الخدمات التي تخاطب الإنسان بالإرشاد والوعظ والتعليم، ولهذا قال الله تعالى في كتابه العزيز مخاطبًا الأمة بأسرها في شخص الرسول ﷺ:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾ (آل عمران: ١٥٩)

وذات مرة قال الرسول ﷺ لعائشة رضي الله عنها:

«يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»[١٠٥]

ويروى عن رسول ﷺ أنه قال:

«إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويحب كل قلب خاشع حزين رحيم، يعلم الناس الخير ويدعو إلى طاعة الله، ويبغض كل قلب قاس لاه نيام الليل كله، ولا يذكر الله، فلا يدرى يرد الله روحه أم لا» [١٠٦]



قال الله عز وجل:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾

(آل عمران: ١٥٩)

---

١٠٥ مسلم، البر، ٧٧/ ٢٥٩٣.

١٠٦ انظر: الديلمي، المسند، جـ١، ١٥٨؛ السيوطى، جامع الاحاديث، رقم الحديث: ٦٨٥٧.



"ثمة آثار من حلم الله تعالى في هذه الأرض وعلى هذا التراب الأسود، لهذا يقضي التراب على الأوساخ التي تقع عليه وتنبت منه الورود وتثمر الأشجار. إن التراب يستر الأوساخ، ويعطي البراعم وينبت الزهور، فكن أنت مثل التراب!"
جلال الدين الرومي

إن القِسْم الظاهر من الدِّين يعرف بالعقل، أما القسم العميق منه فيعرف بالقلب ويتم تعليمه به، واستخدام الرحمة والمحبة في التعامل مع الناس وتربيتهم يأتي بنتيجة أكثر بركة، وكثير من الناس ممن لا يستطيعون الحكم بالقوة يمكنهم الحكم بالرحمة والمحبة.

وفي الحقيقة إن المحبة التي تسري من المعلِّم لتلميذه، تزيد من ارتباط التلميذ بمعلِّمه وبما يتعلمه، لأن التقرب إليه بمحبة ورحمة يؤمّن وصول ما يتلقاه عبر الطريق القلبي أكثر من المرور بالطريق العقلي، والتلقين بذلك يكتسب محتوى يتفق مع ميول المخاطب الروحية، ويحوّله إلى شخصية عظمى، ولهذا يجب التقرب من الطالب بمحبة وشفقة من أجل التأثير عليه؛ لأن الإنسان يسلم للمحبة والرحمة؛ ولهذا فإن الفاتحين الحقيقيين للأرض هم الذين يتمكنون من فتح القلوب.

ولهذا فإن الإداريين المحرومين من المحبة والرحمة، والذين لا يحبون إلا أنفسهم، نجدهم يسعون لتأمين الطاعة الجبرية لمن هم تحت سلطتهم، لأنهم لا يتمكنون من اكتساب قلوبهم، ولهذا نجدهم ينثرون السموم في حياة هؤلاء الناس، الأمر الذي يجعل نجاحهم ثابتًا عند أقل درجة له، وعليه يُحكم عليهم بالغرق في سراديب النفور.



إن تمكين هؤلاء النفعيين المحرومين من الرحمة والشفقة من الناس يعد ظلمًا للإنسانية، والظلم في الحقيقة هو انعدام الرحمة والحب عند المرء، والمحرومون من هاتين الصفتين الجميلتين يميلون إلى الظلم كل وقت، أما الرحمة فهي ثمرة المحبة، وكما أنه لا يوجد بركة أو اطمئنان في إطار الأسرة التي لا تستقر على الحب، فإنه لا يمكن انتظار ثمرة نافعة من خدمة دون محبة.

فالناس المحتاجون للخدمة كالطائر الجريح، والخدمات الخيرية التي ستفيدهم هي كل تلك الخدمات التي تمتزج بالشفقة والرحمة، ونحن نحتاج إلى تعليم للحصول على هذا الأسلوب، أسلوب الشفقة في الخدمة، أما خلاصة وروح هذا التعليم المطلوب فهو التعليم المرتبط بمفاهيم المحيط الذي تغلب عليه الآداب الصوفية، أي التربية المعنوية.

حقيقة الأمر أن الإنسان المضطلع بالخدمة يجب أن يحوّل الأنانية والدعوى التي في نفسه إلى حب ورحمة، فثمار شجرة المحبة الرقيقة اللطيفة لا تنبت إلا بذلك، والذين يصلون إلى الكمال في التصرف بالمحبة والرحمة يبحثون دائمًا فيما حولهم عن المحتاجين للمساعدة المادية أو المعنوية؛ لأنهم يشعرون في قلوبهم بالاضطراب الناتج عن العوز والاحتياج.

لا بلد في هذه الأرض يستعصي فتحه بالرحمة والرأفة والمحبة.



لا يؤكل حق بقلب يقول "يا رب". والقساوة أنانية في القلب، وحين تبدأ يضعف الدين. وماذا نفهم من قرآن يُقرأ دون قلب؟

وكل المؤسسات وخاصة التي تربي التربية المعنوية، يجب أن تكون كل واحدة منها بمثابة مدرسة للشفقة والتضحية والرحمة، وأن يكون هناك مكان لحب الخدمة والرحمة أكثر من هذا الكم الهائل من المعلومات الجافة التي تزخر بها تلك المدارس، لأن مدرسا عديم الإحساس لن يتمكن من زرع المحبة في قلب تلميذه، وإماما لم يستطع أن يذيق جماعته عشق الإيمان ووجده لن يتمكن من أن يذيق قلوب الصغار حب القرآن، ورجل عمل لم يَرْحم عماله ومن كان يعمل تحت أمره لن يفتح جناح الرحمة لهم، هؤلاء هم المحرومون من الرحمة الإلهية وهم فقراء الرحة، ومن كان عديم الشعور والإحساس تجاه المرضى والمعوقين والذين ليس لهم من يحميهم، هؤلاء هم الذين لا حظَّ لهم من الخدمة لأنهم يحبون أنفسهم فقط! ويجب علينا ألا ننسى أن الله تعالى يكون دائمًا بجانب المظلومين والمنكسرة قلوبهم.

والذين يتمكنون من الإنفلات من العقاب في الدنيا بألف حيلة وحيلة، سيقفون يوم القيامة أمام الله تعالى وهو أحكم الحاكمين، مهطعين مقنعي رؤوسهم، وستكون عاقبتهم الخسران الكبير.

والحاكم والجلاد الذي لا يستطيع أن يتقرب إلى الناس بسبب ظلمه وتكبره وغروره، والمعلِّم الغافل الذي



قال النبي ﷺ: "إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد" (مسلم، الجنة، ٦٤)

يكون تعليمه على القلوب باردًا، ويقوم بتعليم القرآن الكريم بالعصا بدلًا من أن يعلمه بالرحمة واللين، كل هؤلاء وأمثالهم تكون أعمالهم هباءً منثورًا.

وعلى كل المؤمنين، وخاصة الذين حملوا الخدمة على عاتقهم، ألا ينسوا هذا الحديث النبوي الشريف:

«...أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ، جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ» (١٠٧)

وكما أن المناظر الجميلة وأشكال الورود والأزهار تجعل أخشن الناس يبتسمون لرؤيتها، فإن الأشخاص الذين يقومون بالإرشاد أيضًا يجب أن يكونوا مثل تلك الورود، تُلَيِّن حتى أقسى القلوب، وترسم البسمة على أكثر الوجوه عبوسا وتجهما.



ومن أسماء الله تعالى "العَفُوّ" ولهذا يجب أن يتصف أهل الخدمة بالعفو، يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

(الأعراف: ١٩٩)

والعفو نتيجة طبيعية لحب الله والتخلق بالأخلاق الحسنة، والنظرُ إلى المخلوقات بصفة العفو التي اتصف بها الخالق يعد أولى درجات العفو، ثم من يأمر الناس بالعفو،

---

١٠٧ البخاري، الإيمان، ٩/ ٤٩١٨/ ٦٠٧١.



ويحضهم على أن يأخذوا بحظ وافر منه هؤلاء كمن ينشر رياحين العفو من حدائق القلب، والإنسان الذي لا يقدر على العفو، هو في الحقيقة قد أهلك نفسه.

والعفو هو العفو عن جريمة مذنب من امرئ قادر على عقابه، والميزة الحقيقية هنا هي التغلب على النفس وترجيح كفة العفو، والعفو العام الذي أمر به النبي ﷺ يوم فتح مكة أبلغ مثال على ذلك.

ولهذا فإن أهل الخدمة يجب ألا يبحثوا عن عيوب الآخرين، بل يجب عليهم أن يستروها، لاسيما وأن الرسول ﷺ قال:

«مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَشَفَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، حَتَّى يَفْضَحَهُ بِهَا فِي بَيْتِهِ» (١٠٨)

وقال ﷺ:

«مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ» (١٠٩)

"كن كالشمس في الرأفة والرحمة، وكالليل في سترك عيوب الآخرين، وكالماء الجاري في الجود والكرم، وكالميت في الغضب والعصبية، وكالتراب في التواضع والمحوية، واظهر كما أنت، وكن كما تبدو".

جلال الدين الرومي

---

١٠٨ ابن ماجه، الحدود، ٥/ ٢٥٤٦.

١٠٩ الترمذي، القيامة، ٥٣/ ٢٥٠٥.



٥-التحرك بالاستشارة:

الاستشارة في الخدمة أمر إلهي وسنة نبوية، يقول الله تعالى مخاطبًا سيدنا محمدًا ﷺ:

﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

وهذا أمر عام في شخصية الرسول ﷺ إلى المؤمنين جميعا يشير الى أهمية الاستشارة، والآية الكريمة الأخرى:

﴿...وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ...﴾ (الشورى: ٣٩)

دليل على ضرورة تشاور المؤمنين في الأمور المهمة.

وقد كان النبي ﷺ يستشير أصحابه الكرام في الأمور المهمة، ومع أنه كان مؤيَّدًا بالوحي في كل الأمور، إلا أنه كان يستشير أصحابه ليكون قدوة ومثالًا لأمته، وقد استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه في خطة الحرب ومواقع الجيش في غزوتي بدر والخندق، حتى في غزوة أحد فمع أنَّ النبي ﷺ كان يرى أنها حرب دفاعية، إلا أنه نزل على رأي الصحابة الذين رأوا خطورة ملاقاة العدو داخل المدينة، وعمل برأيهم.

والإنسان غالبا ما يكون تحت تأثير مشاعره، فيفكر بها، ويقرر وفقها، ولهذا فإن التصرف باستشارة أهل الخدمة يضمن صواب الخدمة، ويكون سببا لنيل بركتها.

والصق بأهل الورع والصدق، ثم رضهم على ألا يطروك، ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو، وتدني من العزة.

سيدنا علي رضي الله عنه



ولكن يجب أن يتصف أهل الاستشارة بالعقل والمعرفة والتقوى، والى جانب ذلك ينبغي أن يكون المستشار ممن يألف ويؤلف، وأن يكون أهلا للعمل مع الجماعة، وهذان أمران أساسيان في الاستشارة، فمن المعروف أن عدة عقول تصل إلى قرار أكثر صوابًا من عقل واحد يفكر بمفرده، ولهذا أوضح النبي ﷺ هذه الحقيقة في قوله:

«ما خابَ مِنِ استْخَارَ، وَلا نَدِمَ مَنِ اسْتَشَارَ...» [١١٠]

والاستشارة في الوقت نفسه تُظهر قيمة المستَشَارِين، وتكون وسيلة أيضًا لمشاركتهم في تَحَمُّل عبء الخدمة بمحبة كبيرة، كما أن الاستشارة تجعل الأنانية لدى أهل الخدمة تهبط إلى أدنى مستوى لها، وتحميهم من آفة العجب بالخدمة التي قاموا بها، أما عدم الخضوع للاستشارة فهذا علامة على الكبر والعجب اللذين يعنيان أن الشخص يرى نفسه أرجح عقلًا من إخوته الآخرين.

ويجب أن يتم تطبيق نتيجة الاستشارة، أما الاستشارة الشكلية الخالية عن الإخلاص والمحبة فإنها تعطي نتيجة سيئة، فالاستشارة يجب أن تتم مع من هم أهل لها، فيجب أن يصرح كل شخص برأيه دون خجل أو حرج من أحد، لتتحقق الرحمة بذلك، فإن لم يكن الشخص المستشار أهلًا للاستشارة فإن النتائج التي تترتب على هذا تكون مليئة

قال النبي ﷺ:
«ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار»
(الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٢، ٢٨٠)

---

١١٠ الهيثمي، مجموع الزوائد، جـ ٢، ٢٨٠/ ٣٦٧٠/ ١٣١٥٧.



بالأخطاء والقصور، ولهذا فإنه عند الاستشارة في مسألة طبية مثلًا لا يُستشار شخص من أهل القانون، لأن ذلك سيعطي نتيجة غير صحيحة.

والشخص المستشار لا تكفي منه الخبرة في المجال المستشار فيه فحسب، بل يجب أن يكون صاحب خلق ومبرأ عن أي غرض، وإلا فسيتم التغرير بالمخاطب، وستكون النتيجة عدم تحقق الخير المرجو من تلك الاستشارة.

من ناحية أخرى ينبغي التحرز في الاستشارة من الأفكار والأحكام المسبقة، فالمُستشار يجب أن يستمع إلى المخاطب بحياد وموضوعية، وأن يقوم بمحاكمة الآراء بشكل صحيح ومنطقي.

والإنسان الذي يقوم بالخدمة يجب أن يعلم أن حظ إخوته في الخدمة مرجح على حظه هو، أما الذين يصرون على فعل الخدمة بأنفسهم فقط ظانين أنهم هم الذين يستطيعون القيام بها، فإنهم يتعبون بسرعة وتضيق صدورهم، وتتغير آراؤهم، ويبدؤون في استصغار الناس من حولهم، وبذلك يكونون أسرى لحب الرئاسة.

وقد قال النبي ﷺ في حقهم:

«إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» (١١١)

"لا تُدخلن في مشورتك بخيلًا يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا جبانًا يُضْعِفُكَ عن الأمور، ولا حريصًا يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله".

سيدنا علي رضي الله عنه

---

١١١ مسلم، الجنة، ٦٤/ ٢٨٦٥.

ولهذا فإن إنسان الخدمة الحقيقي الناضج هو الذي يرى نفسه "إنسانا قلبيا" يأتي في آخر صفوف قافلة الخدمة، وهو يشعر بأنه أخرج نفسه من الكيان الفاني.

٦-التعرف جيدًا على من تتم خدمته:

لقد خلق اللهُ تعالى الإنسانَ وكرَّمه وفضَّله على سائر المخلوقات، وجعل من قلبه محط أنظاره سبحانه وتعالى، وهذا بالطبع يستوجب التقرب إليه بالتعظيم والاحترام، ولذا فإن التصرف بحساسية في الخدمات التي تتم للإنسان، مهم للغاية من ناحية الأجر وثمرة هذه الخدمة.

أما بذل الخدمة بأسلوب فظ غليظ يكسر القلوب، فلن يؤجر صاحبه، بل ربما يكون سببًا في جر صاحبه إلى الذنب، وذلك لأن جبر القلب المنكسر ليس كجبر شيء مادي، حتى إن صنع المادة أصعب بكثير من هدمها، ولهذا فإنه عندما ينكسر قلب إنسان فإن جبر هذا القلب المنكسر من جديد أمر في غاية من الصعوبة، وقد قال الكبار: إن الذين يعرفون أنفسهم ثلاث زمر، الأولى: الذين لا يزعجون حتى الريح وهم المفتونون بشاعرية جريان القدرة الألهية.

والثانية: هم أصحاب الحياء الذين يستحون حتى من تـلفّظ أسمائهم وصفاتهم.



أقيمة بناء
الإنسان كهدمه؟
فحتى البسطاء
في الهدم
ينجحون.
فلا تقل "هذه
هي القبة"
فبعاملَين اثنين
تهدم جامع
السليمانية
وإن قلت تعال
نبني، فهيهات
هيهات
حينها يلزمك
سليمان وسنانُ.

محمد عاكف أرسوي



الثالثة: هم الذين يعُدّون أنفسهم ترابا، وينظرون إلى مخلوقات الله نظرة الرحمة والشفقة، ولا يستخفون منهم أو يستحقرونهم.

والتعرف جيدًا على المخاطب بالخدمة ذو أهمية بقدر بذل الخدمة نفسها، لأن الخدمة الصحيحة لا تؤتي ثمارها إلا هكذا، من ذلك على سبيل المثال الأشخاص الذين كانوا أغنياء ثم أصبحوا فقراء، ويستحون أن يسألوا الناس أو يظهروا حاجتهم للمساعدة، فهم لا يستوون في المعاملة مع أناس محتاجين ويطلبون المساعدة بشكل صريح.

يجب أن يكون للمسلم نصيب من الفطنة التي كانت عند الأنبياء، وأن يستخدم عقله بأحسن طريقة، يجب أن يعرف ماذا يقول، وأين يقول، ومتى يفعل الخدمة، ولمن يقدمها، وكيف يقوم بها.

والأسلوب الرقيق الذي اتبعه جعفر الطيار حينما كان يعرض الإسلام لملك الحبشة النجاشي، لَكَمْ يحمل من العبر والعظات ويبين لنا فطنة وفراسة المسلم! ولما طلب منه النجاشي النصراني قراءة بعض الآيات من القرآن الكريم، لم يقرأ جعفر ﵁ سورة "الكافرون" التي تضع فاصلًا بين المسلمين والكفار وتتحداهم، وإنما قرأ الآيات التي تمتدح سيدنا عيسى وأمه مريم من سورة "مريم"، وتأثر

"ما سيعرفه الجهَّال في نهاية المطاف قد رآه العقلاء من قبل" لا تُعرَف نهاية العمل من بدايته، لكن العاقل هو من يرى النهاية من البداية، والغارق في الذنب والمصرُّ على الخطأ هو الذي يرى في الأخير.

جلال الدين الرومي



النجاشي كثيرًا بتلك الآيات، فضرب بيده إلى الأرض فأخذ منها عودًا ثم خط به خطا في الأرض، فقال: "إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة"، وأسلم بعد ذلك.

ويجب التعرف جيدًا على المخاطب الذي تقدم له الخدمة حتى تُبْذَلَ الخدمة لمن يستحقها، فعندما أراد الرسول ﷺ أن يرسل سفيرًا لم يرسل قائدًا يصلح لقيادة الجيش، ولا واحدًا من أهل الصفة أهل القلوب الرقيقة، بل إنه ﷺ عندما كان يكلف أحدا بالقيام بإحدى الخدمات كان يراعي شخصية المخاطبين وخبراتهم، بل وفي بعض الأحيان كان يراعي قدرتهم الجسدية.

وبناء على هذه الأهمية فإن التذكير ببعض الخصائص المتعلقة بالتربية والتعليم ستكون مفيدة في موضوع القيام بالخدمة.

وتعليم الإنسان من أصعب الخدمات، فالنفس التي لم يتم تربيتها دائمًا أمّارة بالسوء، وقد خلق الله تعالى الإنسان قابلًا في فطرته للتقوى والفجور، ولهذا فإن هاتين الصفتين تبدآن في الظهور عند الإنسان منذ نعومة أظفاره ويمكن للإنسان أن يحصل على السعادة بإعاقة الميل إلى الذنب، وتقوية التقوى، وطريق هذا هو التربية والتعليم، حتى إن تدريب الحيوانات الوحشية، أسهل بكثير من تعليم إنسان مغلوب على نفسه.

الإنسان الذي حللتم مشاكله هو لكم، والمشاكل التي لا تحل والتأخر في القرارات هي التي تطفأ نار الحماس.



وخدمة التربية هي مسلك الأنبياء، وحتى يكون الإنسان معلمًا ينبغي أن يكون فياض المشاعر رقراقها، لأنه يجب أن يفهم مشاعر طلابه عندما يؤسس الارتباط بهم، ويجب عليه أن يتعامل معهم طبقًا لهذا، وهذا يشبه الطبيب الذي عليه فهم وتشخيص المرض قبل أن يبدأ العلاج، ويجب ألا ننسى أنه إنما يمكن اكتساب الإنسان الذي حُلت مشاكلُه.

وكما أن الناس مختلفون في استعداداتهم، فإن نقاط ضعفهم أيضًا مختلفة، ولهذا يجب أن يقترب المعلم من الشخص الذي أمامه بمشاعر الطبيب النفسي، فما يكون نافعًا لشخص ما قد يكون مضرًا لشخص آخر، وعليه يجب أن يتم التعرف بشكل جيد على سمات الأشخاص الذين تحملنا مسؤولية تعليمهم.

من ناحية أخرى يجب علينا أن نقيّم شكل ووقت التعليم جيدًا، فعندما نقوم بتقويم جسم كبير صلب فقد نكسره إذا ما حاولنا تقويمه فجأة، ولذا علينا الانتباه عند التقويم إلى تلك النقطة، والشيء نفسه عند تقويم الأشخاص الذين يمتلكون قابلية وميولًا نفسية قوية، يجب علينا ألا نتصرف بعجلة من أجل إنقاذهم من تلك العلة، وثمة مثال جيد على ذلك وهو أننا إذا ما قمنا بتفريغ محتويات كوب في كوب آخر وهو مثله في الحجم؛ دفعة واحدة، فإن أكثر من نصف الكوب سينسكب في الخارج، أما إذا تصرفنا بهدوء

من الضروري تربية الإداريين والمعلمين من الناحية القلبية، فالقلوب يجب أن تكون مليئة بالروحانيات، إذ لا نستطيع الإكرام بكؤوس فارغة.



وسكبنا الماء تدريجيا، فإن الماء سيُفرغ بالكامل في الكوب الآخر دون أن ينقص منه شيء، ولا يمكننا أن نهمل هذا القانون الفيزيائي في تربية الأشخاص، وهذا يعني أن التوجه إلى شخص ما وتربيته مرتبط بالتعرف جيدا على استعداد المخاطب قبل أي شيء، ثم الصبر على تقويمه وإصلاحه.

فالمعلم يجب عليه معرفة السمة الشخصية والاستعداد لدى طلابه، كمعرفته بحبات السبحة التي في يده، من ذلك على سبيل المثال: الشخص الذي لديه استعداد شاعري، يستوجب التوجه إلى أعماق روح الإنسان، والشخص الذي لديه استعداد لأن يكون إداريًّا، يستلزم تلقينه الخصائص التي تمكّنه من أداء الإدارة بشكل عادل كالتصرف بالرحمة والشفقة والعدل، وبقية المسالك الأخرى تسير على نفس الأمر، وكل واحدة من تلك القابليات الضرورية للمجتمع تختلف في شكل وطرز التعليم الخاص بها.

والخدمات التعليمية يجب أن يُنتبه فيها إلى التوازن بين البدن والروح والعقل والقلب في الإنسان، وأن يتم التخطيط للتعليم طبقًا لهذا التوازن، فإن خاطبنا العقل فقط في الإنسان فإن الأهواء والمنافع الدنيوية ستطغى عليه بشدة، وبذلك يتم إهمال الجانب الروحي، والإنسان الذي يتربى على ذلك يصبح في النهاية عبدًا للشهوة والشهرة والثروة، أما إذا توجهنا إلى الجانب القلبي مع هذا الجانب

تربية إنسان محروم من التفكر وإعمال الفكر خسران ومضيعة للجهد، إذ لا بد أن يكون الإنسان كالتراب الخصب.



العقلي في تعليمه، فإننا بذلك سنصل إلى التكامل في توجيهه إلى طريق الحق، ويجب أن ننتبه إلى أن العلم إن لم يلامس شغاف القلب لا يتحول إلى عرفان، وعلم لا روح فيه قد يجر صاحبه إلى الضلالة، والإنسان حين يخلو من الفضائل والأحاسيس المعنوية يصير عبدا لنفسه الأمارة بالسوء.

٧-الحفاظ على الاعتدال:

من الأهمية بمكان رعاية الاعتدال في الخدمة، كما نراعيه في جميع الأمور، وليس صحيحًا أبدًا أن يهمل أهل الخدمة آباءهم وأمهاتهم وأولادهم بسبب انشغالهم بالخدمة، كما أنه ليس صحيحًا أبدًا إهمال الخدمة من أجلهم.

وقد أوصى الله تعالى الأمة المحمدية بالاعتدال في قوله تعالى:

﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...**﴾ (البقرة: ١٤٣)

ويروى عن سيدنا محمد ﷺ:

«**خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا**»[١١٢]، وبذلك أخبر الرسول ﷺ أمته بالمقياس الذي يجب أن يكون عليه أفراد الأمة.

"إن بيني وبين الناس شعرة إذا أرخوا شددت، وإذا شدوا أرخيت"

معاوية بن أبي سفيان

---

١١٢ البيهقي، شعب الإيمان، جـ ٥، ٢٦١/ ٦٦٠١ .



عاشر الجيران بالمعروف، ولكن لا تهدم الجدار بينكما، ولا تشجِّع صديقك على عداوتك.

وورد في حديث شريف آخر:

«إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ، فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالكَبِيرَ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ» (١١٣)

ويُستدل بهذه الآية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة على أن الحفاظ على التوازن في كل الأعمال الدنيوية والأخروية، إنما هو مقياسٌ أمر به الله ورسوله، ومن المُحَقَّق أنه إذا ما روعي هذا التوازن فإنه سيتحقق السكون والطمأنينة والأمن للفرد والمجتمع على السواء، وعليه يجب أن يكون إنسان الخدمة متوازنًا معتدلًا، ومن ذلك على سبيل المثال: الواعظ إذا ما سمع الأذان عليه أن يُنهِي وعظه، وينتبه إلى مشاعر الجماعة، وألا يفسد عليهم سكينة عبادتهم، وحينئذ يجب الانتباه إلى الأشخاص ذوي الأوقات الضيقة، وخاصة إخواننا الموظفين، وعليه فإن إنسان الخدمة عليه أن يكون فطنًا، صاحب فراسة، ذا رأي ثاقب، قوي البصيرة، ويجب عليه ألا يترك هذا الميزان المعتدل في ذمه ومدحه، في نقده وقدحه، يجب أن يكون على طريق وسط، يجب أن يكون صاحب وقار، غير متكبر، لا يتصف باللامبالاة، وبالرغم من ضرورة كونه متواضعًا، إلا أنه يجب ألا يسقط في براثن المذلة، يجب

---

١١٣ البخاري، العلم، ٢٨/ ٧٠٣.



أن يكون أهل الخدمة متصفين بالعدل والشفقة والإنصاف تجاه الأشخاص العاملين تحت إدارتهم، ولا يحمّلوهم من العمل ما لا يطيقون، وأن يُقـــيَّم كل شخص على حسب قوته، ويجب عليه أن يعرف أن العدالة لا تعني مساواة الكل في المعاملة، وإنما أيضًا إحقاق الحق، ولهذا يجب عليهم أن يتحرزوا من كل التصرفات التي تعوق العدالة، وقد ورد في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥)

ورعاية الاعتدال تظهر بشكل أكبر في الناحية الإدارية، وهي في الوقت نفسه تُظهر فراسة المدير وخبرته، يقال أن أعرابياً سأل معاوية بن أبي سفيان ﵁: كيف حكمت الشام أربعين سنة ولم تحدث فتنة والدنيا تغلي؟ فقال ﵁:

"إن بيني وبين الناس شعرة إذا أرخوا شددت، وإذا شدوا أرخيت".

وذلك لأنه لا يمكن أبدًا تصويب ظلم من حولنا في أي وقت باسم "الانضباط"، مع العلم أن عدم الانضباط في الأمور يسبب الفوضى، وذلك يؤدي إلى الإسراف في

إننا ننجح وننتصر حين نصرف طاقتنا في الشجاعة والعمل لا في الخوف.



يجب علينا أن نعلم أن تضييع العمر هباء يعد إسرافًا، وعدم الحفاظ على الأمانات التي في أيدينا يعد إسرافًا، وتضييع الإنسان -بأن لا نربّيه ونعده ليكون أشرف الخلق- أكثر إسرافًا.

المال والوقت والخدمة، والإسراف هو أول داع للانهيار والسقوط، لقد كان طارق بن زياد يرتدي وهو في طريقه لفتح الأندلس ملابس ممزقة، لكنَّ روحه وقلبه كان مفعمًا بالشجاعة والنصر، والنتيجة أن حاله هذا كان سببًا في خلق حضارة عظيمة، وعلى النقيض تمامًا رأينا عبد الله الصغير آخر حكام بني الأحمر، الذين كانوا آخر حكام المسلمين في الأندلس، رأيناه يخرج من الأندلس ذليلا حزينا، وهذا يعني أنه إذا ما فقد الاعتدال فإن هذا يعد البداية للهزيمة والانهيار، وفي النهاية يظهر الندم الذي لا جدوى منه، فعندما كان عبد الله الصغير خارجًا من الأندلس تاركًا هذا الوطن الإسلامي الكبير هو وأمه، نظر إلى مدينة غرناطة، تلك المدينة العظيمة ذات الحضارة الإسلامية الكبيرة، من على هضبة "بادول"، ثم نظر إلى قصر الحمراء الذي كان معجزة في فن العمارة الإسلامية، ولم يتمالك نفسه وانخرط في بكاء مرير، فقالت له أمه، مؤنبة، هذه المقولة التاريخية الجميلة:

"ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال"

وأصبح يُطلق على تلك الهضبة من بعد هذه الحادثة التاريخية اسم بالإسبانية يعني: "تل زفرة العربي الأخيرة".

وكما يُفهم من تلك الحقيقة التاريخية أن الأمانات التي لا يتم الحفاظ عليها، أو الأمانات التي يتم الإسراف فيها



تضيع هباء، لاسيما أنه بعد انهيار دولة الأندلس لم يقتصر الأمر على خروج إسبانيا فقط من يد المسلمين، بل فقد المسلمون أيضًا جراء هذا آلاف الآثار الإسلامية العظيمة التي كانت هناك، كما فقدوا أيضًا ما يقرب من مليون مخطوط من أمهات الكتب فأحرقت وأصبحت رمادا.

ولهذا فإن إنسان الخدمة عليه أن يعرف جيدا كيفية استخدام الأمانات التي في يده، وكما يجب عليه الاحتراز من الإسراف في ماله وملكه الشخصي، فعليه كذلك أن يحترز لأقصى درجة من الإسراف في الخدمات الملقاة على عاتقه والمعهودة إليه.

ويجب علينا أن نعرف أن الإسراف لا يكون في المال والملك فقط، بل الإسراف يشمل كل أنواع السفه، حيث يقول الله تعالى:

﴿...إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: ١٤١؛ الأعراف: ٣١)

والمعلم الذي يدرك أهمية وظيفته يجب ألا يسرف ويضيع وقت ومجهود تلاميذه.

ويجب علينا أن نعلم أن تضييع العمر هباء يعد إسرافًا، وعدم الحفاظ على الأمانات التي في أيدينا يعد إسرافًا، وتضييع الإنسان -بأن لا نربّيه ونعده ليكون أشرف الخلق- أكثر إسرافا، ولهذا يجب أن يكون المربّي حساسًا لأقصى درجة في مسألة تربية الإنسان وتعليمه، فيجب علينا أن

الشجرة بلا براعم ليست إلا حطبًا.

نجيب فاضل



نربّي الإنسان عبدا يقرأ كتاب الكون، يعيش كما أراد خالقه، ويصل بإيمانه إلى درجة الإحسان فيرى بعين قلبه وعميق فكره آثار القدرة الإلهية في كل مكان حتى يغدو قلبه قلبا كاملا، كما يجب علينا أن نربي أجيالًا تحمل الروح التي كانت تتألق في عصر السعادة النبوي، لا أن نربي أشخاصًا بلا ملامح أو مزايا، وإلا فلن يهدأ الظمأ إلى الإنسان الحقيقي في عالم الإنسانية التي تتكون من آلاف الألوف من الناس.

فالهدف والعمل الأساسي هو تربية إنسان في ذلك الزمان، وإنقاذ بعض الأشخاص من هذا الحريق الذي سقط فيه هذا الجيل الجديد، ومن يدري؟ قد يكون من هؤلاء الأشخاص الذين نربيهم الآن "فاتح" آخر، و"قانوني" جديد، و"معمار سنان" هذا الزمان، وربما كان منهم أيضًا من هو مثل "آق شمس الدين"، و"بيري رئيس"، و"ابن كمال"، و"عزيز محمود هدائي"، وآخرين.

والأمة التي يتربى فيها أشخاص كهؤلاء تكون أمة عظيمة، وبذلك تستمر حياتها، فالإمارة العثمانية التي كانت في الأناضول كانت كبيرة وعظيمة بالرغم من صغر حجمها، وإنما كان كبرها بفضل الشخصيات العظيمة التي كانت بها، ثم كبرت ونمت حتى أصبحت تظلل على قارات العالم القديم، وبعد أن أصبحت إمبراطورية كبيرة للغاية

تكليف إنسان مؤهل بخدمة قد يكون أفضل من ألف إنسان، فمهما وضعتم أمام صاحب الاستعداد العظيم من إمكانات مادية فلن يضيع هباءً.



ماذا حدث؟ بدأت تصغر وتنكمش من جديد بسبب ظهور أشخاص يسعون إلى منفعتهم الشخصية فقط، لا إلى مصلحة الأمة، فكانت النتيجة أن اضمحلت الدولة وانهارت.

وإنسان الخدمة الحقيقي باعتبار وظيفته مثل أمين الصندوق ماديا ومعنويا؛ لأن الله تعالى هو مالك كل شيء، وكل ما منحه لنا من نعم مادية ومعنوية إنما هو من لطفه الكبير، وسيحاسبنا غدًا على هذا كله، وقد نبّهنا الله تعالى إلى ذلك في القرآن الكريم حتى لا نتعرض للعذاب في الآخرة، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: ١٤١)

وقال تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١)

وقال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٧)

قال تعالى:
﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾
(الأعراف: ٣١)



والإسراف هو المصروفات الزائدة عن حاجتنا، والموجّه إلى النفس، والإنفاق المادي والمعنوي الذي لا حاجة لنا إليه في الخدمة، أما الإنفاق الذي يتم في مكانه وفي سبيل الله فليس بإسراف، بل على العكس كلما كان زائدًا كان مقبولًا عند الله، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة ٢١٩)

وأجمل ما في تلك الخصائص كلها هو الحفاظ على الاعتدال والتوازن، فمن الضروري جدًّا التحرز من الإسراف الذي يعد أخطر عنصر يهز الاعتدال والتوازن في الخدمات والأمانات المادية والمعنوية.

والغضب أيضًا أحد أهم العوامل التي تفسد الاعتدال، والغضب عجز، وهو يعرض قسمًا من التوازن العقلي إلى الضعف، والغضب يدل على ضعف الإنسان وعدم لياقته، وعليه يجب على أهل الخدمة أن يكظموا غيظهم وغضبهم.

أهل الخدمة يجب أن ينسوا الغضب، فالغضب عجز وميل لاستحقار الضعيف.

وقد سأل رسول الله ﷺ أصحابه الكرام ذات يوم:

«مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟»

قالوا: الذي لا يصرعه الرجال.



قَالَ: «**لَا، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**».[١١٤]

وفي الحقيقة إن أكثر القرارات خطأ والتي تؤدي إلى الندم، هي تلك القرارات التي تُتخذ وقت الغضب، ولهذا قال النبي ﷺ:

«**لَا يَحْكُمْ أَحَدٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ**»[١١٥]

بل إنه نصح الصحابي حين استنصحه، فقال:

«**لاَ تَغْضَبْ**»، وكررها ثلاث مرات.[١١٦]

والإنسان متقلب الطبع والمزاج فأحيانًا يكون سعيدًا، وأحيانًا أخرى يكون غضبان، وحتى لا يكون سببًا في أي ظلم، يجب عليه ألا يتخذ أي قرار وهو غضبان، والشخص الغضبان، بناء على نصيحة الرسول ﷺ، يجب أن يغير من حاله فيجلس إذا كان واقفًا، أو يضطجع قليلًا إذا كان جالسًا، أو يتوضأ إذا لم يهدأ ويذهب انفعاله، وبعد أن يذهب غضبه تمامًا ويهدأ عليه أن يتخذ القرار بعد تدبر وتأمل، لأن معظم الناس تفقد توازنها أثناء الغضب، فيكون حكمهم ضعيفًا، وربما لا يُراعون فيه حق العباد، ولهذا على أهل الخدمة دائمًا أن يراعوا اللطافة والموازنة.

قال النبي ﷺ:
«لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان»
(البخاري، الأحكام، ٩٣٧٦)

---

١١٤ أبي داود، الأدب، ٣/ ٤٧٧٩.

١١٥ مسلم، الأقضية، ١٦/ ١٧١٧.

١١٦ البخاري، الأدب ، ٧٦/ ٦١١٦.



وثمة أهمية كبيرة للبناء الروحي للناس الذين يقومون بالخدمة في التعليم، فكما أن الطيار لا يُعطى الإذن بالطيران وهو في حالة نفسية غير مؤهلة، فإن المعلم أيضًا لا يدخل الدرس وهو غضبان، ومن ثَمَّ يجب البحث في أسباب غضب المعلم، ومن الضروري العمل على تهدئته في أسرع وقت؛ لأنه يجب أن يؤدي مهمته العلمية وهو في حالة نفسية طيبة، فيجب عليه أن يحترز من كل التصرفات التي قد تكسر قلوب المتعلمين، فالغضب والانفعال والصياح مظهر من مظاهر الضعف، وطور لا يليق بالإنسان.

يقول الله تعالى:

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩)

والآية الكريمة تلفت الانتباه إلى ضرورة اللين في الأسلوب والتعامل.

وإذا ما كانت هناك ضرورة لمنع أي تصرف شخصي داخل المجتمع، فيجب أن يتم ذلك بصورة لا تكسر قلب المخاطب، وقد كان الرسول ﷺ لا يصرّح في وجه مخاطبه بخطئه، بل يقول له بتعريض دقيق: «ما لي أراك هكذا؟»

وعليه فإن كل الشخصيات العظيمة التي نشأت وتربت في هذا المناخ الأخلاقي الكبير، كانت طوال التاريخ تتجه لكل شخص في المجتمع من أصغر فرد فيه إلى رئيس

"يا صديقي، باللين تستطيع أن تسلخ جلد العدو، وبالقساوة تجعل الصديق عدوًّا".
الشيخ سعدي



الدولة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك وصايا الشيخ "أدبالي" لعثمان الغازي ومن خلاله إلى جميع رجال الدولة، تلك الوصايا التي كانت تُعد وصايا لكل رجال الدولة من أصغر موظف إلى أكبر مدير، يقول:

"يا بني! أنت الأمير، فالغضب منا واللين منك، الخطأ منا والعفو منك، العجز والعوز منا، والتسامح منك، الصراع والصدام منا والعدالة منك، سوء الظن والظلم منا والعفو منك، يا بني! التفرقة منا، والوحدة منك، التكاسل منا والهمة منك". [١١٧]

وعليه فإن كل واحدة من هذه الوصايا تعد ميزانًا للاعتدال يجب على أهل الخدمة أن يتحلوا به.

٨-إيلاء الأولوية للخدمات المتعلقة بتعليم وتعلم القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم الذي هو دليل الهداية للإنسانية أمانة إلهية أرسلها الله تعالى لعباده. وتأتي هذه الأمانة على رأس أهم الخدمات التي يمكن أن ننقلها الى عباده بدءاً من أنفسنا، فقد ورد في الحديث الشريف:

«**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» [١١٨]

قال النبي ﷺ:

«خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه»

(البخاري، فضائل القرآن، ٢١)

---

١١٧ للاطلاع على بقية وصايا "أدبالي" انظر آخر الكتاب.

١١٨ البخاري، فضائل القرآن، ٢١/ ٥٠٢٧.



إن الروح التي ستضيف العلم والعرفان الحقيقي للمجتمعات ليست روح المتحذلقين الأنانيين الذين ينكبون على قراءة تلك المجلدات الضخمة، بل روح الأولياء الصالحين كمولانا جلال الدين ويونس أمره وأمثالهم ممن يجعلون القلوب تتفكر في حكم القرآن، وينشرون السعادة والرحمة بين الناس.

وأكبر خدمة يمكن أن تُؤدى للإنسان هي خدمة مساعدة العبد من أجل مستقبله الأبدي، وطريق تحقيق ذلك توجيهه للعبودية المتماشية على الاستقامة ولا تكون تلك الاستقامة إلا بالتخلّق بأخلاق القرآن والسير على نهجه.

إن القرآن شفاء ومنبع حِكَم إلهية تسلي أرواحا حزينة وقلوبا متعبة، إن الله تعالى يقدم كلامه الرباني إلى البشرية جمعاء كالتالي:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧)

والقرآن الكريم بمثابة المرشد والدليل العظيم للبشرية كلها لما يحويه من أسرار وحقائق وكمالات تستطيع البشرية بها مواجهة كل احتياجاتها إلى قيام الساعة، يقول الله تعالى في ذلك:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩)

ولأن القرآن الكريم كتاب إلهي فهدايته ستستمر إلى يوم القيامة، وعلى كل مؤمن يعيش تحت ظلاله أن يبذل همته في العيش بهدي القرآن إلى أن ينفتح الباب الأبدي للموت، أي يجب أن يكون مصغيًا لإرشاد القرآن، وعلى المعلم أن يعي أن عليه وظيفة مهمة وهي إحياء الأجيال



الجديدة بهذه الأمانة التي هي وسيلة لطمأنينة وسكينة الإنسانية.

وهذه الحادثة التالية التي حدثت في العصر النبوي توضح لنا بشكل كبير مدى عظمة هذه الوظيفة:

أرسل النبي ﷺ سبعين رجلًا من الأنصار الكرام من حفظة القرآن الكريم الذين يسمون "القُرّاء" إلى قبائل رعل وذكوان وعصية وبني لحيان؛ من أجل تعليمهم القرآن، ولما وصل الصحابة الكرام إلى بئر معونة قام أهالي القبائل المذكورة بالغدر بهم وقتلوهم، ولما وصل هذا الخبر إلى النبي ﷺ ظل يدعو في صلاته على تلك القبائل مدة شهر.

وإذا ما رأينا أن نبي الرحمة والشفقة الذي لم يدع على أهل الطائف الذين رَمَوْهُ بالحجارة، يدعو على هؤلاء الأشرار الذين قتلوا معلمي القرآن الكريم، سيتبين لنا مدى عظم الجرم الذي اقترفوه.

وإن أداء خدمة القرآن بإخلاص تعد دليلًا أيضًا على مدى شرف تلك الخدمة في نظر النبي ﷺ.

إن هذه الأهمية الكبيرة التي أعطاها النبي ﷺ للقرآن الكريم، تعكس محبة القرآن على قلوب الصحابة الكرام الذين تربوا على يد النبي ﷺ، وتلك هي واحدة من الحوادث التي لا مثيل لها، والتي شعر بها الصحابة الكرام تجاه القرآن الكريم:

يا حافظ القرآن اقرأ، فاليوم تفتح الزهور لك في الجنة.

ويكون القرآن تاجًا لك في المحشر، لترى المُلك.

وتغرد البلابل في الفجر حين تقوم الليل.

ويعجز اليراع عن الكتابة في تلك الساعة المباركة.

السَّيري



قال تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

(الحديد، ١٠)

من ذلك أن الرسول لما قفل عائدًا من غزوة "ذات الرقاع" نزل بالمسلمين في شعب من الشعاب ليقضوا ليلتهم فيه. فما كاد المسلمون ينيخون رواحلهم في الشعب حتى قال لهم الرسول: «من يحرسنا في ليلتنا هذه؟».

فقام إليه عباد بن بشر وعمار بن ياسر وقالا: نحن يا رسول الله ﷺ، وقد كان النبي ﷺ آخى بينهما حين قدم المهاجرون على المدينة.

فلما خرجا إلى فم الشعب قال عباد بن بشر لأخيه عمار بن ياسر: أي شطري الليل تؤثر أن تنام فيه: أوله أم أخره؟ فقال عمار: بل أنام في أوله، ثم اضطجع غير بعيد عنه.

كان الليل ساجيًا هادئًا وادعًا، وكان النجم والشجر والحجر تسبح بحمد ربها وتقدس له فتاقت نفس عباد بن بشر إلى العبادة واشتاق قلبه إلى القرآن، وكان أحلى ما يحلو له القرآن إذا رتله مصليًا، فيجمع متعة الصلاة إلى متعة التلاوة.

فتوجه إلى القبلة ودخل في الصلاة وطفق يقرأ من سورة الكهف بصوته الشجي الندي العذب.

وفيما هو سابح في هذا النور الإلهي الأسنى ويترقى في لألاء ضيائه أقبل رجل من المشركين يحث الخطى، فلما رأى عباداً من بعيد منتصبًا على فم الشعب عرف أن النبي بداخله وأنه حارس القوم، فوتر قوسه وتناول سهمًا من كنانته رماه به فوضعه فيه.



قال تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

(الحديد، ١٦)

فانتزعه عباد من جسده ومضى متدفقًا في تلاوته غارقًا في صلاته.

فرماه الرجل بآخر فوضعه فيه، فانتزعه كما انتزع سابقه، فرماه بثالث فانتزعه كما انتزع سابقيه، وزحف حتى غدا قريبًا من صاحبه وأيقظه قائلاً:

انهض فقد أثخنتني الجراح، فلما رآهما الرجل ولى هاربًا.

والتفت عمار بن ياسر إلى عباد بن بشر فرأى الدماء تنزف غزيرة من جراحه الثلاثة، فقال له: سبحان الله هلا أيقظتني عند أول سهم رماك به؟!

فقال عباد: كنت في سورة أقرأها فلم أحب أن أقطعها حتى أفرغ منها، وايم الله لولا خوفي أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله بحفظه لكان قطع نفسي أحب إلى من قطعها.[١١٩]



وكما أن حب واحترام القرآن الكريم يحيي القلوب، فإن إهماله وعدم احترامه يعد من أكبر الذنوب التي تسود الحياة المعنوية للإنسان، وعندما اطلع النبي ﷺ على ذنوب أمته رأى أن أعظم ذنب هو نسيان القرآن بعد تعلّمه.[١٢٠]

---

١١٩ أحمد بن حنبل، المسند، جـ٣، ٣٤٣-٣٤٤.

١٢٠ أبو داود، السنن، الصلاة، ١٦ .



وبهذه المناسبة يجب علينا أن نجهز أنفسنا وأولادنا بأخلاق ومحبة القرآن الكريم الذي نسعى إلى العيش به وتعلمه، فلنحْيَ ببركته وفيضه، وإلا فإن القرآن لن ينفذ إلى قلوبنا، وقد قال النبي ﷺ:

«سَيَأْتِي عَلَى أُمَّتِي زَمَانٌ تَكْثُرُ فِيهِ الْقُرَّاءُ، وَتَقِلُّ الْفُقَهَاءُ، وَيُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ»

قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟

قال: **«الْقَتْلُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ زَمَانٌ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ رِجَالٌ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ زَمَانٌ يُجَادِلُ الْمُنَافِقُ الْكَافِرُ الْمُشْرِكُ بِاللَّهِ الْمُؤْمِنَ بِمِثْلِ مَا يَقُولُ»**[١٢١]

ويقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران ١٩٠-١٩١)

عندما نزلت تلك الآية قال النبي ﷺ:

قال النبي ﷺ: «سيأتي على أمتي زمان تكثر فيه القراء، وتقل الفقهاء ويقبض العلم، ويكثر الهرج» (الحاكم، المستدرك، ٨٤١٢)

---

١٢١ الحاكم، المستدرك، جـ ٤، ٥٠٤/ ٨٤١٢.



«وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»(١٢٢)

وهذا يعني أن تعليم القرآن يجب أن يبدأ بالدخول إلى عالم التفكر ومناخ القرآن السامي، وإن قرأ القرآن الكريم دون تفكر أو شعور فإنه بذلك ينطبق عليه الحديث الشريف: «**لا يجاوز تراقيهم**». أي: لن تتحصل للعبد فائدة قلبية.



وقد كانت الجهود المبذولة في خدمة القرآن الكريم على الدوام أهم وسيلة للنجاة باسم الحق والحقيقة من كل فترة الضعف والفتور، وعهدُنا هذا الذي نعيش فيه عهد يعرض أهمية حياتية كبيرة لتلك الجهود العظيمة، فالخدمة الأصلية في الوقت الحاضر هي أن يُروَّج الاهتمام بالقرآن الكريم، بأن تهتز الأمة بأسرها وأن ترجع الى شخصيتها الأصيلة.

حقيقة القول إن الله تعالى وعد في القرآن بأنه سيُتم نوره، وهذا الوعد عقيدة إيمانية لكن الله ﷻ سيحقق هذا الوعد بيد الإنسان، فلذلك يجب علينا جميعًا أن نكون على أهبة الاستعداد والتضحية لهذا الوعد الإيماني، وإلا فإن ربنا هو الذي سيتم نوره، والذين يهملون هذه الخدمات مسؤولون، وكلنا نعرف العقوبة الإلهية التي فرضها الله تعالى على الصحابة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك،

«لا يجاوز تراقيهم»

١٢٢ ابن حبان، جـ ٢ ، ٣٨٦ / ٦٢٠.



لقد كانت الجهود المبذولة في خدمة القرآن الكريم على الدوام هي أهم وسيلة للنجاة باسم الحق والحقيقة من كل فترة الضعف والفتور، وعهدُنا هذا الذي نعيش فيه عهد يعرض أهمية حياتية كبيرة لتلك الجهود العظيمة، فالخدمة الأصلية في الوقت الحاضر هي أن يُروَّج الاهتمام بالقرآن الكريم بأن تهتز الأمة بأسرها وأن ترجع الى شخصيتها الأصيلة.

مع أنهم حضروا كل الغزوات مع رسول الله ﷺ، ولهذا فإنه علينا، حتى نتمكن من إنقاذ أنفسنا من المسؤولية الفردية، أن نكون أصحاب همة كبيرة في سبيل نصرة الإسلام والإيمان بدرجة لا يمكن قياسها بالأعمال الدنيوية الأخرى، وماذا يمكن أن يكون أشرف من أن يضرب المؤمن في هذه الخدمة الإيمانية بسهم؟ ولكن أن يكون الأمل الوحيد هو انتظار المساعدة الإلهية دون بذل الجهود بما يتناسب مع الطاقة، فإن هذا يعني أمرًا يتعارض مع روح الإسلام.

وفي هذا العصر الذي انجرف علينا فيه سيل من الموضات السلبية علينا أن نبذل كل ما في وسعنا من أجل نشر بركة القرآن وفيضه وتعلمه لأنفسنا ولأفراد أسرتنا ولمن حولنا، حتى نتمكن من إنقاذ أنفسنا جميعًا من هذا السيل الجارف من الإلحاد والكفر، ويجب علينا أصلًا ألا ننسى احتياجنا للقرآن الكريم، وحتى نستأنس بالقرآن على الدوام يجب أن يكون القرآن وسيلة لتخلقنا بأخلاقه، والسير على أوامره ونواهيه، فإذا ما كان النقيض فإنه سيكون الخسران المبين، حيث يضيع المستقبل الأبدي أمام الملذات الفانية.

والذين يعيشون بعيدا عن نور القرآن، فهم ركاب الظلام في الحياة، وأطفالنا في فترة الدراسة والتعليم في أمس الحاجة للتربية الأخلاقية والإيمان والمعلومات الدينية والقرآن الكريم، والقناعة الشائعة بأن التربية الدينية



تكون في الأسرة فقط، قناعة خاطئة، فكما يتم تحصيل العلوم الأدبية والفنية في المدرسة لا في العائلة، يتم أيضا تحصيل العلوم الدينية، أي إن كلا العلمين يتم تحصيلهما في المدرسة وليس في البيت، ولكننا عندما نقدم الخدمة الدينية لأولادنا علينا ألا نهمل الأولاد من حولنا، لأن هذا لا يتناسب مع حب الغير الذي أمر به الإسلام.

وتربية أجيال الإنسانية التي كرمها الله تعالى على كل المخلوقات على ألا يكون لها نصيب من المشاعر المعنوية ونور القرآن، تكون سببًا في خسران كبير وأليم، إن وظيفة الأب والأم الأساسية ليست هي إطعام أولادهم، والإفراط في هذا الإطعام بالشكل الزائد عن الحد، بل وظيفتهم الأساسية هي إعدادهم للمستقبل بالغذاء الروحي والنشوة الإيمانية أكثر من الإعداد بالغذاء المادي.

وفي زماننا هذا (الذي تكالب فيه كل الناس على المنافع المادية) على معلمي القرآن الكريم أن يُظهروا اهتمامًا كبيرًا بطلابهم، فقلب الطالب يجب أن يمتلئ بحب المعلم، وقبل أن يبدأ المعلم في تعليمه أبجدية اللغة عليه أولًا أن يعرفه أبجدية القرآن والدين، وبذلك يجعل المعلم قلب الطالب الصغير مفعمًا بحب الله ورسوله مشرقًا بفيض هذا الحب، وكل المعاني الجميلة للإسلام يجب أن تكون ثابتة في قلوب الطلاب المعصومين.

قال النبي ﷺ: «إن الله ﷻ ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب، أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»

(أحمد، جـ٢، ٥٠٩؛ ابن ماجه، الأدب، ١)



أكبر خدمة يمكن أن تُؤدى للإنسان هي خدمة مساعدة العبد من أجل مستقبله الأبدي، وطريق تحقيق ذلك توجيهه للعبودية المتماشية على الاستقامة ولا تكون تلك الاستقامة إلا بالتخلّق بأخلاق القرآن والسير على نهجه.

يجب أن يبدأ تعليم كتاب الله بالشوق والحب لِيكون أهلاً للخطاب الإلهي، وبهذا فإن القلوب الصغيرة المعصومة من الخطأ ستدرك الفرق بين "ألف باء" القرآن و"ألف باء" الأخرى، ويعيشون طوال حياتهم على احترام القرآن الكريم، وستشرق قلوبهم بهذا الكتاب العزيز، وبالتالي ستصبح تلك القلوب خزينة نورانية للأسرار الإلهية.(١٢٣)

وعندما تمتلئ القلوب المعصومة بحب الله تعالى وحب رسوله وحب القرآن الكريم وروحانيته، فإنها تقطع مسافة في عبادتها صوب الكمال حيث تؤديها في خشوع وسكينة، ولأن الإيمان الموجود في قلوبهم قد أصبح قويًّا، فإن عالم القلوب لديهم يصبح ثريًّا، ويُتلى القرآن حينئذ بلذة كبيرة، ويكون العبد خاضعًا لأوامره ونواهيه، وبذلك يتخلق العبد بأخلاق القرآن وأخلاق الرسول ﷺ.

ووجود أبناء يتحلون بتلك الصفات، مكسب معنوي عظيم لكل أب وأم، وقد عبر النبي ﷺ عن هذا المكسب المعنوي في الحديث الشريف، فقال:

---

١٢٣ نظرًا لأن أجدادنا كانوا يشعرون باحترام وتعظيم وتوقير كبير للقرآن الكريم فقد منعوا الأطفال الذين يحفظون القرآن من لعب بعض الألعاب التي قد تفسد احترام القرآن مثل لعبة "واحد واحد" التي كان الطفل فيها يقفز من على ظهر الطفل الآخر. وهذا بالطبع كان عاملًا في تربية هؤلاء الأطفال وهم يشعرون بحب القرآن الكريم واحترامه وتوقيره.



«إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّى لِي هَذِهِ؟! فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ» (١٢٤)

وورد في حديث شريف آخر:

«إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»(١٢٥)

والخلاصة أن خدمة القرآن الكريم عمل قلبي يتطلب حساسية وعناية كبيرة، وهي لطف كبير من الله تعالى لعبده.

٩- تطوير النفس علميًّا وأخلاقيًّا:

على إنسان الخدمة أيضًا أن يعتني بتطوير نفسه بشكل دائم من أجل تقديم خدمة منضبطة دقيقة، كما يجب أن يكون اتصافه بالتطور المستمر أمرًا طبيعيًّا فيه، فإنسان الخدمة الذي لا يمتلك الخبرة والعلم الكافي، والذي لا يراعي تطوير نفسه أخلاقيًّا ومعنويًّا، لا يخدم بالشكل اللائق له، ولا يكون جديرًا بالخدمة.

من ناحية أخرى فإن التكامل والتغير في الحياة إنما هو قانون إلهي وضعه الله تعالى، وأي كائن حي لا يؤهل نفسه

قال النبي ﷺ:
«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»
(الترمذي، الأحكام، ٣٦)

---

١٢٤ أحمد بن حنبل، لمسند، جـ ٢، ٥٠٩/ ١٠٦١٨.

١٢٥ الترمذي، الأحكام، ٣٦ / ١٣٧٦.



لهذا التغير الطبيعي محكوم عليه بالفناء، ولهذا فإن أهل الخدمة يجب أن يكونوا على دراية وعلم بتطوير أنفسهم تماشيًا مع هذا القانون الإلهي.

وثمة خاصية أخرى وهي أن شكل أداء الخدمة وتنوعها يتنوع طبقًا لشروط وظروف العصر، فمن الجائز أن تكون الخدمة اللازم القيام بها بالأمس غير ضرورية اليوم، وكذا كيفية أداء هذه الخدمة يختلف باختلاف الوقت ومقتضياته، ولا يمكن التعرف على هذا الاختلاف والتنوع عند أهل الخدمة إلا بتطويرهم أنفسهم باستمرار، والكلمات التالية لمولانا توضح أنه حتى الكلمة نفسها تتغير وتختلف باختلاف الموقف والوقت، أي إن لكل مقام مقال:

"يا أخي! ما كان للأمس قد مضى مع الأمس
اليوم يوم جديد! ولا بد فيه من قولٍ جديد."

ويقول الإمام علي رضي الله عنه:

"لا ترغموا أبناءكم على عاداتكم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم"،

وهذا فيه إشارة إلى ضرورة الأخذ بمقتضيات ومتطلبات العصر.

ولذا يجب على أهل الخدمة أن يطوروا أنفسهم في النقاط التالية:

يا أخي! ما كان للأمس قد مضى مع الأمس
اليوم يوم جديد! ولا بد فيه من قولٍ جديد

جلال الدين الرومي



أ. التكامل العلمي:

يجب على أهل الخدمة قبل كل شيء أن يجهزوا أنفسهم بالعلوم التي تؤمّن مستقبلهم الأبدي، ويجب أن يكونوا أصحاب معتقد صحيح حتى لا يقعوا في المعتقدات والأفكار الباطلة، لذا يجب عليهم أن يتعلموا العلوم الدينية والفقهية من أجل التصرف طبقًا للمقاييس الإلهية في عباداتهم وأعمالهم، ولكي يكونوا عبادًا ربانيين، عليهم أن يقرؤوا ويفهموا السنة النبوية وسيرة النبي ﷺ بتدبر وتمعن، ويجب أن يكون القرآن الكريم الذي جاء رحمة وهداية للإنسانية وشفاء للقلوب، مصدرًا لفيض قلوبهم، إذ يجب على أهل الخدمة أن يقرؤوا القرآن باستمرار، وأن يتعلموا أحكامه وأن يعملوا بها، كما يجب على أهل الخدمة أن يقرؤوا الكتب الأخرى التي ستكون وسيلة لزيادة ثقافتهم وتطوير شخصياتهم، كما يجب عليهم أيضًا أن يزيدوا من درجة ثقافتهم ومعلوماتهم بقراءتهم الكتب التاريخية والأدبية.

جودة الخدمة منوطة بقلوب أهلها، فحين تتطهر النفس تزداد حساسية القلب، وينعكس هذا النضج على الخدمة نفسها.

كما يجب على أهل الخدمة أن يجعلوا من القصص القرآني والنصائح النبوية ونصائح أهل التصوف، والوصايا التي أرسلها علي رضي الله عنه إلى عماله [١٢٦] ونصائح الأولياء أورادًا يداومون على قراءتها باستمرار.

---

١٢٦ للاطلاع على وصايا علي رضي الله عنه المذكورة، انظر آخر الكتاب.



إن رغبة الخدمة النابعة من الحب الإلهي، والتي مكانها في القلب، تجعل العبد رحالًا في العالم اللامتناهي، وبذلك يتجرد القلب من ظلمة القسوة، ويصبح مفعمًا بشفقة الحب، وبالأخلاق والعلم المصاحبين لتلك الروح يمكنه الوصول إلى أبدية مسكرة.

والمداومة على مجالس العلم -إلى جانب هذا النشاط في القراءة- يُعد من العوامل المهمة في تكوين شخصية المسلم الحق، ولهذا يجب علينا ألا نفوّت مجالس العلماء الربانيين.

ب. التكامل المعنوي:

على الشخص الذي يقوم بالخدمة أيضا أن يقوم بالترقي المعنوي طوال الفترة التي يؤدي فيها الخدمة؛ ولهذا عليه أن يبذل كل ما في وسعه من أجل أن يطهر قلبه ويرسخ فيه معاني الإخلاص لله تعالى، وأن يؤدي عبوديته بإخلاص وتواضع وأدب، وإن لم يرتق صاحب الخدمة بروحه فإن الخدمة التي يقدمها ستؤتي نتائج عكسية، ويقوم بعمل ما لا يلزم عمله، ويهمل ما يلزم عمله، لأنه لم يتمكن من أن يكون صاحب فراسة، وعندما يجري الأمر على ذلك فإن الخدمة لا تكون مثمرة ولا تأتي لصاحبها إلا بالتعب، لأنه يُحرم من نصرة الحق تبارك وتعالى بسبب الضعف في نيته مع العلم أنه يرى قصور نفسه، ولهذا يجب علينا أن نهتم بنضوج وتكامل قلوبنا بالتقوى من أجل نيل معونة الله ومحبته.

وتقديمُ الخدمة المقبولة لا يتأتى إلا إن كان المرء صاحب فراسة، محبا لله تعالى، وهذا أيضًا مرتبط بكونه عبدًا يحبه الله تعالى، وقد تم بيان ذلك في الحديث القدسي:



«...وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ...»(١٢٧)

وترقي القلب مرتبط بأن يكون القلب سليمًا متعلقًا بالله تعالى، وهذا لا يتحقق إلا بمراعاة الأسس التالية:

١- مراعاة أن يكون الرزق حلالًا.

٢- مراعاة حق العبد والمخلوقات.

٣- المداومة على الدعاء والاستغفار.

٤- قراءة القرآن الكريم واتباع أحكامه.

٥- أداء العبادة بخشوع.

٦- قيام الليل، فإن نهارنا ينير بقدر قيامنا في ليلنا، ووقت السَّحَر هو أحسن الأوقات، وضياع هذا الوقت خسران كبير.

٧- الدوام على ذكر الله والمراقبة.

٨- التفكر في الموت.

"اللقمة بذرة، والأفكار محصولها؛ واللقمة بحر، والأفكار لآلئها. ومن تلك اللقمة الحلال في فيك تأتي الخدمة في سبيل الله والرغبة في الدار الآخرة".

جلال الدين الرومي

---

١٢٧ البخاري، الرقاق، ٣٨/ ٦٥٠٢.



"كما أن الفؤاد لا يموت تحت التراب، كذلك فإن آثاره تبقى خالدة. فأهل القلوب يحيون معنا وهم في عالم البرزخ بخدماتهم، وأعمارهم أطول ممن هم في الحياة".

جلال الدين الرومي

٩- أن يحرص على معية الصالحين والصادقين، والابتعاد عن الفجار والفساق.

١٠- المداومة على مصاحبة العارفين والعالمين العاملين بعلمهم.

١١- أن يكون من أهل الإنفاق.

ولهذا يجب على كل من يقوم بالخدمة سواء كان معلمًا أو مدرسًا، أن يجعل قلبه أولًا بمثابة تكية العبادة، فالأشخاص الذين لم يجعلوا قلوبهم تكايا للعبادة لا فرق بينهم وبين حيطان البناء.

وبالتالي ينهدمون بسرعة ويلتحقون بالعدم، أما الذين يفتحون قلوبهم للناس ويحتضنونهم فإنهم يَحْيَوْن إلى الأبد كمولانا جلال الدين الرومي ويونس أمره، وتستمر فيوضاتهم الروحيةإلى القيامة بلا انقطاع.

ج- التكامل المِهني:

يجب أن يكون أهل الخدمة أصحاب خبرة ونجاح وعلم تستوجبه الخدمة نفسها، وإن لم تُكتسب تلك اللياقة، فإن أهل الخدمة حينئذ لن يتمكنوا من أداء الخدمة الصحيحة، بل وربما كانت خدمتهم ضارة، والخدمات التي تتم بشكل جيد ومتقن لا تضيع أبدًا، يقول الله تعالى:

﴿...إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٣٠)



بقاء الأمم منوط بتربية جيل له قلوب رقيقة تفيض منها مشاعر المحبة؛ جيل يربي أولاده على بطولات (تشاناك قلعة) ويكون صاحب إيمان راسخ، محبًّا لأمته، مدركًا للقيم المادية والمعنوية كلها.

وقال النبي ﷺ:

«إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»(١٢٨)

وعلى هذا فإن أهل الخدمة مكلفون بمعرفة وتعلم كيف يؤدون الخدمة على أكمل وجه، وثمة خاصية أخرى تستبين من الحديث الشريف، وهي أن الخدمة التي تُؤدى بمشاعر الإحسان -أي تؤدى بمشاعر الخوف من الله ومراقبة الله- تجلب المحبة الإلهية.

والحاصل أن معنى تطوير أنفسنا من الناحية العلمية والأخلاقية، يعنى أن نعمل على زيادة خصالنا وأوصافنا التي تشكل شخصيتنا وسماتنا الباطنة والظاهرة بصفة دائمة ونبذل قصارى جهدنا كي تكون هذه الخصال والأوصاف على أكمل وجه.

وهذا يعني أن الجيل الجيد هو الجيل الذي تم غرسه بأيدي المربين الجيدين، أي الشخصيات الناضجة التي تربي هذه الجيل على الأخلاق والعلم، أما الجيل السيئ فهو الجيل الذي تم غرسه بأيدي أناس لا حظ لعقولهم من العلم الرباني ولا نصيب لقلوبهم من النفحات الإلهية، ولهذا فإنه

١٢٨ البيهقي، شعب الإيمان، جـ ٧، ٢٣٢/ ٤٩٢٩.



لا يمكن التوصل إلى الغايات السامية والعالية إلا بواسطة الأشخاص الكاملين، الذين يتم على أيديهم الطاهرة تربية الجيل الجيد.

وقد كتب أجدادنا الذين كان جيلهم يضم الكثير من الشجعان بمعركة "جناك قلعه" التي تعرض قوامًا كهذا، ملحمة تاريخية خالدة لن ينساها التاريخ، فقد كان كل جندي منهم يدافع عن المكان الذي استشهد فيه كأنه قائد، لقد كتب هذا الجيل المشرف على صفحات التاريخ بعبارات من ذهب عبارة:

"لن يعبروا من الدردنيل إلا على جثثنا!".

وفي الحقيقة لو كان في مجتمع ما أناسٌ قادرون على حمل الأمانة على عاتقهم، فإنه من السهل والممكن إيصال هؤلاء الناس إلى الذروة، وإن لم يكن ثمة أناس بهذه الكيفية في مجتمع ما، فإن أزمة إنسانية ستحدث في هذا المجتمع، من المؤكد أن الرأس حينما ينفصل عن الجسد تتحرك البنية التى بقيت خالية عن الرأس برهة من الزمن ثم تلحقها الخسارة الحزينة، ومثل الأزمة الإنسانية التي أشرنا إليها مثل الجسد بلا رأس، لذا فالمسألة المهمة هي تنشئة أجيال ذات سمات وخصائص عالية، كما قال الشاعر المرحوم محمد عاكف:

"لابد من رجل ليبني رجالا!"

عشرة من أنصاف الرجال لا يساوون رجلًا.



وقد كان سيدنا عمر ﵁ يجلس ذات يوم مع أصحابه،

فقال لهم: تمنوا،

فقال أحدهم: أتمنى أن يكون ملء هذا البيت دراهم فأنفقها في سبيل الله ﷿،

فقال: تمنوا،

فقال أحدهم: أتمنى أن يكون ملء هذا البيت ذهبًا فأنفقها في سبيل الله ﷿،

قال: تمنوا،

قال آخر: أتمنى أن يكون ملء هذا البيت جوهرًا أو نحوه فأنفقه في سبيل الله ﷿،

فقال عُمَر: تمنوا،

فقالوا: ماذا نتمنى بعد هذا؟

قال عُمَر ﵁:

"لكني أتمنى أن يكون ملء هذا البيت رجالًا مثل: أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان فأستعملهم في طاعة الله ﷿" -أي في خدمة الإصلاح والتبليغ-.(١٢٩)

"لكني أتمنى أن يكون ملء هذا البيت رجالًا مثل: أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان فأستعملهم في طاعة الله ﷿"

عمر بن الخطاب ﵁

١٢٩ البخاري، التاريخ الصغير، جـ ١ ، ٤٢٩ .



١٠- نسبة التقصير إلى النفس والتوفيق إلى الله ﷻ:

من المهم جدًّا عدم إشراك النفس في الخدمات التي تؤدى في سبيل الله ﷻ، وأهم خاصية يجب أن تكون عند أهل الخدمة هي معرفتهم بأن التوفيق الذي ينالهم هو من الله وليس من أنفسهم، فعندما تحدث الله تعالى عن انتصار غزوة بدر في القرآن الكريم قال:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال: ١٧)

وهذا بيان بأن الفاعل الحقيقي لهذا النصر هو الله تعالى.

والمثال التالي يعكس أيضًا تلك الحقيقة: فرعون الذي انقلب كبرياؤه رأسًا على عقب بالمعجزات التي أظهرها سيدنا موسى عليه السلام، كان عاجزًا أمام هذه المعجزات، فقام فرعون بدعوة أمهر السحرة للوقوف أمام موسى، ولكنه كان خائفًا. فجمع السحرة وسألهم، هل أنتم واثقون من التغلب على موسى، فقالوا له نحن متأكدون من انتصارنا عليه، فليس على وجه الأرض كلها من هو أفضل منا في السحر، ولن يتمكن موسى من إفساد سحرنا، وعلى هذا تقرر أن يكون اللقاء يوم العيد ليجمع أكبر عدد من الناس، فاجتمع كل الناس، وكانوا في اشتياق كبير لرؤية هذا اللقاء.

قال الله ﷻ:
﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾
(الأنفال: ١٧)



ألقى السحرة حبالهم وعصيهم فأصبحت كل واحدة منها ثعبان، وقد صور القرآن الكريم هذا المشهد على النحو التالي:

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى. قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (طه: ٦٦ - ٦٩)

فألقى موسى عصاه، فأصبحت حية كبيرة، أكلت كل ما ألقوا، وكل ما في أيديهم، ولم يظهر على بطن تلك الحية أي تغيير، إن هذا النجاح وهذه المهارة التي ظهرت ليست من صنع البشر، وإنما هي قدرة إلهية، أما ما فعله السحرة فكان عبارة عن بعض الألعاب السحرية البشرية التي تسحر العيون فقط.

وبينما كانت العصا تلقف ما يصنعون، قال رئيس السحرة لأحد أعوانه انظر إلى موسى ما به؟ لقد كان موسى خائفًا جدا، فقال رئيس السحرة:

"إن هذا ليس من عمل موسى، إنه عمل الله، لأن الساحر لا يخاف من سحره، ولا يخاف الماهر في شيء صنعه، إن هذه من صنع الله"،

ولما سمع السحرة هذا منه آمنوا بالله تعالى.

يبارك الله تعالى في خدماتنا بمقدار إخلاصنا.



وهذه الحادثة تُظهر لنا أننا إذا لم نشرك أنفسنا مع الله في أي عمل نبتغي به وجه الله فسيتجلى علينا الله بلطفه وتأييده، ويتحصل لنا الفلاح والنجاح، حتى وإن كنا ضعفاء ومهارتنا قليلة، لأن موسى لم تكن لديه الخبرة أو المهارة بالسحر، إلا أن امتثاله للأمر الإلهي والتجاءه لله جعله مظهرًا للمعجزة الإلهية، وأمده الله بالعون الإلهي، أما السحرة فكانوا عاجزين.

ولهذا علينا أن نعرف ضرورة توكلنا على الله بعد أن نبذل ما في طاقتنا من أجل أي عمل نُكلَّف به، وأن ندرك أن النتيجة في هذا العمل لن تتحقق إلا بمراد الله ولطفه علينا، وقد أوجز أجدادنا هذا الحال في جملة صغيرة وهي "وبالله التوفيق".

وهذا يعني أننا نضع البذرة في التراب، ولكن تقدير نموِّها إلى أن تصبح شجرة كبيرة أو فسادها مفوض إلى الخالق، فموسى هو الذي ألقى العصا، ولكن الله تعالى هو الذي حولها إلى حية تسعى.

ولهذا يجب علينا أن نحترز من الغفلة، وألا ننظر إلى النعم التي نلناها، ولكن ننظر إلى معطيها، وقد عبّر مولانا عن هذه الخاصية في بعض أبياته، فقال:

"لا تظنن حمرة الرصاص المصهور لونه الحقيقي، وإنما هي هبة النار ليتشكل بشكل جديد، وإن رأيت النور

حين تدخل "الأنانية" مجالًا، تبدأ عبودية المناصب والمواقع، ولا تظهر الرحمة هناك البتة، فالأنانية سرطان الحياة الروحانية.



ينبعث من البيت فاعلم أن الشمس هي التي أنارت، وتقول الشمس لمن ينظرون إلى الضوء المنبعث منها: أيها الغافل، اصبر قليلًا، وستجدني أختفي وراء هذا الجبل أو أغيب في أعماق هذا البحر، وحينئذ ستدرك الحقيقة".

وقد أورد عبد القادر الجيلاني هذه النصائح المتعلقة بهذه الحقيقة:

"يا بني متى ستتخلص من روابط العلم والحكمة؟ ومتى ستصل إلى منزل القدرة الإلهية؟ ومتى سيوصلك عملك وحكمتك إلى قدرة الله العزيز الجليل؟، لا تفر من الله بسبب ما يصيبك من مصائب، فالله يصيبك ببعض المصائب لحكم جليلة: فهل ستعتمد على الأسباب وتترك باب الله؟ أم هل ستترك الأسباب وتلتجئ إلى الله؟ يا ترى هل ستعتمد على الظاهر؟ أم على الباطن؟ يا ترى هل ستعتمد على ما تدركه؟ أم على ما لا تدركه؟ يا ترى هل ستتجه إلى ما تراه؟ أم إلى ما لا تراه؟ هل ستعرف أن الحكمة والنجاح والعلم الممنوح لك من الله؟ أم من نفسك؟"

وهذا يعني أن المؤمن يجب أن يعلم ويدرك أن القدرة لله وحده، وأن ما أصابه من نجاح في الخدمات التي قام بها إنما هو من الله وحده، وليس لنفسه نصيب منه، بل عليه أن يزيد من حمده وشكره لله تعالى لأنه جعله وسيلة في تحقيق تلك الخدمة.

"من يظن أنه كالفستق، فهو كالبصل ليس فيه إلا قشور".

الشيخ سعدي



قال أحد الباشاوات: مولاي السلطان يا تُرى كم مرة رأت الدنيا مثل هذا المنظر المهيب؟ مهما افتخرتَ فهو قليل، فأجاب السلطان العظيم القانوني بهذا الرد: "يا باشا وكيف لي أن أفخر بهذا النصر، إنما الشكر والحمد لله تعالى وحده على أن مكّننا من هذا النصر؟!!"

وهذا هو السلطان القانوني -الذي تمكن من المزج بين سلطنة الدنيا وسلطنة العالم المعنوي- يشعر بأن كل التوفيق والنجاح الذي حققه في حياته إنما هو من الله تعالى وحده، وحالة القانوني -في القصة التالية- تبدو كأنها مقياس لإنسان الخدمة، هزم خيرُ الدين باشا القائدُ البحري أندريا دوريا في بروزه، حتى إن أندريا دوريا تمكن من إنقاذ نفسه بصعوبة بالغة، وفر هاربًا تاركًا سفنه وراءه، وقد تمكن خير الدين باشا من الاستيلاء على تلك السفن بما فيها من آلاف الأسرى، دخل خير الدين باشا من سَرَايْ بُورْنُو إلى خليج اسطنبول سائقًا أمامه هذه السفن وهؤلاء الأسرى، وكان السلطان القانوني ومعه الوزراء ورجال الدولة يشاهدون هذا المنظر المهيب من الساحل، فقال أحد الباشاوات: مولاي السلطان، يا تُرى كم مرة رأت الدنيا مثل هذا المنظر المهيب؟ مهما افتخرتَ فهو قليل، فأجاب السلطان العظيم القانوني بهذا الرد:

"يا باشا، وكيف لي أن أفخر بهذا النصر، إنما الشكر والحمد لله تعالى وحده على أن مكّننا من هذا النصر؟!!"

وهكذا يجب أن يتجرد إنسان الخدمة من مشاعر الأنانية، وأن يراعي الأدب، وأن يزيد من شكره وتواضعه لله تعالى، ويجب أن يتخلى الإنسان في الخدمة عن مشاعر الفرح والزهو والأنانية التي هي من أهم معوقات الخدمة، يقول الله تعالى:



﴿... لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦)

ولهذا يجب على الإنسان أن يستعيذ بالله من مرض الفخر والأنانية أيًّا كانت النعمة واللطف الذي ناله، حتى رسول الله ﷺ فخر الكائنات، الذي بعث رحمة للعالمين، دائمًا كان متواضعا بعيدا عن التفاخر وكثيرا ما كان يقول:

«لَا فَخْر»

ويقول أيضًا:

«أَنَا قَائِدُ الْمُرْسَلِينَ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَلَا فَخْرَ» (١٣٠)

ويقول أيضًا:

«...أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ بِحَلَقِ الْجَنَّةِ وَلَا فَخْرَ، فَيَفْتَحُ اللَّهُ فَيُدْخِلُنِيهَا وَمَعِي فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ عَلَى اللَّهِ، وَلَا فَخْرَ» (١٣١)

يقول الله تعالى:

﴿... لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾

(القصص: ٧٦)

١٣٠ سنن الدارمي، المقدمة، ٨ / ٥٠.

١٣١ سنن الدارمي، المقدمة، ٨ / ٤٨.



قال الله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾
(البقرة: ١٥٣)

حقا إن الادعاء والأنانية هما سرطان طريق الخدمة، ومن الصعب جدًّا التداوي من هذا الداء، وفي كل التكايا عمومًا توجد لوحة مكتوب عليها كلمة "هيج" أي: عدم، أو لا شيء، وهي تلقن الإنسان مفاهيم عجزه وضرورة تخليه عن الأنانية، ويجب على الإنسان أن يدرك معنى عبوديته وعجزه، وعندما يصل الإنسان إلى تلك النقطة يصل إلى الإخلاص، ويكفيه أقل العمل، وقد عبرت الأبيات التالية عن ذلك:

لو وقفت على عجزك....
فإن أدنى عمل عندك سيكون كالجبل.
وستكون كل عيوبك معافاة...
وسيصبح السم كالزبد والعسل.
وستكون الجبال الجافة حدائق...
والدنيا كلها بستانًا لك.[١٣٢]

يجب على الإنسان الذي يقوم بالخدمة أن يتضرع بخشوع وتواضع دائم لله تعالى، وأن يطلب المدد والعون منه سبحانه، وقد ورد في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣)

---

١٣٢ مأخوذة من المخمسة التي نظمها أسعد الأربيلي في مدح نيازي بابا.



والمؤمن بهذه الوصية الإلهية عليه أن يتوضأ ويصلي ركعتين بنية صلاة الحاجة في وقت التوجه أو في أي وقت بعد السحر -إذا لم يتسن له ذلك-، ويطلب من الله التوفيق في أي عمل يقوم به ويبتغي فيه النجاح والتوفيق.

والشخص الذي يؤدي الخدمة عليه ألا يحمّل الآخرين تقصيره في الخدمة، بل يجب عليه أن يبحث عن العيب والتقصير في نفسه أولًا، ويجب عليه أن يحاسب نفسه ويسامح الغير، لأن العالم الداخلي للذي يقوم بالخدمة ينعكس على من تُؤدى له الخدمة، فأي نقص أو عيب يظهر فيمن يتلقى الخدمة، إنما هو ضعف ينعكس في الأساس من الذي أدى هذه الخدمة.

إن الإمام الرباني قدس سره كتب إلى أحد تلامذته بعض النصائح في رسالة أرسلها رداً على رسالته فقال:

"تشتكي من تلامذتك الذين تقوم بإرشادهم وتتكدر من حالهم!! لا تشتكي منهم، بل عليك أن تشتكي من نفسك ومعاملتك لهم، لأنك تعاملهم بحالة لا مفر من الشكوى في العاقبة، والحال أنه ينبغي على الأستاذ أن يعاملهم بمعاملة حسنة، وأن يكون لهم القدوة الحسنة، ولا يكتفي في مخالطتهم بمجرد ذكر القصص والحكايات فحسب.-يعني أن المهم أن يكون الاستاذ قدوة بمعاملة حسنة أكثر من تكون معاملته قوليا-."

"القبر ليس حجارة ولوحًا خشبيًا، ففي الفؤاد الطاهر ما يلزم هو قبر في العالم النقي، ودفن وجودك الصغير أمام قدرة الله وعظمته".

جلال الدين الرومي



١١- السعي لأن يكون نموذجًا وقدوة في الخدمة:

يجب على الأشخاص الذين يبذلون الخدمة أن يحملوا على عاتقهم مهمة الخدمة بالمشاركة، وليس على شكل الواجب المفروض على من يتلقى الخدمة تأديته، فالذين يظنون أنهم أدوا الخدمة بإرسالهم الأوامر إلى الأماكن المختلفة وهم في أماكنهم، أشخاص لم يتمكنوا من فهم روح الخدمة.

فالشخص الموجود على رأس الخدمة لا بد أن يكون موقعه في الخدمة إيجابيًّا وفعالًا أكثر من الذين يعملون في الخدمة تحت يديه، بل يجب أن يكون قدوة ونموذجًا لهم، فتصرفٌ كهذا سيزيد من حماسة الإخوة، وسيعمل على تفانيهم وقيامهم بالخدمة على أكمل وجه، ويمكن رؤية الكثير من الأمثلة والنماذج على هذا في حياة النبي ﷺ، فقد حمل النبي ﷺ الأحجار على ظهره الشريف أثناء تأسيس المسجد النبوي ومسجد قباء، وشارك الصحابةَ حفر الخندق، بل إنه كان في بعض الأحيان يخدم الصحابة.

ويقول الرسول ﷺ:

«خَادِمُ الْقَوْمِ سَيِّدُهُمْ...».[١٣٣]

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

(الصف، ٢)

---

١٣٣ الديلمي، المسند، جـ ٢، ٣٢٤ .



وهذا دليل يظهر لنا بوضوح ضرورة أن يكون مديروا أعمال الخدمة أصحاب قوام روحي يقدّم الخدمة ولا ينتظرها.

واشتراك الرؤساء في الخدمة مع مرؤوسيهم سيعمل على تدعيم العلاقات فيما بينهم، وسيعمل على خلق مناخ جماعي قوي، وبذلك سيتمكنون جميعًا من أداء أصعب الخدمات بسهولة بالغة، والتاريخ مليء بالأمثلة التي لا تحصى على هذا:

فالسلطان سليمان القانوني –من أجدادنا العظماء– كان يمثل أحد الإداريين الذين يمثلون بكل عظمة هذه الروح بإجراءاته وشخصيته، ومشاركته بنفسه في حملة زِيجَــتْــوَارْ بالرغم من عدم قدرته الجسمانية على المشاركة، وذلك يبرز مدى قوة إيمانه وقوة مشاعر المشاركة التي كانت في روحه، وقد قال الوزير صُقُولُّو محمد باشا في حملة زِيجَــتْــوَار –التي كانت آخر حملة يخرج إليها القانوني صاحب الانتصارات العظيمة–:

"مولاي السلطان لقد جلبت إلى العالم الإسلامي الكثير من الفتوحات، وتعبت كثيرًا، ووهبت عمرك في سبيل الإسلام، ولو اشتركت معنا في الحملة وأنت في هذه السن فستكون مشقة كبيرة عليك، ولهذا فهل يمكن أن تبقى في اسطنبول لإدارتها بينما نخرج نحن للحرب".

قال النبي ﷺ:

«خيرُ الناس أنفعهمُ للناس»

(السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ٨)



لا تكون الخدمة بالتحكم عن بعد، بل يجب على الرؤساء أن يكونوا في المقدمة وأسوة في التضحية.

فرد عليه السلطان القانوني قائلًا:

"حسنًا، اسمع يا صُقُولُّو، لتكن وصيتي هذه للأجيال التي ستأتي من بعدي، يجب على السلطان أن يخرج بنفسه إلى الحملة، فعندما يرى الجنود السلطان بجانبهم تزداد حماستهم وشجاعتهم، حتى العدو إذا ما رأى أن السلطان يشارك بنفسه في الحملة فإنه يدرك أن هذا الجيش قوي، وبالتالي تخور قوته المعنوية، فالسبب الحقيقي وراء الانتصار في المعركة هو الروح المعنوية، أما أنا فلي الكثير من الخبرات في إدارة الدولة منذ صغري، وهذه الخبرات ستكون مطلوبة وبشكل عاجل في الحملة، فاللحظات والدقائق في كثير من الأوقات هي التي تغيِّر مجريات الأقدار، ولهذا فإنني سأشارك في الحملة بالرغم من سني هذا، أما لو ظللت في القصر ومت على فراشي، فماذا سأقول لأجدادي الفاتحين حينما ألقاهم يوم القيامة؟".

فقال صُقُولُّو بعد أن سمع هذا الكلام:

"القرار لمولاي السلطان"، ثم سكت.

كان السلطان لا يعلم كيف سيقضي هذه الرحلة التي تستمر عدة أشهر على ظهر الفرس؟ ولهذا لف السلطان على ظهره نطاقًا كبيرًا من الحبل القوى حتى يبدوا دائمًا منتصبًا على ظهر فرسه حتى يراه الجند دائمًا قائمًا.



بدأت الحملة، وكان الطقس باردًا، وكانت عربات المدافع تنغرز بين الحين والآخر في الأحراش، ولم تكف قوة الخيول لإخراج العربات من الأحراش، وكان معظم الجيش قد تقدم، ولم يتبق بجوار تلك العربات سوى بعض الجنود والباشاوات، فأعطى السلطان أمره لكل من هو موجود بمن فيهم الباشاوات والأركان الحربية والقادة بأن ينزلوا إلى الأحراش ويحملوا على أكتافهم عربات المدافع لرفعها من الأحراش، فنزلوا جميعًا بروح معنوية عالية وشمروا عن سواعدهم وتكاتفوا حتى أخرجوا العربات من الأحراش، فقال السلطان لكاتب الوقائع[١٣٤]:

"اكتب هذا؛ ليكن عبرة للأجيال القادمة بعدنا، حتى يقرؤوا ويطبقوا، اكتب أن باشاوات ووزراء القانوني نزلوا إلى الأحراش من أجل رفع عربات المدافع منها"، إنهم تمكنوا من القضاء على هذه الفاجعة بإذن الله.

نعم، لقد كانت هذه بمثابة الهدية التي أعطاها القانوني للأجيال التي ستأتي بعده، وطوال التاريخ وجدنا الشعب يأتي على القمة عندما يكون الإداريون في القمة أيضًا، لأن هناك تطابقًا بين الإداري ومن يديره، من ذلك على سبيل المثال: عندما تولى عمر بن عبد العزيز ﷺ أمر الأمة

لا يمكن اتقان العمل دون الخضوع له.

١٣٤ هو موظف رسمى "مؤرخ للدولة" يقوم بتسجيل الوقائع للدولة العثمانية .



"صوت الناي
هو نار العشق
والشوق الذي
يحرق الفؤاد،
والأثر في
صوت الناي هو
من نار العشق
الكامن فيه، فمن
لم يجد تلك
النار في داخله،
فليفنى (يتجرد
من أنانيته)..."
جلال الدين الرومي

الإسلامية كانت الفتن تضرب أطنابها في الدولة بشكل كبير، ولكنه بفضل إدارته الحكيمة استطاع أن يقضي على تلك الفتن في خلال سنتين ونصف حكم خلالها، وتغير الكثير من الأشياء، وتحقق الكثير من الفتوحات الكبيرة المادية والمعنوية.

أي إن شكل معيشة الإداري في المجتمع تنعكس على رعيته، ولهذا فإن كان هذا الشكل للحياة ضروريًّا لكل من يقومون بالخدمة فإنه من الأجدر والأولى أن يكون مهمًّا لمن يقومون بالخدمات الإدارية.

١٢- الثبات على الخدمة وبذلها بكل حماسة:

إن العشق والشوق والحماسة التي في القلوب هي التي تجعل الإنسان يهرول إلى الخدمة، والتي تضمن أداءها بحب، والشخص الذي لا يحمل في قلبه حماسًا كهذا لن يستطيع الحصول على السعادة المعنوية من الخدمات التي يؤديها.

وهنا ثمة حقيقة مهمة وهي أن ازدهار المؤسسات، بل وحتى الدول كان يتواكب مع الفترات التي تشتعل فيها القلوب بالحماسة، ومن ذلك على سبيل المثال: عهد السلطان القانوني الذي كان من أزهى عصور أجدادنا العثمانيين، رأينا فيه كل فرد من أفراد المجتمع يسير بالجدية والحماسة والوجد الإيماني، ولم يكن هذا خاصًّا بالسلطان

فقط، بل كانت الحماسة والوجد الإيماني يُشاهَد في كل مؤسسات الدولة، بل وحتى في أصغر موظف في الدولة.

وكان من مظاهر الصعود إلى الذروة هذا المثال التالي: لما دخل الجندي إلى قصر طوب كابي لابلاغ بشارة نصر «بِيرَوَزَة» على حصانه بسرعة هائلة تمكن الجندي من تهدئة الحصان بجر لجامه والحصان بدأ يدور على قدميه، فلما رأى السلطان هذا المنظر قال للجندي:

"أتيت بحصان طاغ جدا!!"

فأجاب الجندي بقوله: "مولاي السلطان! إن البحر الأبيض كان مثل الحصان الطاغي فهدّأناه نحن".

كان هذا الوجد وهذا الحماس موجودًا في قلب الجميع بدءًا من السلطان وحتى أصغر جندي، وعندما بدأ هذا الحماس يُفقَد، كانت هذه هي بداية النهاية.

وتطور الخدمات في سبيل الله لتؤتي ثمرتها، إنما يكون بنسبة الحماس والمشاعر الدينية الموجودة في القلوب، وقد أوضح ابن عباس ﵄ أن الله تعالى أنزل الآية الكريمة التالية لما بدأ التكاسل والرخاوة تظهر في قلوب المؤمنين:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نزلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦)



قال النبي ﷺ: «اللّهم، إني أعوذ بك من عِلْم لا ينفع، وقلبٍ لا يخشع، ونَفْسٍ لا تَشْبَعُ، ومن دعوة لا يستجاب لها» (مسلم، ٧٣/ ٢٧٢٢)



وأحيانًا تتكون مشاعر الملل تجاه الخدمات مع الوقت عند بعض الأشخاص الذين يخدمون لفترة طويلة، وهذه تعد إشارة خطيرة لأهل الخدمة، أي إن هذه النفس تنسحب إلى الدنيا وتقول لنفسها: "هذا يكفي"، والرواية التالية عن أسلم أبي عمران توضح لنا أهمية وضرورة عدم فقدان الحماسة في الخدمة طول العمر: قال أبو عمران: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية في العهد الأموي كي ننال البشارة النبوية التي تبشر بفتح القسطنطنية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد–وفي الجيش خالد بن زيد أبو أيوب الانصاري – والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس:

"مه مه، لا إله إلا الله! يلقي بيديه إلى التهلكة!"

فقال أبو أيوب:

"إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه وأظهر الإسلام قلنا هلم نقيم في أموالنا ونصلحها"

فأنزل الله تعالى:

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥)

فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد.

قال الله ﷻ:
﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾
(البقرة: ١٩٥)



قال أبو عمران:

"فلم يزل أبو أيوب ﵁ يجاهد في سبيل الله ﷻ حتى دفن بالقسطنطينية-اسطنبول- بجوار أسوار المدينة". [١٣٥]

لقد نال أبو أيوب الأنصاري ﵁ شرف ضيافة رسول الله ﷺ في بيته ستة أشهر، وقد شارك أبو أيوب الأنصاري مع رسول الله ﷺ في غزوات كثيرة، وبالرغم من ذلك خرج إلى الجهاد وهو في الثمانين من عمره، وهذا دليل ساطع على أهمية بقاء الحماس الديني متعمقًا في قلب المؤمن طوال عمره.

والإيمان الذي يربط بين العبد وربه، يعد في ذاته حماسًا، والمؤمن صاحب هذا الحماس لا يخاف من أي شيء، ويجب ألا تنكسر عزيمته، وألا يفقد أمله، يقول الله تعالى منبها إلى عدم التهاون والتكاسل:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

(آل عمران: ١٣٩)

يجب أن يكون صاحب الخدمة حلَّالًا للمشكلات، وليس منتجًا لها، فبدلًا من أن يتقرب إلى العمل بالنقد والبحث عن الثغرات، عليه أن يتقرب إلى الأشياء بروح بنَّاءة إيجابية.

قال الله ﷻ:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

(آل عمران: ١٣٩)

---

١٣٥ انظر: أبو داود، الجهاد، ٢٣؛ الترمذي، التفسير، ٢.



"إن جلس الإنسان في مكان فمن الصعب أن ينهض منه، لما كان الشخص ساكنا لم يتحرك يصبح مخدَّرًا، فهو بتلك الحالة لا يزال يتكلم، والكلام يتحول الى القيل والقال. واذا تسيطر القيل والقال عليه لن يفلح، وحينئذ يصبح الصديق عدوًا، والعدو وحشًا".

الشيخ أدبالي

أما التهاون والتخاذل والشعور بالأنانية تجاه المشكلات، فإنه يعد عجزًا، والعجز لا يليق بالمسلم، ولهذا يجب على أهل الخدمة ألا ينسوا هذا الدعاء النبوي:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ وَالهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ...»[١٣٦]

وأهم مفاتيح النجاح في الخدمة، الصبر والثبات، يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)

ويقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣)

ويقول ألمالي محمود حمدي يازير في تفسير هذه الآية:

"إن من أسماء الله تعالى "الصبور" وإن وجد الصبر في شخص، فهذا يعني أنه يوجد تجل من قدرة الله في هذا الشخص، وإن اتحد الأشخاص الذين يتحلون بالصبر بعضهم ببعض، فإنهم يكونون مظهرًا لمدد الله تعالى لهم، ويكون الله تعالى دائمًا وليهم".[١٣٧]

---

١٣٦ البخاري، الدعوات، ٣٨ / ٦٣٦٧.

١٣٧ ألمالي م. حمدي يازير ، لغة القرآن دين الحق. ج ١ ، ص ٥٤٦ .



ومن الطبيعي جدًّا أن يواجه أهل الخدمة أثناء قيامهم بالخدمة الكثير من المشكلات، فإن صبروا على تلك المشكلات، فإنهم سينالون المدد الإلهي، وسيحققون النجاح بإذن الله ﷻ.

ويقول الإمام الرباني:

"يجب على كل من يشتغل بالدعوة إلى الإسلام وتعليمه وبيان حقائقه أن يواجه الأزمات والمشكلات التي تواجهه في طريقه بصدر رحب، لأن الأنبياء أنفسهم عانوا من هذه المشكلة نفسها، فتعرضوا للأذى، حتى إن رسول الله ﷺ الذي يعد أفضل الرسل يقول:

«...**لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ**...» (١٣٨)" (١٣٩)

والكلمات التالية لمحمد إقبال بمثابة النبراس الذي يضيء لأهل الخدمة طريقهم في مواجهة تلك الصعوبات:

"قال غزال لغزال آخر شاكيا له همه: بعد الآن سوف أعيش عند الكعبة عند بيت الله الحرام، فهناك الراحة والأمان والعشب، وهناك أرتع بعيدا عن الصيادين الذين نصبوا الفخاخ في الفيافي، وهكذا يطمئن قلبي".

ولما سمع غزال الفيافي هذه الكلمات قال:

الصبر مهم جدًّا، وعلى الأمير أن يعرف كيف يصبر، فلا يقطف الوردة قبل وقتها، فالكمثرى لا تُؤكل قبل نضجها، وإن أكلتها فإنها تبقى في صدرك.

الشيخ أدبالي

١٣٨ الترمذي، صفة القيامة،٣٤/ ١٥١ .

١٣٩ الامام الرباني، المكتوبات، ١٩٣ .

"يا صديقي العزيز، إن كنت تريد العيش فعش في المخاطر، وكن دائمًا أحدَّ من سيف صقيل، فالخطر يمتحن القدرة، والمخاطر هي التي تخطرنا بأي مدى ستتحمل أجسادنا وأرواحنا."

ولهذا فإن سفيان الثوري رحمه الله قال:

"إن ذهابك إلى خراسان للدعوة خير لك من المجاورة لبيت الله الحرام"، وهذه المقولة أيضًا لسفيان الثوري تبين لنا تلك الحقيقة.

ولهذا يجب على إنسان الخدمة ألا ينحني أمام المخاطر والأزمات التي تقابله، بل على العكس يجب أن تزيد تلك المخاطر من قوّته، ويجب عليه أن يعلم أن الحصول على ماء الحياة -الذي يعد إكسير السعادة الأبدية للقلوب- يكون في أغلب الأوقات في ديار الغربة وفي أوقات صعبة متأزمة، والحقيقة أنهم لن ينالوا النعمة دون تذوق الكلفة والمشقة، ولن ينالوا الرحمة دون تذوق التعب، لأنها جهود تُبذل في سبيل غاية علوية وشيء مبارك قيم.

والخدمة ليست حبًّا مؤقتًا يأتي ويذهب، بل هي وظيفة سامية يجب أداؤها بالوجد والعشق حتى آخر العمر، لذا ينبغي أن يكون زاد أهل الخدمة الصبر ومستندهم المولى عَزَّوَجَلَّ.

وقد قال الحكماء: الإنسان الذي يتصف بالأوصاف التالية بعيد عن الله عَزَّوَجَلَّ:



"لا تشكو لمخلوق الهموم التي نزلت بك، فبذلك تشكو الرحيم لمن لا رحمة عنده".

سيدنا الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ



١- الذين يفكرون في الراحة ويبتعدون عن الخدمة.

٢- الذين يبقون بعيدين عن المبتلين والبؤساء بحجة أنهم حساسون قائلين: "لا نحتمل".

٣- من يكونون مع السفهاء والفاسقين.

أما لذة الحياة فتظهر في الأماكن الثلاثة التالية:

١- في الإيمان الذي يتحد مع الحب.

٢- في العبادات التي تؤدى بخشوع ووجد.

٣- في الخدمة التي تؤدى بآداب التصوف.



والخلاصة أن الخدمة كي تكون مقبولة عند الله تعالى يجب أن تكون مرتبطة بأدب جم وحساسية مرهفة، وكما أنه لا يمكن الحصول على النتيجة المطلوبة المرجوة من بعض الخدمات التي تم تأديتها جزافا، يمكن أيضًا أن تعطي نتائج غير مرغوب فيها.

قيمة أية خدمة مرتبطة بمقدار التضحية المبذولة من أجل أداء تلك الخدمة، ومرتبطة بالحالة الوحدانية التي يكون عليها الخادم حال بذله للخدمة.

وخدمة مخلوقات الله ﷻ بشفقة وحب ورحمة، عمل قلب يريد الصبر والتحمل الكبيرين، ورجل الخدمة الكامل هو الذي يجب أن يتصف بالصبر والرحمة والشفقة وحب الغير، وأن يبتعد عن الحقد والغيرة والحسد.

وإذا ما نظرنا بعين الحكمة والعقل سنجد أن القرآن الكريم ركّز بشدة على تلك الأخلاق والصفات الجميلة، كما أن القصص القرآني يعد بمثابة المتمم لتلك الأسس



الأخلاقية، أما آيات الأحكام فتُظهر التطبيق الضروري لتصرفاتنا الأخلاقية.

أساسًا إن الأخلاق التي تعد نضوجًا دينيًّا، تعني الانتقال من الحياة الحيوانية إلى الحياة الإنسانية، والانتقال من الصفات الخام إلى الهوية الكاملة، فأساس الأخلاق أن نتجه إلى ربنا بحب، وطريق ذلك هو طريق الخدمة في سبيل الله. وعلى هذا فإن إنسان الخدمة الناضج هو الإنسان الذي يستطيع أن يحمي دينه وحماسته ووجوده على كل حال، وأيًّا كان المكان الذي يعيش فيه، وهو الإنسان الذي ينزه قلبه عن المال والملك والمنافع، هو الإنسان الذي يرهف سمعه وقلبه للضعفاء المساكين الذين لا صوت لهم، هو الإنسان الذين يعرف أن يوم موته ليس مأتمًا وإنما هو «ليلة عرس» بالنسبة له بعد حياة الخدمة المشرفة التي أداها، هو الإنسان الذي أدرك سر "موتوا قبل أن تموتوا".

إلهنا، اجعل لنا نصيبًا من تلك الخصال، وأحسن إلينا وقوِّنا على أداء الخدمة، وأحسن إلينا بعمر نملؤه بالخدمة المتشبعة بالفراسة والعزيمة والجهد والتي تجعلنا نشعر في قلوبنا بمسؤولية كل مكان لم نتمكن من الذهاب إليه، وتلطف على قلوبنا بحماس للخدمة، واجعل لنا جميعًا نصيبًا بالتمكن من أدائها على النحو الذي يرضيك يا أرحم الراحمين. آمين!!!

تُقبَل الخدمة حين تكون في سبيل الله، وتؤدى دون احتقار المخاطبين، بل بأسلوب يشرِّفهم ويكرمهم.



مقتطفات من وصية سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لمالك الأشتر لما ولاه مصر

- أشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخُلُق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه.
- ولا تندمن على عفو، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت عنها مندوحة، ولا تقولن إني امرؤ آمر فأُطَاع، فإن ذلك إدغال في القلب، ومنهكة للدين، وتقرب من الغير.
- وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله عز وجل فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك؛ فإن ذلك يطامن إليك من طماحك، ويكف عنك من غربك، ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك، وإياك ومساماة الله عز وجل في عظمته والتشبه به في جبروته، فإن الله عز وجل يذل كل جبار ويهين كل مختال.

إن البلدان التي لم تُنثَر على ترابها بذور الرحمة بلدان محرومة من الفتوحات العظيمة.



"لا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيدًا لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريبًا لأهل الإساءة على الإساءة".

سيدنا علي رضي الله عنه

- أنصف، فإنك إن لا تفعل تَظْلِم، ومن ظلم عبدًا لله كان الله عز وجل خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله عز وجل أدحض حجته، وكان لله حربًا حتى ينزع ويتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله عز وجل، أو تعجيل نقمته من إقامة على ظلم.
- وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية.
- وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس؛ فإن في الناس عيوبًا الوالي أحق بسترها.
- وأطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر، وتغابَ عن كل ما لا يصلح لك، ولا تعجلن على تصديق ساعٍ، فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين.
- ولا تُدخلن في مشورتك بخيلًا يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا جبانًا يُضْعِفُكَ عن الأمور، ولا حريصًا يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.
- والصق بأهل الورع والصدق، ثم رضهم على ألا يطروك، ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو، وتدني من العزة.
- ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيدًا لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريبًا



لأهل الإساءة على الإساءة، وألزم كلًّا منهم ما ألزم نفسه.

- وعليك بحسن الظن برعيتك، فإن حسن الظن يقطع عنك نَصَبًا طويلًا.
- ووَلِّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ﷻ ورسوله وإمامك، وأنقاهم جيبًا، وأفضلهم حلمًا ممن يبطئ عن الغضب ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، وممن لا يثيره العنف، ولا يقعد به الضعف،
- ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالًا على جسيمها.
- ولتعلم أن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية، وأنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم.
- ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى، ولا تضيفن بلاء امرئ إلى غيره، ولا تقصرن به دون غاية بلائه، ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه متى كان صغيرًا، ولا ضعة امرئ إلى أن تصغر من بلائه ما كان عظيمًا.
- ثم انظر في أمور عمالك، فاستعملهم اختبارا، ولا تولهم محاباة وأثرة فإنهما جماع مِنْ شعب الجوْر والخيانة.
- ثم انظر في أمور عُمَّالِك، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإنَّ تعاهدك في السر لأمورهم حدوة

"إن كان لقصار القامة ظل طويل في بلد ما، فاعلم أن الشمس تغرب هناك..."



"لا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه متى كان صغيرًا، ولا ضعة امرئ إلى أن تصغر من بلائه ما كان عظيمًا".

سيدنا علي رضي الله عنه

لهم على استعمال الأمانة، والرفق بالرعية، وتحفظ من الأعوان.

- فلا تشخِص همك عنهم، ولا تصَعِّر خدَّك لهم، وتفقَّدْ أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحْقِره الرجال، ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية وَالتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله تعالى يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإِنصاف من غيرهم، وكلا فأعذر إلى الله تعالى في تأدية حقه إليه.
- واجعل لذوي الحاجات منك قسمًا تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلسًا عامًّا، فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع، ثم احتمل الخرق منهم والعي، ونحِّ عنهم الضيق والأنف يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته، وأعط ما أعطيت هنيئا، وامنع في إجمال وإعذار.
- وأمض لكل يوم عمله، فإن لكل يوم ما فيه، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت، وأجزل تلك الأقسام، وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية.



- وليكن في خاصَّة ما تُخْلص للَّه به دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فأعْطِ الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووَفِّ مَا تقرَّبْتَ به إلى الله من ذلك كاملا غير مثلوم ولا منقوص، بالغا من بدنك ما بلغ. وإذا قمت في صلاتك للناس، فلا تكونن منفرا ولا مضيعا، فإن في الناس من به العلة وله الحاجة. وقد سألت رسول الله ﷺ حين وجَّهَني إلى اليمَن كيف أصلي بهم؟ قال:

«صل بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيما».

- فلا تطوِّلن احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الوُلاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقِلَّة علْم بالأمور، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبُح الحسن، ويحسُن القبيح، ويشاب الحق بالباطل.
- وألْزِم الحق مَن لَزِمَه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابرا محتسبا، واقعا ذلك من قرابتك خاصَّتِك حيث وقع، وابتغ عاقبته بما يَثقُل عليك منه، فإن مَغَبَّة ذلك محمودة.
- فحُطْ عهدك بالوفاء، وارْع ذمّتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنة دون ما أعطيت، ولا تختلن عدوك، فإنه لا يجترىء على الله إلا جاهل شقي.
- ولا تعـقــد عقدا تجوز فيه العلل.

المؤمن يجب أن يكون رحيمًا وكريمًا ورقيقًا وحساسًا يسعى في نفع الآخرين كنور القمر الذي يضيء في ليلة مظلمة.



- وإياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحب الإطراء، فإن ذلك من أوْثَق فرَص الشيطان في نفسه، ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين.
- وإياك والمنّ على رعيتك بإحسانك، أو التزيّد فيما كان من فعلك، أو أن تعدهم فتُتْبِعَ موعدك بخلفك، فإن المن يبطل الإحسان، والتزيّد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله ﷻ والناس.
- وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها، أو التساقط فيها عند إمكانها، أو اللجاجة فيها إذا تنكَّرت، أو الوهن عنها إذا استوضحت.
- وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة، والتَّغابي عما تعنى به مما قد وضح للعيون، فإنه مأخوذ منك لغيرك، وعما قليل تنكشف عنك أغطِية الأمور، ويُنتَصف منك للمظلوم.
- املك حمية أنفك، وسورة حدك، وسطوة يدك، وغرب لسانك، واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة، حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك.

وعلى الله ﷻ رجاؤنا والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

السعادة هي قبولك الحياة كما هي، أي أنها تكون بقبول عسرها وشدتها، وبالسعي لإصلاحها.



"يا بني أسِئ إلي ولكن لا تُسئ للشيخ أدبالي! فهو الشمس الروحاني لعشيرتنا. وميزانه دقيق لا يخطئ قيد أنملة. عارضني ولكن لا تعارضه، إن عارضتني حزنت، ولكن إن عارضته فلن أنظر إليك بعدها، وإن نظرت فلن أراك!"

نصحية الغازي أرطغرل لابنه الغازي عثمان

من نصائح
الشيخ أدبالي لعثمان غازي

"يا بني!

أنت الأمير، فالغضب منا واللين منك، الخطأ منا والعفو منك، العجز والعوز منا، والتسامح منك، الصراع والصدام منا والعدالة منك، سوء الظن والظلم منا والعفو منك، يا بني! التفرقة منا، والوحدة منك، التكاسل منا والهمة منك".

"يا بني!

إن حملك ثقيل، وعملك صعب، وقوتك مرتبطة بقيد شعرة، أعانك الله، وجعل إمارتك مباركة، وجعلك نافعًا في طريق الحق، وجعل نورك لامعًا يذهب إلى أبعد حد، وأعطاك الله قوة تعينك على حمل ثقلك، وعقلا وقلبا يحميانك من الزلل".

"يا بني!

أنت قوي وعاقل ومتكلم، ولكن إن لم تعلم كيف ومتى تستخدم ذلك فإنك ستهلك مع أول نسمات الصباح وتذهب، غضبك ونفسك اذا اتحدا يغلبان على عقلك، فتحل بالصبر والثبات واملك إرادتك واحزم أمرك حتى لا تغلبك نفسك.

فالصبر مهم جدًّا، وعلى الأمير أن يعرف كيف يصبر،

فلا يقطف الوردة قبل وقتها، فالكمثرى لا تُؤكل قبل نضجها، وإن أكلتها فإنها تبقى في صدرك، والسيف بلا علم مثل الكمثرى التي لم تنضج تمامًا.

ولتحيِ الأمة في عرفانها، فلا تحول عنها ظهرك، واشعر بها كَل وقت، فهذا العرفان هو الذي يوجه المجتمع وهو الذي يحافظ على بقائه حيًّا".

"يا بني!

"الناس يولدون وقت الشفق، ويموتون وقت العشاء، والدنيا ليست عظيمة كما تتراآى لعينك، ولن تتضح الأسرار والمجاهيل التي لم تفتح بعد إلا بفضيلتك وعدلك. عليك بتعظيم الأمهات والأجداد، ولتعرف أن البركة في هؤلاء الكبار، وإن فقدْت إيمانك في الدنيا فإن جمالها يتحول إلى صحراء قاحلة".

"كن واضح الكلمة، ولا تظنن أن كل كلمة تقال لك، ولا تتحدث بكل ما رأيته، وأخف ما كانت الفائدة في خفائه، ولا تتكلم في كل أمر تعلمه، ولا تكثر من زيارة من تحب، فإن هذا يُضِر بقدرك ومحبتك".

"تألمْ أكثر ما تتألم على ثلاثة؛ العالم بين الجهلاء، والغني إذا افتقر، وعزيز القوم إذا ذل".

"ولا تحسبن أن من في المناصب المرموقة في مأمن أكثر من عامة الناس".



يا بني! أنت قوي وعاقل ومتكلم، ولكن إن لم تعلم كيف ومتى تستخدم ذلك فإنك ستهلك مع أول نسمات الصباح وتذهب، غضبك ونفسك اذا اتحدا يغلبان على عقلك، فتحل بالصبر والثبات واملك إرادتك واحزم أمرك حتى لا تغلبك نفسك.

الشيخ أدبالي



"لا تخش الجدال إذا كنت على حق، ولتعلم أن الناس يقولون عن أفضل الخيل "مقدامٌ وثابتٌ"، وعن أحسن الشباب "مجنون" -أي إنه شجاع، وذا صولة بلا خوف-".

"وأكبر انتصار لك أن تعرف نفسك، فالإنسان عدو نفسه، والصديق لنفسه هو الشخص الذي علم حقيقة نفسه".

"وإن جلس الإنسان في مكان فمن الصعب أن ينهض منه، لما كان الشخص ساكنا لم يتحرك يصبح مخدّرا، فهو بتلك الحالة لا يزال يتكلم، والكلام يتحول إلى القيل والقال. وإذا سيطر القيل والقال عليه فلن يفلح، وحينئذ يصبح الصديق عدوًا، والعدو وحشًا".

"وقوة الشخص يأتي عليها يوم ما وتنضب، ولكن العلم يظل ويحيا، ونور العلم يدخل حتى إلى الأعين المغلقة وينيرها".

"والحيوان يموت ويبقى سرْجه، والإنسان يموت ويبقى أثره، فيجب أن نبكي على من لا يترك أثرًا وليس على من مات بلا أثر، ويجب أن يستمر ما تركه من المكان الذي تركه".

"ليس لنا حق في الراحة أو التوقف. لأنه ليس هناك وقت، والفترة قصيرة".

"يجب أن يكون الحب أساس الدعوة، لأن الحب يكون في الصمت، أما إن كان في الصياح فلا يكون حبًّا، وإن كان مرئيًّا أيضا لا يكون حبًّا".

"الحيوان يموت ويبقى سرْجه، والإنسان يموت ويبقى أثره، فيجب أن نبكي على من لا يترك أثرًا وليس على من مات بلا أثر".

الشيخ أدبالي



"من لا يعرف ماضيه فلن يعرف مستقبله، يا عثمان! عليك بمعرفة ماضيك جيدًا حتى تدخل المستقبل بقوة، ولا تنس من أين أتيت، حتى لا تنسى إلى أين ستذهب".



لقد حملَتْ تلك النصائحُ القيِّمةُ -التي أوصى بها الشيخ أدبالي لعثمان الغازي- الأمةَ والدولةَ العثمانية بدءًا من السلطان وحتى العلماء، وبدءًا من الفارس المقاتل وحتى الدرويش إلى أعلى القمم، وكانت سببًا في تحقيقها انتصارات ونجاحات مادية ومعنوية لا تحصى، ولهذا فإن المعماريين الحقيقيين للدولة العثمانية هم سلسلة الشيخ أدبالي وسلاطين القلب الذين تربوا على أيديهم المباركة، أي إن هذا الجمال وهذه البركة والفيض والخير المركوز في التربة العثمانية إنما هي أثر تلك القلوب المتميزة ذات الطبيعة الوردية، والحكاية التالية الواردة في الكتاب المسمى جولِسْتَانْ للشيخ سعدي من أجمل الأمثلة على هذه الحقيقة:

إن المعماريين الحقيقيين للدولة العثمانية هم سلسلة الشيخ أدبالي وسلاطين القلب الذين تربوا على أيديهم المباركة، أي إن هذا الجمال وهذه البركة والفيض والخير المركوز في التربة العثمانية إنما هي أثر تلك القلوب المتميزة ذات الطبيعة الوردية.

"ذات يوم كنت في الحمّام فأعطاني أحد الأصدقاء تراب تنظيف ذا رائحة طيبة، فسألت هذا التراب:هل أنت مسك أم عنبر؟ لقد أصبحتُ ثملًا برائحتك الجميلة التي تأخذ القلب".

فأجاب تراب التنظيف: "أنا كنت تراب وردة، أوراقها مفعمة بقطرات ندى الصباح، وقد بكت تلك الوردة علي،



فأصبحت بهذه الدموع كالطين، وأنا في الأصل تراب عادي، ولكن الرائحة للوردة".

والحاصل أن العصر العثماني كان قد نثر الروائح الطيبة على الدنيا بقطرات الندى التي سقطت من الورود، وكان بمثابة منبع الفضيلة والجمال في وظيفة نظام العالم، وخاصة بركة سلسلة الدهاء الذي كان موجودًا في العصور الثلاث الأولى للدولة، ظهر في كل تراب الوردة، والوردة رمز للنبي ﷺ، أي إن فخر الكائنات هو وردة الورود بأخلاقه، وسلطان كل الورود بكل أحواله الظاهرية والباطنية.

إلهنا اجعل لنا نصيبًا ولو ذرة من أخلاقه، وأحسِن إلينا جميعًا بندى تلك الوردة في الدنيا والآخرة. آمين!!!



ليس الخير
في كون المرء
سلطانًا على
الدنيا
بل في الانتساب
إلى ولي
والوصول إلى
الدرجات العليا

السلطان ياووز سليم